
www.kotobarabia.com
رواية
العربة الذهبية
لا تصعد إلى السماء
سلوى بكر
www.kotobarabia.com

روايــة

سلوى بكر

العربة الذهبية

لا تصعد إلى السماء

حيث صبّ البحر

أفاقت عزيزة الإسكندرانية من قيلولتها، التي تنامها عادة – عوضا عن قيامها الكثير من ساعات الليل، إلى وقت السحر – حتى تهدأ قليلاً حياة النهار، الصاخبة، في سجن النساء، التي يختلط فيها الضحك، بالبكاء، بالشجار المعتاد بين نزيلاته على الحمام، وعلى ما يقدم لهن من طعام، إضافة إلى زعيق السجانات، الذي لا ينقطع، معظم الوقت، لردع الجميع، وحثهم على الامتثال للأوامر، والقواعد المقررة لتسيير الحياة بين جدرانه.

فتحت عينيها، وهي ما زالت ممددة على فراشها الأرضي لم تغادره بعد، فاصطدم بصرها عبر شباك الزنزانة المفتوح العالي بذؤابات الأشجار التي ضاع بعض من معالمها في العتمة، بسبب انطفاء الشمس، ورحيلها الذي لم يكن قد مضى عليه غير وقت قليل، وظلت للحظات تستمع إلى معزوفة الوداع المسائية التي تعزفها العصافير المستقرة على الغصون حتى ضياء صبح آخر، وهي المعزوفة التي

أنصتت إليها مرات ومرات، عند هذا الوقت من كل مسـاء، منذ أن استقرت كنزيلة في سجن النسـاء، والتـي تخـتلط ألحانها، المزقزقة والمشقشقة عادة بصوت الشيخ عبد الباسط، أو محمد رفعت، المرتل لتراتيل قرآنية جميلة، تنبعـث مـن الراديو الترانزستور الذي تضعه عادة الحاجة أم عبد العزيز على إفريز شباك عنبر العجزة، بعد أن تثبت مؤشره علـى محطة إذاعة القرآن الكريم.

تنهدت عزيزة بحرارة، عندما وصل المقرئ إلى قول العزيز الحكيم: ولكم في القصاص حياة يا أولي الألبـاب وكانت قد بدأت تشعر بضيق في تنفسها، وبوطأة الجو الخانق على روحها، وبسماجة لزوجة عرق البلح، المنسـاب علـى رقبتها، وتحت إبطيها، بسـبب الرطوبـة الشـديدة لشـهر أغسطس، التي تنعم على القطن بتمام نضجه وتفتحه، وعلى البلح بمنتهى استوائه واحمراره فقامـت وخلعـت جلبـاب السجن، الميري، الطويل المصنوع مـن البفتـة البيضـاء، وتوجهت إلى ركن الحجرة، فحفنت بيديها حفنات مـن مـاء الدلو، البلاستيكي، الأخضر، المركون فـي ذلـك الـركن، ومسدت وجهها ورقبتها به، وغسلت تحت إبطيهـا، تاركـة

القطرات المتخلفة عن ذلك، تتسـاقط منهـا فـي صـفيحة الفضلات القديمة، والتي كانت بالأصـل، صـفيحة مسـل صناعي ماركة الميزان، ثم إنها ملست، بيديها المبتلتين، على شعرها، لتكبح جماح الشعيرات الناعمة، التـي نفـرت مـن عقدته، المثبتة بمشابك ودبابيس، بسبب النوم، فلما انتهت من ذلك، راحت تتمشى قلـيلاً، فـي الحجـرة الواسـعة، ذات الشباكين، اللذين يطل أحدهما على الدهليز، الطويل، الممتـد الواقعة عليه زنزانتها، وكل الزنازين الأخـرى، فـي هـذا الجناح من السـجن، المخصـص للعجـزة، والمستشـفى، والحالات الخاصة مثل حالتها، وتوجهت نحو الشباك الثـاني بعد أن ملت التمشي آملة أن تهب من ناحيته نسمات رقيقـة تنعش روحها، وتشعرها ببعض البرودة اللذيذة، إذ هي جففت ما غسلته بالماء فلما لم تجد أمامها غيـر الحـائط العـالي، المنتهي بحزام الأسلاك الشائكة، التي تحوطه، وهو الحـائط الذي يفصل بين سجن النساء، وسـجن الرجـال، وذؤابـات الأشجار، التي ضاعت معالمها أكثر من ظلمة المساء، تنهدت بضيق، تاركة الشباك بقضبانه الحديدية الرفيعة والمطل على ذلك المشهد، الذي حفظته عن ظهر قلب منذ أن نقلتها الإدارة

لهذه الزنزانة، وعادت إلى فرشتها مرة أخرى، فجلست عليها كالمعتاد، لتبدأ سهرتها الليلية، التي لم تنقطع عنها منذ سنوات طويلة، وهي أشبه بخلوة يومية، تختلي فيها بنفسها، تجتـر، خلالها، ذكريات الأيام الخوالي، وتناجي روحهـا الوحيـدة، المفعمة بالوحشة واليأس، وانقطاع كل رجاء يأتي من أهـل الدنيا، أو من سنوات الحياة.

أشعلت لنفسها سيجارة كليوباترة، سحبت منها نفسـا طويلاً، ابتلعته عميقًا، بمتعة مدخنة مخضرمة، أدمنت الدخان منذ مطلع شبابها، ثم تطلعت، ببصرها إلى نجمات قلـيلات، أطلت عليها من القطعة السماوية الصافية التي يسـمح بهـا الشباك، وصبت لنفسها في الكوب البلاستيكي المركون إلـى جوار الإبريق الفخاري، الموضوع بجانب الفراش، قليلاً من الماء البارد نوعا، فتجرعت منه جرعة ، وراحت تحادث أم رجب، بصوت خفيض هادئ بعد أن استدعتها – كما تفعـل دائما – بمخيلتها، من سريرها في عنبر العجـزة المجـاور، لتجسدها جالسة قبالتها تحكي لهـا عـن رأيهـا بوضـوح، وصراحة في تصرفاتها ورأيها الحقيقي فيها فقالت:

- يا أم رجب.. مشكلتك أنك حمارة.. من أول يـوم شفتك هنا، قلت لنفسي: الولية العجوز، أم شعر أحمر، خشن مصبوغ لازم أن تكون غبية وحمارة، لأني قدرت من ساعة شوفتي لك، أن عمرك عدى وفات سـتين سـنة بالتأكيـد، والحمار وحده يدخل السجن لما يصبح فوق السـتين، ولمـا حكت لي محروسة السجانة عن سبب سـجنك، قلـت لهـا: فعلاً.. ولية حمارة، لأنك يا أم رجب محبوسة لأجل شـيء تافه، ثلاث سنين بسبب محفظة ما تسـاوي أن يـبص لهـا الواحد أبدا، فيها تسعون جنيها عمي يعني كل ثلاثين جنيهـا بسنة من عمرك، والغريب أن تقري فـي تحقيـق النيابـة، وتعترفي، أنك طوال عمرك نشالة، لحم أكتافك، من الهبش، ويوصلك هبلك لحد الكلام، معهم عن طريقتـك فـي نشـل الفلوس من جيوب ومحافظ الناس.

تصورت عزيزة كعادتها أن أم رجب تجلس أمامهـا في هذه اللحظات، بلحمها ودمها، شارعة في البكاء والنشيج، إثر سماعها ذلك التوبيخ، بينما فتحة فمهـا الصـغيرة، تلـم وتفرد تجاعيد جلدها الكثيرة الدقيقة، المتجمعة، حول شفتيها، الرقيقتين في حركات عصبية مرتعشة، لكن عزيـزة كانـت

مدركة أن ذلك التوبيخ لم يكن إلا السبب الظاهري لبكـاء أم رجب، أما السبب الحقيقي العميق فهو كدرها على حالها بعد أن ماتت ابنتها وهي لا تملك سبيلاً لرؤيتها أو تشييعها إلـى القبر، لذلك حاولت تهدئة الأم الثكلى، التي مازالت تتصورها جالسة، أمامها في زنزانتها الانفرادية، رغم شخير أم رجب، بصوت، يشبه صوت مكبس مضخة المياه، كـان يتعـالى، حقيقيا، عاليا، آنذاك، من عنبـر العجـزة، عبـر الشـبابيك المفتوحة، عن آخرها، بسبب حرارة الجو، ويصل لمسـامع عزيزة بمنتهى الوضوح، وذلك بعد أن نامت هـذه العجـوز مرهقة، خائرة القوى، إثر أزمة قلبية، كانت قد داهمتها قبـل ذلك بساعات، وكادت أن تجهز على حياتها، لولا الحاجـة أم عبد العزيز، التي أعطتها دواء القلب بسرعة، وظلـت إلـى جانبها، ترعاها وتمرضها حتى مرت الأزمة بسلام.

ملأت عزيزة كوبها بالماء، ورفعـت يـدها بـه لأم رجب لتشرب، وتهدأ روحها قليلاً، وتتوقف عن البكـاء ثـم قالت لها:

- خلاص بطلي النواح، لأن الدموع والبكاء أكلـت نظرك، وصحتك في النازل يوما وراء يوم، ثم... فكري في

نفسك لأجل خاطر عيال المرحومة، لأنهم في انتظار ساعة خروجك لتحوطيهم بحنانك ورعايتك، ثم إن قدامك هموم كثيرة، إلى أن يكبروا، ويصلب عودهم، ويقدروا أن يواجهوا الدنيا ومشاكلها.

كانت عزيزة تدرك جيدا أن حزن أم رجب لن ينقطع مهما كانت الأسباب وكلمات العزاء التي تقولها لها، لكنها كانت فقط تحاول كفها عن البكاء والعويل، لأن فجيعة أم رجب في ابنتها الوحيدة، التي ترملت، قبل شهور قليلة من دخول أمها السجن، لا حدود لها، خصوصا أنها تركت بعد موتها ثلاثة أطفال صغار، أكبرهم في العاشرة وذلك بعد أن فشلت كل محاولات إنقاذها عندما أمسكت بها نار موقد الغاز، وأتت عليها بسرعة، لأنها كانت ترتدي قميصا للنوم، طويلاً، مصنوعا من مادة النايلون سريعة الاشتعال، التصقت بجسدها، وحولته إلى كتلة سوداء متفحمة.

لذلك فعزيزة، منذ أن عرفت بمأساة أم رجب، غيرت من معاملتها لها، ومن نظرتها القديمة إليها باعتبارها شيطانة عجوز، لا تكف عن الشجار، وافتعال المشاكل مع كل من حولها، رغم جسدها النحيل، الضامر وقلبها الضعيف، المهدد

بالتوقف في أية لحظة، كما قال أطباء السجن والذي تلزمه جراحة، لتغيير صمامين من صماماته، وهذا ما لن يحدث بالطبع بسبب أن أم رجب لا أسود لديها ولا أبيض، لتدفعه لجراح متخصص في مثل هذا النوع، من العمليات، يتقاضى مبلغًا خرافيا، بالنسبة لها، كما أن مستشفيات الحكومة، تفيض عن إمكانياتها، طوابير أولئك المنتظرين أمام أبوابها، لإجراء مثل هذه الجراحات.

وضعت عزيزة الكوب، على الأرض، بعد أن تعبت من رفعه، دون أن تمتد يد أم رجب لتأخذه منها، أطفأت ما تبقى من سيجارتها التي كانت على وشك الانتهاء ثم إنها زمت عينيها قليلاً، في نظرة متفحصة للمرأة، التي ما زالت تراها جالسة أمامها وقالت:

عندي لك مفاجأة، يا أم رجب.. مفاجأة تخليك في غاية الانبساط، والرضا لكن طوال ما أنت عاملة لي مناحة يبقى سرها محفوظ عندي.. وأنت حرة.. نوحي على كيفك، إن شاء ا تنفلقي، وذنبك على جنبك.

ابتسمت عزيزة، ابتسامة عريضة، راضية، بانت معها أسنانها التي كانت لؤلؤية جميلة في زمن غابر، والتي

أصبحت الآن سوداء وسخة، بسبب الإهمال والتدخين المتواصل لصاحبتها، كانت منتشية بذلك التهديد الذي واجهت به أم رجب، لتجعلها تكف عن البكاء وتستريح روحها المعذبة قليلاً لذلك رفعت كوب الماء، وعبت ما فيه عبا، على أساس أنه خمر معتق، لذيذ وليس ماء من الإبريق، الذي حرصت على ملئه، قبل إغلاق الزنزانة، عليها من الخارج، ليفي بحاجتها من الماء طوال الليل، وحتى صباح اليوم التالي، وبعد أن توهمت خدرا لذيذًا، أدار رأسها، الذي ما زال يحتفظ ببقايا من جمال قديم ضائع، ليكتمل تمثلها لكونها قد سكرت فعلاً، مثلما كانت تفعل كثيرا في الماضي الجميل الذي عاشته، ومازال يعيش معها أشعلت لنفسها سيجارة أخرى راحت تحملق في خيوط دخانها الأزرق، المتصاعد أمامها، بينما أخذها التفكير العميق الأسيان الذي طالما زارها، عندما تبقى وحيدة في زنزانتها الانفرادية، ليذهب بها بعيدا، بعيدا، إلى عالمها القديم الذي بات محتجبا عنها تفصل بينه وبينها قضبان وأسوار، وسنوات طويلة، من الوحدة في تلك الزنزانة، الانفرادية الموحشة، التي طالما حنت وهي جالسة فيها إلى رائحة البحر، وأصوات هدير

أمواجه التي طالما سمعتها في بيتها القديم تأتيها من بعد، وتطمئن روحها بأنها تحيا في مدينتها التي طالما عشقتها، ونحتت معالمها الجميلة في جدران ذاكرتها العتيقة.

كانت عزيزة بنت الإسكندرية، قد دخلت دنيا سجن النساء، قبل أن تبلغ الأربعين من عمرها كمحكومة بالسجن المؤبد، بعد أن قتلت زوج أمها، دونما سبب واضح تبديه للقضاء في أثناء محاكمتها فلقد أصرت على ترديد قول واحد علات به اغتيالها له، بينما كان نائما في سريره ذات ليلة، بأن أغمدت سكين مطبخ حادة في صدره، أردته بعدها قتيلاً، قالت إنها لم تقتله، لكنها قتلت شخصا آخر غيره، وجدته نائما في الفراش، ولم تزد على قولها هذا شيئًا، رغم كل المحاولات التي جرت لاستنطاقها، والحصول منها على أقوال أخرى، تفيد في الحكم عليها حكما لا يشوبه الظلم والجور، مع أنها حكت للمحكمة بالتفصيل، كيف أنها غرزت السكين في قلبه القاسي، الذي ما قالت لأحد أبدا، أنه مزق قلبها وكسره، وأحرق كل ذكرياتها الجميلة معه، فأحرقت معها جميع سفنها، وباعت كل ما معها من مصاغ وأشياء ثمينة، تبرعت بثمنها لجمعية خيرية، مفترض أنها لرعاية

مرضى الجذام، الذين يمكن مشاهدة بعضـهم يتسـول فـي شوارع المدينة، كأكبر دليل على وجود هذه الرعاية، ثم إنها بعد أن قتلته وتأكدت من خروج نفسه الأخير، قامت بإشعال النار، ليس في صوره، وصورهما المشتركة ومتعلقاته مـن أوراق وملابس وعصي خشبية وعاجية ثمينة كـان يحملهـا عادة من باب الوجاهة، ولكنها أشعلت النار، أيضا في كـل المحتويات الأخرى التي ضمها المنزل القديم الجميل المحاط بحديقة واسعة غناء، طالما شهدت أوقاتًا سـعيدة وذكريـات رائعة لا تنسى أيام كان هذا المنزل عامرا، بسكانه الأحبـاء، وتفاصيل حياتهم المثيرة، السعيدة.

ظلت عزيزة وحتى لحظات جلوسها هذه في السجن تجتر ذكرياتها القديمة، التي تجعلها لا تندم على مـا فعلتـه أبدا، لأنها ما قتلت إلا لأجل الاحتفاظ بتلك الذكريات جميلة، صافية الحلاوة، لا تشوبها أية شائبة، تكدر صفاءها، لأن من قتلته، لم يكن هو الرجل الذي عرفته وخبزته، وربيـت فـي كنفه، منذ أن كانت طفلة صغيرة، لم تشب عن طوق البراءة بعد، وحتى صارت شابة جميلة مكتملة الجمال والتكوين، بل إنها قتلت رجلاً آخر له الملامح ذاتها والشكل ذاته، لكنه لـم

يكن له القلب نفسه، والروح نفسها اللذان طالمـا أحبتهمـا، وعشقتهما، وأخلصت لهما، منذ ذلك الزمن البعيـد، وهكـذا أيقنت أن ذلك الآخر الشبيه، هو المغتصب لجسدها الجميـل منذ أن كانت صبية لم يتجاوز عمرها الثالثة عشر، بعد، وهو المجرم الخطير الذي سرق قلبها المحب وعواطفها الجياشـة العميقة، التي طالما سفحتها لأجل عشقه، وهو فـي النهايـة قرين الشر المختبئ في عالمه السفلي، والذي ظهر لها، فجأة، ليكدر سعادتها، ويحطم بنيان الوداد في ذلك البيت القديم.

لقد فكرت قبل اغتياله في طرق عديدة مبتكرة، لتميته الميتة المناسبة التي تليق بكرامة ذلك الآخر – الأصل، الذي طالما أحبته، إذ لم يكن من المعقول، بالنسبة لها، أن تميـت من هو جميل، رائع مثله بأسلوب فج خشن، يفتقد إلـى كـل ذوق وأناقة لذلك اقترحت على نفسها ذات مـرة أن تصـب عليه كمية هائلة من الشيكولاتة، المغلية، السـائلة، بعـد أن تخدره بمخدر قوي، يفقده كـل قـدرة علـى الحركـة، أو المقاومة، ليتسربل بذلك السائل داكن اللون، اللذيذ، ويتحـول إلى قالب ضخم من الحلوى، التي قل من لا يقبل عليها، من الناس، ثم إنها قررت تزيينـه بحبـات الكـرز المجفـف،

وشيكولاتة السمسم الدقيقة، والكريمـة المخفوقـة، الهشـة، ليصبح جاهزا للتقطيع قطعا صـغيرة بالشـوكة والسـكين، تضعها برفق وعناية، متراصة إلى جوار بعضها الـبعض، في منظر بديع، ينم عن حس، وذوق فـي أطبـاق الحلـوى المصنوعة من الخزف الصيني ذات الأطر الزرقاء المذهبـة عند الحواف، لتوزعها على الجيران والأصدقاء، مسـتحوذة، لنفسها، على تلك القطعة التي يقع في نطاقها القلب الشـرير، الذي طالما عذبها، وحطمها يأسا وقنوطًا من الحياة.

ثم إنها فكرت مرة أخرى في أسلوب آخر، ربما كان أكثر ملاءمة لقتله من وجهة نظرها، وهو الأسـلوب الـذي تفتق عنه ذهنها بعد كل تلك الليالي الطويلة، التي قضتها قبل أن تقتله، تفكر وحيدة، وهي في ذلك البيت الكبير، الذي بات كئيبا موحشًا، بعد أن ماتت أمها، وتحول كمنزل من منـازل الأشباح، فتخيلت وهي جالسة على المقعد الفوتيـه، الكبيـر، أسفل شباك غرفتها، بينما كانت ترقب القمر ولا صوت يأتيها غير حفيف الأشجار، وذلك العزف الحزين، المنبعـث مـن داخلها تخيلت أن تقتله قتلاً يعوضه عن رغبته في الـزواج، من تلك الأخرى التي بات يحبها، بدلاً منها، والتي قـرر أن

يمنحها قلبه الجديد، الذي ما اعتقدت أبـدا أنـه ذات القلـب القديم، الذي طالما عشقها سنوات وسنوات، منـذ أن كانـت طفلة صغيرة لم تتفتح عيناها على مشاعر الحب بعـد، ولـم يكن الأسلوب الذي ابتدعته من نسيج خيالها المطواع لرغبتها في طريقة فريدة لإفنائه، إلا أن تخدره قبل أن ينام بمخـدر قوي يفقده كل قدرة على الحركة، ثم تأتي بكميات هائلة مـن الزهور النضرة الجميلة المقطوفة قطفًا حانيا في صباح اليوم الذي ستغتاله فيه عند المساء، والتي كانت قد قررت ابتياعها وبتوصية خاصة من أشهر محل لبيع الزهور فـي المدينـة، وهو محل الذكرى الجميلة الذي طالما أهداها ذلـك الحبيـب القديم زهورا منه وبنفسجا، ونرجسا وياسـمينًا، فـي زمـن الغرام المشبوب الذي ما كانت لتظن أنه منتـه أبـدا لتقـوم بتنسيقها تنسيقًا بديعا يتوافق مع ما حوته من ألوان وأشـكال حيث الياسمين الأبيض، وعصافير الجنة بعروقها الممتـدة، وألوانها المتداخلة البهيجة والخزامى الحزين، والورد البلدي، الأثير إلى قلبها، والذي يكون بلون الدم حينًا، وبلون الكناري حينًا آخر، وبلون خده الجميل الذي طالما قبلته أحيانًا أخرى، وبعد أن تنتهي من تنسيق تلك الزهور، تنسيقًا أنيقًـا طالمـا

برعت فيه – على جسده ورأسه وصدره وتحت قدميه، حتى يتغطى ويلتحف بها تماما، ويتضوع برائحتها جسده الساجي الممدد بلا حراك لوقوعه تحت تأثير ما خدرته به، عندئـذ، وعندما تتأكد تماما من إغلاقها لنافذة الحجرة وبابها، إغلاقًـا محكما لا يسمح بدخول أقل الهواء فإنها تتركه يموت موتًـا بطيئًا جميلاً، وهو يتنسم العبير القاتل الذي طالما تنسمته بين يديه وهو يقدم لها تلك الزهور الرائعة في الزمن الماضي.

لكن عزيزة لم تطبق أيا من تلك الأفكار التي جالـت برأسها قبل أن تقتله، ولم تنفذ جزءا واحدا مما كانت تضمره في نفسها من قتل جميل مبتكر، يختلف عن تلـك الأسـاليب المتعارف عليها للقتل إذ كانت تخشى افتضاح أمرها وفشـل خططها المبتكرة، للموت، لأي سبب من الأسباب يتعلق بعدم دقة التنفيذ أو كشف نواياها، قبل تنفيذها بالفعل، وهكذا عقدت عزمها على استخدام السكين، باعتبارها الوسـيلة الأضـمن والأسرع في التنفيذ، بل والأكثر قدرة على إنجاز ما ترغـب في إنجازه وإحداث فعل المباغتة، الذي عاشته ذات يوم بعيد حين كانت ما تزال طفلة صبية بضفيرتين، ما عاشت زمـن طفولتها، أبدا، بسبب ما رتبته لها الأيام من تصاريف جعلتها

مضطرة، دوما لأن تكون سيدة بيت تتحمل ما تتحمله النساء عادة من تدبير شئون عالمهن الضـيق، المحـدود، بحـدود الجدران فتنصرف إلى الطهو والتنظيف، والإشراف على كل ما يتصل بحياة مستقرة تشي بوجود امـرأة، لقـد بوغتـت عزيزة ذات يوم بعيد في زمن الطفولة، المسروقة تلك، وهو اليوم الذي لا يغيب عن ذاكراتها أبدا إذ كانـت تقـف فـي المطبخ لتعد طعام الغداء للأسرة الثلاثية الصغيرة المكونـة منها ومن رابها وأمها، التي كانت قد ذهبت آنذاك للمشاركة في العزاء المقام عند الجيران وبينما كانت الأم تبكي وتندب مشاركة أهل الميت مصيبتهم في فقده باعتباره شابا صـغيرا ابتلعه البحر على حين غرة منه كانت ابنتها تـدفع بمكـبس موقد الكيروسين بكل ما تملك من قوة لتؤجج شعلة ناره تحت الحلة النحاسية المملوءة بقطع القلقاس الوردية التي لم تكن قد نضجت بعد، عندئذ ناداها زوج أمها، الذي كان يجلس فـي هذه الأثناء على الكنبة الإستامبولي متكئًا بيده على مسـندها المغطى بقماش الكيرتون الإنجليزي الفاخر، بعد أن عاد من عمله عند الظهر وطلب منها أن تأتي لتخلع له حـذاءه كمـا اعتادت أن تفعل دائما وبينما هي آخذة في فك رباط الجزمة

المصنوعة من الجلد الأجلاسيه، البني الطري بعد أن جاءته ملبية نداءه لها على وجه السرعة من المطبخ حملهـا فجـأة بذراعيه وأخذها في حضنه ليقبلها قبلات كثيرة اكتشفت بعـد قليل أنها تختلف عن تلك القبلات التي اعتاد أن يطبعها على خدها إذ أنها انفعلات انفعالات جديدة عليها لم تشعر بمثلها من قبل، سيطرت على كيانها وجسدها الصغير، الذي ما عـاش، وما كان يجب أن يعيش تجربة من هذا النوع في ذلك العمر المبكر، الذي لم يتعد دنيا البراءة، بعد.

لكنه، ومنذ تلك اللحظات البعيدة، الموغلة في زمـن الطفولة الأولى، ظل ذلك الرجل الكبير بالنسبة لهـا دائمـا، وحتى بعد أن دست سكين المطبخ الحاد في صدره، رجـلاً جميلاً قويا، أسرا، بل ظل بالنسبة لها قادرا على إحداث هزة وتأثير في النفس وشيء غامض يشـابه الخـوف البسـيط والرهبة عندما يكون المرء في حضرته، سواء أكان رجلاً أم امرأة، ولطالما لمست عزيزة، ذلك، بنفسها، مـن مراقبتهـا لتأثيره على الآخرين، وملاحظتها لكل أولئك الذين يتعاملون معه، سواء داخل البيت أو خارجه، من الرجال أم من النساء على الأغلب.

في يوم القلقاس البعيد هذا، قال لها عندما كانت مـا تزال في حضنه، إنه يحبها حبا شديدا، لأنها صغيرة وجميلة، وكأنها حورية من حوريات البحر اللواتي لا يظهرن إلا أثناء الليل سرا، ثم إنه طلب منها أن تحبه مثلما يحبها، وتطيعـه، وتنفذ كل ما يأمرها به، على الدوام، وقد كان له ما أراد، إذ ظلت عزيزة تطيعه، طاعة المسحورة بفعل سـحر قـوي لا فكاك من إساره، منذ تلك اللحظات القديمة، التـي لـم تفقـد طزوجتها رغم مرور كل السنوات الطويلة عليها، إذ استقرت في عمق الذاكرة، وحتى وقت اغتيالها له، إذ عشقته عشـقًا ناريا، مستحيلاً، في عطائه وإخلاصه، يصـعب أن تمنحـه أخرى، لرجل من الرجال، بل هو عشق يمكن أن يوزع على ألف امرأة أخلصت في غرامها، وأعطت لـه كـل روحهـا وعميق كيانها، لأنها اعتبرت ذلك الحبيب المباغت ليس أقل من إله معبود، لا يرد له طلب أو أمر ولا يرتجى عشق من سواه، وهكذا منحته ولطوال سنوات طويلـة لقـب الرجـل المعبود، وهو اللقب الذي ما كان يعرف سره غيـره إلاهـا، باعتباره رجلاً لامرأتين تربطهما رابطة الرحم، بينما كـان ثلاثتهم يعيشون في ذلك البيت القديم، الواسع الـذي ورثتـه

أمها عن أبيها المتوفى، الذي خرجت عزيـزة مـن صـلبه بالفعل، وقد ظل ذلك الغرام مصونًا لا يمس، ولا يفشى أمره، الذي ما أدركته الأم يوما من الأيـام، أو شـعرت بجـذوة اشتعاله، بين زوجها، وابنتها، وما لاحظت تلـك النظـرات المشبوبة بالوجد، ولا الزفرات الحارقة الخارجة من مهجـة القلب وكل تلك القبل المسكرة التي ذابت فيها الشفاه، بل ولا تلك الملامسات الجسدية الصاخبة بالصمت، ولم يكـن ذلـك الجهل وغياب الإدراك بسبب بلادة الشعور أو قلة الفطنة، أو الجهل، لكن مبعثه في الحقيقة، أن تلك الأم السعيدة المطمئنة، التي ما تصورت للحظة، حقيقة ما يدور حولها بـين ابنتهـا الصغيرة وزوجها مكتمل الرجولة باعتبارها هي أيضا، امرأة مكتملة الفتنة والجمال، لم تكن إلا عمياء بالمولد، وإن كـان العمى، الذي خصها به القدر، لم يقف عقبة تحول دون إقبال الرجال عليها، منذ أن كبرت، وصارت شابة مكتملة الأنوثة، بجسدها المرمري، بديع التنسيق، وزرقة البحـر المصـبوبة صبا في عينيها، اللتين لم يتسن لهما النظر أبدا ممـا مـنح ملامح تقاطيع الوجه الدقيقة جمالاً، وفتنة، يظـل الاكتشـاف المتأمل لها ولعمى صاحبتها، مسألة ذات طـابع شـاعري،

يضفي عليها مسحة إنسانية نبيلة، خصوصا، عندما كانت تعقد ضفيرتيها الناعمتين الطويلتين، على رأسها، كما لو كانتا إكليلاً ذهبيا جميلاً، تبدو معه، وكأنها امرأة تنتمي لعالم الأساطير القديمة، التي خيمت بغموضها وسحرها، على تلك المدينة البحرية العتيقة منذ الزمن الغابر القديم.

تزوجت أم عزيزة، التي كانت تنتمي إلى أسرة ميسورة الحال، اشتغل رجالها بأعمال البحر، منذ سنوات بعيدة، من رجل غني أضافت ثروته إلى ثروتها، بعد أن منحها عزيزة، وتوفي إثر إصابته بحمى التيفوئيد، مما أتاح لها فرصة أخرى لاختيار زوج عوضا عنه، باعتبارها كانت لا تزال شابة صغيرة، لم تؤثر مسألة عماها في الزواج، لأنها كانت تمتلك الكثير من المال، والجمال، فأقبل عليها عدد لا بأس به من رجال المدينة، يطلبون ودها، فاختارت منهم، ذلك الذي أصبح فيما بعد، رجلاً لها، ولابنتها، التي جاءت على صورتها، إلى حد كبير، ما عدا أن ألاعيب الطبيعة، تدخلت بلمسات قليلة، فالبشرة صارت سمراء، بعض الشيء، والعينان عسليتان تركهما الأب الراحل مبكرا، كتذكار حي، لم تره الأم أبدا، فتستطيع ملاحظة، تلك الطريقة

الناعسة، العميقة، في النظر ذات الطابع الفطـري الغـامض للغواية، التي طالما تمتعت بها عينا الابنة الجميلة، فسـحرت كل من نظر إليها.

كان التقاء عزيزة، القدري، المبكر، بالعشـق، قـد عجل بنحت معالم جسدها، وروحها، كامرأة صغيرة، راحت تشارك أمها في إغداق العواطف، على الرجـل المحبـوب، حبا مطلقًا، في عالم المرأتين الضيق، المحدود، بحدود تمتـد بين جدران البيت الواسع القديم، الذي كانتا تتشـاركان فـي تهيئته لاستقباله كل يوم عند عودته إليه، مثلما كانتا تتهيـآن لملاقاته ذلك التهيؤ الذي يجعلهما غاية في الحسن والاكتمال، بحيث لا يقع نظره، إلا على كل جميل، لطيف، فيهما، فكانت عزيزة، تفعل مثلما تفعل أمها كل ليلة، إذ ترتـدي قمصـان النوم الأنيقة، التي تحيكها سونيا الأرمنية، أشـطر وأمهـر خياطة في المدينة، والمصـنوعة مـن السـاتان دوشـيس، والكريب دي شين، والحرير الأطلـس اللامـع، ثـم تفـك ضفيرتها، وتترك الخصلات اللعوب لشعرها تنسـدل علـى كتفيها ووجنتها، ثم تسارع بخلع حذائه، بمجـرد أن يـأتي، ويستقر في موقعه المعتاد، على الكنبة، بينما أمها، بـالقرب

منها، تبارك ذلك الاهتمام، بزوجها المحبوب، من جانب ابنتها الصغيرة، وتعتبره بمثابة توفيق حبتها به عين العناية الإلهية، التي طالما نظرت إليها بعين الشفقة والعطف، فعوضتها عن غياب نظرها، وباركت زواجها السعيد، بعد أن ترملت، وهي التي طالما فكرت في الامتناع عن الزواج مرة أخرى، خوفًا من عدم الوفاق بين ابنتها وزوجها المختار، فتقع هي في الحيرة، واختلاط المشاعر، وتنقلب حياتها، التي كانت تنشد فيها السكينة والرضا، إلى جحيم مقيم.

لكن، ها هي تتأكد بمرور الوقت، والأيام على زواجها السعيد من رجاحة عقل زوجها، في تعامله، مع فتاتها الصغيرة، وفيض حنانه، وعظمة شفقته عليها، فهو لا يدخل البيت إلا ويتحدث إلى الابنة، بكل الحب والعطف، ولا يبخل عليها بالثمين الغالي، من الهدايا، والأشياء الجميلة، الرقيقة، التي تبهج قلب كل فتاة، وكانت لفرط امتنانها لكرم أخلاقه تجاه وحيدتها، تقول للناس، إنها لو كانت ابنته، بحق وخرجت من صلبه، فعلاً، ربما لم يكن يعاملها بمثل هذه المعاملة اللينة، الودود وكلما مرت السنوات، على صفائها العائلي، دون ما يكدر قلوب الأسرة الصغيرة، ولمست

بروحها، تنامي المشاعر المفعمة بالمحبة بين ابنتها وزوجها، انشرح صدرها، وتعالى دعاؤها بطول العمر، وصلاح الحال للشيخ أبو المكارم، الذي ذهبت إليه في سـوق العطـارين، فعمل لها حجابا مسطورا، مازالت تضعه في حرز أمين، بين ثيابها، لأنه جالب السعادة إلى قلبها، والوئام إلى بيتها.

الذي لم تعرفه الأم الضريرة، أبدا أن الوئام العائلي، كان يستمر وينمو، بفضل تمائم أخرى، غير تلـك التميمـة الحجاب الذي كتبه الشيخ أبو المكارم بقلم كوبيا، علـى ورق كراس، من كراريس وزارة المعارف العمومية، المصـروفة مجانًا لأحد أبنائه، وهي التمائم، التي طالما سحر بهـا زوج الأم عشيقته الصبية، والمشكلة من ملابس داخلية، حريريـة فاخرة لا ترتديها إلا ممثلات السينما عادة، ومشـابك شـعر عاجية مرصعة بفصوص من الماس الحقيقـي، وجـوارب رقيقة، مختلفة الأشكال، من الدانتيل والتول، لم يكن يجلـب مثلها للأم أبدا، ناهيك عن ألعاب صغيرة، مسلية، يحضـرها لاسترضاء الجانب الطفولي، في الابنة الصغيرة، والذي لـم يكن قد أشبع بما يكفي، نظرا للقفزة المبكرة، التي انتقلت بها إلى عالم المرأة الجديد، وقد تعلمت عزيـزة، علـى ضـوء

نصائح العشيق الكبير، كيف تستطيع إخفاء تمائمها الغاليـة، بمهارة، دون أن تطولها يد أمها، أو تشعر بها، وربما كانت تلك الأشياء الصغيرة، المخفية، هي المبعث الوحيد للشـعور بالخطيئة، الذي استشعرته عزيزة، بعد ذلك، تجاه أمها، فقـد ظلت تشعر بتأنيب الضمير، حتى بعد أن ماتـت هـذه الأم، لأنها ما كان يتوجب عليها، أن تخفي عنها، مثل هذه الأشياء البسيطة، التي لم يكن ما يضير لو أنها شاركتها في الفـرح بها، والتمتع بمباهجها الصغيرة، لكنها بعدما كانت تتألم، بما يكفي، تلتمس لنفسها الأعذار، إذ كانت ما تـزال صـغيرة، تخاف ذلك الرجل، القوي، الجميل، الذي لا تملك إلا الامتثال لأوامره ونواهيه.

استطاعت عزيزة، وعلى مدى تلك العلاقة، الطويلة، الممتدة، مع زوج أمها، أن تتخطى كل المصاعب والعثرات التي يمكن أن تعترض عشقًا محرما من هـذا النـوع، فقـد حصنت نفسها، تحصينًا فطريا، نابعا منها، ضد كـل سـهام العشق، الخارجية، المصوبة إلى قلبهـا، والتـي فاجأتهـا، وحاصرتها مرارا، منذ بداية تفتحها، بعد يوم القلقاس، كأنثى ناضرة، مشتهاة، في مدينة طالما فتحت ذراعيها للعشق، منذ

اليوم الذي ولدت به، في أحضان البحر، داخلة إلى الدنيا من بوابته الزرقاء، على طول المدى، باعتبارها ومنذ نضـوجها المبكر كجنية طالعة من البحر، واحدة مـن بنـات المدينـة المشار إليهن بالبنان، إذ تعاقب طالبوها من الشبان اليافعين، الحالمين بالعشق، ومن الرجال القادرين على دفع ثمنه، تحت مظلة ترتضيها كل الأطراف، وعقد مرهون استمراره، بوفاء كل طرف من أطرافه بما ألزم به من سـنة ا ورسـوله، وعلى رءوس الأشهاد، فعزيزة لا تذهب إلى مكان، بصـحبة أمها، كزيارة أقرباء، أو أصدقاء، لها، في المدينة، إلا ويكون هناك خاطب في انتظارها، تسعى أمه، أو أخته لمفاتحة أمها في أمر زواج ابنتها منه، وإذا ما تصادف وخرجتا للتمشـي في الأمسيات الصيفية، الحارة، بالقرب من شـاطئ البحـر، فإن الخطوات الراغبة في التقرب منها، والنظرات الناعسة، الهائمة بالإعجاب، تلاحقها وتتبعها، لكن عزيزة، كانت تواجه ذلك، بإحكام إيصاد باب القلب، وكأن ذلك العشق، زوج الأم قد سلسله بحبال سرية، غير مرئية للآخرين، تمتد بينه وبينها فتعود إليه رغم كل الملاحقات والإغراءات، وكأنها محصنة بفعل عقار سحري غامض، ضد كل رغبات ليالي الصـيف

المحمومة، وإغواءات أمواج البحر المتلاطمة، التـي تبـذر بأصواتها الصاخبة حينًا، والناعمة حينًا آخر، بذور العشـق النارية بين المحبين.

مرة واحدة، كادت عزيزة أن تقع في شـباك هـوى رجل آخر، فقد ذهبت ذات يوم، لتصحب أمها، إلـى سـوق الذهب بالمدينة، لشراء سلاسل ذهبية بدلايات من الأحجـار الثمينة، وبعدما طافتا فتـرة مـن الوقـت علـى المحـلات والدكاكين، دون أن تستقرا على شيء بعينه يعجبهما إلى حد شرائه، توقفنا عند محل كان يعرض مشغولات ذهبية جميلة، مرصعة بجواهر ودرر، على نحو خاص بديع، وبينما أخذت عزيزة تتفحص المعروضات وتصف لأمهـا قطعـة منهـا لتتخيلها وتبدي رأيها فيها، لمحت من خلال نافـذة المحـل الزجاجية، الموضوعة فيها المعروضات شابا يقـف خلـف ميزان الذهب الحساس، يتناقش وعجوز جالسة أمامه، حـول سوار ذهبي موضوع على الميزان؛ تأملت عزيـزة الشـاب للحظة، كانت كافية لأن يطير طائر العشق المجنـون علـى روحها، ليخطف قلبها، الذي أخذ يخفق خفقانًا سريعا، فتبعته، ساحبة أمها إلى داخل المحل، إذ أدركت أنها واقعة لا محالة

في غرام ذلك الفارع ذي الوجه الآسر، الواقف أمامها، إذ أنه كان من ذلك النوع من الرجال، الذي يمكن أن تعشقه أعـداد لا حصر لها من النساء، إذا ما سنحت لهن الفرصـة، ودون أي جهد يبذل من جانبه في سبيل استمالتهن وعندما بدأت في مطالبته بقطع ذهبية وسلاسل، لتجربها في جيـدها، وتـرى مدى ملاءمتها لشكلها، ظلت تتأمل كل قطعة بهدوء مصطنع، واصفة لأمها، كل قطعة يعرضها عليها، وتسأله عن مـدى ملاءمتها لها وتتباطأ على نحو لم تجد أمها له تفسيرا، حتـى عيل صبرها، لأنها انتظرت أكثر من نصف ساعة، دون أن يستقر رأي ابنتها على شراء شيء، فقالت لها بضيق، إنهـا دائما لا يعجبها العجب، ولا حتى الصيام في شـهر رجـب، لكن الفتاة، التي كانت لم تتجاوز آنذاك السادسة عشرة مـن عمرها، والتي لم تكن بعد قد عرفت كيـف تفتـتح تجربـة عشق، كانت حائرة، لا تدري ما تفعله، دون أن تعير لنفـاد صبر أمها انتباها، لكنها أخيرا وجدت الفرصة المواتيـة، إذ اقترح عليها مغناطيس الغرام الواقف أمامها، عقـدا ذهبيـا، كان رائعا حقًا، إذ صنع بدقة وجمال متسر++ المهـارات اليدوية القديمة، على هيئة حية رصـع رأسـها الصـغير،

بفصوص دقيقة من الياقوت الأحمر الأصلي، وبينما اقتـرب منها ليساعدها على وضعه، حول جيدها الحريري السـامق، ويحكم القفل الذهبي الصغير، بما تستوجبه كياسة تاجر خبير، استقرت نظرات عزيزة في نظراته طويلاً، من خلال المرآة الكبيرة المثبتة على الحائط أمامهما، وبينما كان رأس الحيـة الملتمع بأشعة خفيفة متكسرة، قد استقر بالقرب مـن فتحـة صدر ثوبها، الصيفي الأزرق، الفاتح، طوحت برأسها قلـيلاً إلى الوراء حتى مست كتفه، وشعرت بسخونة الدم المتـدفق سريعا إلى وجهه +++ بشمس الصيف السكندري، فهبطـت روحها إلى ركبتيها.

زفرت الأم من ذلك الصمت المبهم، وأعادت مجددا إعلانها عن مللها الانتظار، وأن على الابنة أن تقرر ابتيـاع شيء وإلا فعليهما الذهاب ومغـادرة المحـل لكـن الفتـاة المغرمة، أعلنت بصوت رقيق ذائب في العشق، أنها أحبـت تلك الحية، فقال صاحبها إن قفلها بحاجة إلى إصلاح ويمكن أن تعود لتأخذها بعد يومين.

عادت عزيزة بعد يومين مـن الهيـام، المجنـون، بصاحب الحية الذهبية، إلى دكانه في الصاغة وبمجـرد أن

رأته، وتصاعد نشاطها القلبي إلى ذروتـه، بادرهـا فـورا بمفاجأة وقعت عليها كالصـاعقة، لتـدخل الحادثـة كلهـا، وبسرعة مدهشة إلى حيز الذكريات، فقد أخبرهـا، إذ كانـا منفردين في المحل، خلال ذلك الوقت الصباحي المبكر، من اليوم، لأن زبوناته المعتادات من نساء الطبقات الميسـورة، المدجنات كن مازلن يتقلبن بأجسادهن كالعجينة الرخوة فـي أسرتهن الوثيرة، أخبرها، أنه أعجب بها إعجابا لا مثيل لـه منذ أن رآها واقفة أمام محله في المرة الأولى، وأن إعجابـه تزايد بها حتى دخلت وتحادث معها، وأنه سأل عن أهلهـا، وعرف مدى أصالتهم +++ سمعتهم، لذلك فقد قرر الـزواج منها، علما بأنه تاجر ذهب أبا عن جد وعائلته ميسورة جدا، ولسوف يتقدم لها إن شاءت في مساء اليوم ذاته ، مصـطحبا معه أباه وأخاه الأكبر وعمه، الـذي لا يـتم أي اتفـاق إلا بموافقته باعتباره كبير العائلة وعميدها.

كلما خلت عزيزة لحالها، في تلك الزنزانة الانفرادية الكبيرة، التي خصصتها لها إدارة السجن، تحسبا لتهورهـا، واعتدائها على واحدة من السجينات إن هي احتكت بها، لـو بقيت في عنبر مشترك مع بعضهن راحت تسرد في مخيلتها

شريط حياتها الغريبة، الشبيهة بشـريط سـينمائي طويـل، وتجسد أمام ناظريها، الأشخاص الذين عرفتهم وألقـت بهـم الأقدار في طريقها، كانت عزيزة تشعر بالضيق والحـرج، أمام نفسها، بل كان يمكن أن تتهور وتقبله فتندم على ذلك ما تبقى لها من عمر.

كان شعورها بالخجل والخزي كلما تـذكرت تلـك الواقعة، يجعلها تعض على شفتيها طـويلاً حتـى تؤلماهـا، وتشعر أنهما على وشك أن تدميا، وكان مبعث ذلك الشـعور هو أنها سمحت لنفسها بالتدني والخيانة، وتجاوز مالا يجـب أن تتجاوزه من حدود، لعالمها السري، وعشقها الفريـد، إن وجدت أن الوقوع في غرام رجل آخر إلى حـد اسـتماعها بأذنيها لعرض زواج وحيد، والانشغال بـالتفكير فـي ذلـك الغرام لمدة يومين، بعيدا عن عشقها الأبدي الفريد، هو قمـة الخيانة تجاه نفسها، وتجاه عالمها الأثير.

بعد أن عادت إلى البيت بعد لقاءها السريع مع ذلـك الغرام السحابة، لم تكن تفكر في العاشق الآخر الـذي كـان جالسا آنذاك في ديوانـه الحكـومي، يمهـر الأوراق بيـده اليسرى، التي يتعامل بها دوما.

حيث كان يعمل موظفًا كبيرا في ذلك الـديوان، ولا فكرت في أمها التي تبرمت من عودة ابنتها خالية الوفـاض دون أن تشتري الحية الذهبية ذات الـرأس الياقوتيـة، وقـد أيقنت يومها تماما من مشكلة ابنتها الشابة المزمنة، الدائمـة، وهي التردد، وعدم الحسم في أية خطوة تخطوها حتـى لـو كانت تتعلق بأمر بسيط، كشراء قطعة من الحلي الذهبية لكن عزيزة، كانت تفكر في أمر واحد فقط، وهو أنها ظلت تنسج طوال اليومين التاليين للقائها بتاجر الـذهب، قصـة عشـق أسطورية معه، عشق طويل المدى، تتخللـه آلام وعـذابات بسبب نيتها البوح له بسرها الغرامي مع زوج أمهـا، وقـد ظلت لساعات طويلة، جالسة، تحت شباك غرفتهـا، المطـل على الحديقة تتأمل شجرة النرجس، بزهورها البيضاء العبقة، برائحة عطرية رائعة وتجسد في خيالها، حال ذلك الحبيـب، الواقع حتى أخمص قدميه في الغرام، عنـدما يلـم بمعـالم وتفاصيل تلك العلاقة المحرمة، فتراه يسقط منهـارا مـرة، ساعيا إلى قتل نفسه والانتحار وتراه في صورة أخرى يهدد بقتل الرجل الذئب، وكانت قمة نشوتها المتخيلة، لحظـة أن يقوم بقتلها ثم قتل نفسه، على الفور، ليسقطا صريعين إلـى

جوار بعضهما البعض، فتختلط دماؤهما، اختلاطًا أبديا، كدليل على اختلاط روحيهما وامتزاجهما بعد الموت.

حين تتذكر عزيزة، في زانزانتها، ذلك الماضي البعيد، حيث كانت تختلق كثيرا لأمها ذرائع عديدة، لترفض أولئك المتقدمين للزواج منها، مثلما تذرعت لتاجر الذهب، بأنها مخطوبة لقريب لها، عندما عرض عليها الزواج، فقد كانت تضع كل الحجج والعقبات، لرفض خطابها، فهذا قبيح، وهذا كبير السن، وذاك لا يتناسب مع أسرتها، من الناحية الاجتماعية، وفي إحدى المرات، عندما تقدم لها شاب لا يمكن رفضه، لأنه كان ملائما لها من الناحية النظرية على الأقل كزوج مثالي، ربما لا تجد مثله مرة أخرى، تذرعت لأمها التي ظلت تلح عليها لتقبله، بأنها عرفت من جارة لها أنه شاذ جنسيا غير سوي في علاقته بالنساء، وقد فوجئت الأم، بعد مرور وقت قصير على هذا التصريح من ابنتها بأن الجارة الصغيرة التي كانت صديقة لابنتها تتزوجه في عرس كبير ظلت المدينة تتحدث عنه لعدة أيام.

ولطالما اشترك الزوج العاشق في إقناع الأم، برفض الرجال المتقدمين لابنتها الوحيدة، فقد كان يقول بضيق

وتبرم، كلما فاتحته في أمر عريس متقدم للزواج من ابنتهـا، أن لا ضرورة، ولا داع، للتعجل في تزويجها، لأنها ما زالت صبية صغيرة، لم يفتها قطار الزواج، ثم إنها جميلـة، ذلـك الجمال الذي يزداد بمرور الأيام، مما يجعل فرصـتها فـي الارتباط، بإنسان ممتاز الصفات والإمكانيـات، واردة مـع التأني والانتظار ثم إنه يراها كالجوهرة النادرة النفيسة التـي قلما يجود الزمان بمثلها فلماذا التعجل في التفريط بها، وهي وردة البيت ومبعث الأنس والسعادة فيه وعند هذا الحد مـن الكلام كانت عزيزة تشاركه الرأي، وتقول إن أمهـا تريـد تزويجها للتخلص منها، وليروق بالها لذلك فهـي تريـد أن تزوجها بأي طريقة والسلام فتقسم الأم بأنها لا ترغب فـي تزويجها إلا للاطمئنان عليها وعلى مستقبلها، وأنها لو خيرت لاختارت أن تبقى، مهجة قلبها إلى جانبها طوال العمر.

لسنوات طويلة، بعد دخولها السجن، ظلت عزيزة لا تنسى التفاصيل الصغيرة لحياتها الغريبة بذاكرة مدهشة فـي قوتها، لا تضارعها، إلا دقة ذاكرة سـمك الثعـابين النيلـي العارف بتفاصيل رحلته إلى المحـيط الأطلسـي، للتكـاثر ووضع البيض لكن بمرور الوقت أخذت تفاصيل كثيرة تسقط

من نسيج الذاكرة التي أخذ يبليها الزمن، فهي لم تعد متيقنة، تماما من شكل السكين الذي استخدمته في القتل بل ومن لون مقبضه، وهل كان بنيا مصنوعا من خشب الكافور أم أسـود من مادة الفيبر، الأكثر من هذا أنها لم تعد تذكر، ماذا شربت مع ذلك الزوج المعشوق، في تلك الليلة الشتوية العاصفة، من أيام النوة الكبرى، بينما كانت السماء تدر ماءها على المدينة المنكمشة على نفسها، في هذا الوقت من السنة، والبحر يلاطم شواطئها بأمواجه الهائجة المجنونة، هل كان النبيـذ القـديم، المعتق الذي جلبه بناء على رغبتها من عند كوستا اليونـاني العجوز، الذي كان يصنعه، ويعتقه بنفسه، ولا يبيعه إلا لقلـة من زبائن محله الأثيرين، العارفين بقيمة الخمـر، ومذاقـه البديع؟ أم كان ذلك النوع من الروم القوي الذي يبعث تيارات من الدفء المتواصل في الجسد في ليلة باردة كتلـك الليلـة البعيدة؟ لكن رغم ضياع تفاصيل من هذا النوع، وتفاصـيل أخرى عديدة، طالما تشبثت بها عزيزة وخبأتها فـي عمـق الذاكرة، إلا أنها لم تنس أبدا، الحديث الذي دار بينهما، فـي تلك الليلة، وقرارها الهادئ بقتله، الذي اتخذته في التو، بعـد سماعها لكلامه، وهو القتل الذي نفذته بعد ذلك بأيام قليلة.

بينما هما جالسان، يشربان كما يحدث لهما بين الحين والحين، بعد أن كانت أمها قد غادرت الـدنيا منـذ شـهور معدودة، إثر إصابتها بحمى شوكية مفاجئة لم تصـبها بـأي عاهة مستديمة كالطرش أو العمى لأنها كانت عمياء بالفعـل بل قضت عليها ولم تمهلها إلا ثلاثة أيام في الحياة، وذلك بعد أن اختلطت أعراضها على الطبيب وظـن أنهـا أعـراض أنفلونزا شائعة، يصاب بها الناس في نهاية فصـل الصـيف وبداية الخريف.

بينما هما جالسان، يتحادثان في أحوالهما، صارحها، بعد مقدمات طويلة أنه ينوي الزواج مرة أخـرى، لأنـه لا يستطيع أن يظل معها، تحت سقف واحـد دون زواج أمـام الناس، حتى لا تثار حولهمـا الأقاويـل، ويصـبحان نهبـا للشائعات، لكن عزيزة، كانت مدركة تماما للكذبة، ولتذرعـه بثرثرة الآخرين وهذه لم تكن بالنسبة لها أكثـر مـن حجـة مكشوفة، تشبه واحدة من حججها العديدة، التي طالما أثارتها في الماضي، بوجه أمها عندما كانت تلح عليهـا وتطالبهـا بالزواج فقد كانت تعرف حقيقة عشقه الجديد، وغرامه الذي وقع فيه ولم يعد قادرا على إخفائه، رغم الجهد الكبير، الذي

يبذله في سبيل ذلك، إلا أن بوصلتها الفطرية الكامنة بداخلها، لاكتشاف الجهة الموجه لها العشق والهيام كانت قد بصرتها بغرامه المشبوب، بنادرة ابنة صديقه الأثير عفت شاهين أحد أساطين صناعة العطور في المدينة كانت عزيزة تغار من نادرة غيرة لا حد لها، قائمة على أساس متين هو الذي جعل نادرة موضع غيرة نساء عديدات، غير عزيزة، لأنها تنتمي إلى ذلك النوع من النساء الذي يتعامل مع الحياة. باعتبارها لعبة كبرى، كل شيء فيها قابل للمغامرة والتجريب، والاكتشاف ابتداء من ارتداء بنطال الهيلانكا الضيق الذي كانت تسير به، عارضة مفاتنها في شوارع المدينة، باعتبارها من النساء القلائل اللواتي غامرن بارتدائه عند بداية ظهوره كأحدث صيحة في عالم الأزياء العصرية وكذلك الرقص بطوق الهولاهوب، الذي كانت نادرة أول فتاة ترقص به في مكان عام بالمدينة فلقد رقصت به في نادي سبورتنج حيث تحلق حولها كم هائل من الشبان، بين معجب ومستنكر، والتقطت لها عدة صور، تباين الغرض منها بين الفضيحة والامتنان، وانتهاء بالدخول في علاقات متكررة مع شبان ورجال كان أصغرهم يقل عمره عن عمرها تسع

سنوات وأكبرهم زوج أم عزيزة الذي كان عمـره ضـعف عمرها عندما وقع في غرامها وقد كانت نادرة مـن أولئـك الذين ساهموا في ساعات الاستماع لأغاني عبد الحليم حافظ، وفايزة أحمد اللذين لم يكونا قد اشتهرا بما يكفـي آنـذاك إذ كانت فرائسها الغرامية المحبطة كثيرا ما تجد عزاءها فـي الاستماع إلى هذين المغنيين المعبرين بأدائهما الدافئ الصادق عن أرق مشاعر الحب والحنين التـي يكنهـا كـل عاشـق لمعشوقه الأثير.

ومنذ أن حلمت عزيزة بنادرة ذات يوم مـن الأيـام الخوالي في ذلك الزمن القديم، أيقنـت أن نهايـة عشـقها، السري، المجنون لزوج أمها سوف تأتي عما قريب، إذ رأت عزيزة نادرة في الحلم، تأتي إليها ضاحكة باشة الوجه بينمـا كانت ممددة على سريرها، لا تقوى على الحركة كمـا لـو كانت جثة ميتة بالفعل، ثم أخذت تكفنها بقماش من الحريـر الوردي الجميل، وتضع على رأسها إكليلاً من الشوك، آمرة أربعة من الرجال الطوال المسربلين بأردية سوداء طويلـة، أن يحملوا عزيزة، بسريرها، ليلقوها في البحر، عندئذ قامت عزيزة، صارخة فزعة من شدة الرعب والضيق، وبقيت في

سريرها، حتى مطلع فجر ذلك الليل، الذي داهمها فيه هـذا الكابوس، تفكر في مغزاه، وفي نادرة مسـترجعة تفاصـيل العلاقة التي ربطتها بها، بعد وفاة أمها فلقد جاء عفت شاهين مع ابنته وأمها للعزاء وسرعان ما صادقتها نـادرة صـداقة شديدة، وأحاطتها برعايتها وحنانها كما لو كانت أختًا كبـرى لها، وقد انجذبت عزيزة إلى نادرة بسبب بساطتها وسلاستها في التعامل معها إضافة إلى قدرتها على تجنب أية مـواطن لعدم الانسجام، تسارع النساء بتخليقها عادة فيما بينهن لإيجاد الذرائع المسببة لعدم استمرار علاقات الصداقة بينهن، وهـو الأمر الطبيعي المترتب على سنوات طويلـة مـن غيـاب كينونتهن الإنسانية نظرا لعوالمهن التابعة لعالم الرجال، لكن نادرة كانت لا تفتأ، تشـن علـى جمـال عزيـزة ورقتهـا خصوصا، خلال مساءات الملل العائلي التي باتـت تتكـرر كثيرا ويجري مواجهتها بلعب الورق إذ تتجمع أسرة عفـت شاهين، والأسرة الحزينة بسبب فراق الأم لكن نادرة تمكنت في النهاية من هدم ما بنته من وشائج مودة وصداقة جميلـة بينها وبين عزيزة، لأنها دخلـت منطقـة قـدس الأقـداس، المحرمة، بل وحرقت أقانيم العشق المبجلة، في ذلك البيـت

المنزوي القديم الذي عاش كل ركن من أركانه تفصيلة من تفاصيل العشق، الذي نمت عزيزة وترعرعت في كنفه ولم تعرف في الدنيا عشقًا سواه، والذي طالما حفظت سره باحتراس، وحذر، فلم يفطن له حتى أقرب المقربين إليها بل وكان كل الناس، من أهل وأقارب وأصدقاء، يرون في علاقتها المثالية، الظاهرة لهم بزوج أمها، نموذجا فريدا للسلام، والصفاء الإنساني، والأبوة الممكنة لأبناء لا يخرجون من الصلب بالضرورة، وكانت عزيزة قد اعتادت أن تعايش الدورين بمهارة، حتى وكأنها خلقت لهما بالأصل، وهما دورا: الابنة البارة بوالدها المفترض وأمها الضريرة الطيبة، والعشيقة الفاتنة الغارقة حتى أدق ذرة في خلاياها في بحار العشق الواسعة، والأكثر من ذلك أنها ظلت طوال حياتها، وحتى بعد أن دخلت السجن، وباتت تجلس في الزنزانة، كما تفعل الآن لم تشعر أبدا بغرابة الدورين وتناقضهما، بل إنها لم تجد في أي وقت من الأوقات أدنى غضاضة في أن تشترك وأمها في رجل واحد، إذ كانت تحب أمها حبا كثيرا، وتحنو عليها حين تساعدها على ارتداء ملابسها، وتصفيف شعرها بل كانت تختار لها بنفسها أجمل

الملابس المناسبة للون بشرتها وطبيعة جسدها الـذي يميـل للامتلاء بعض الشيء، وظلت حتى آخر وقت في حياتهـا، تختار لها تسريحات الشعر العصرية، حتى أنهـا نصـحتها بقصة الآجارسون وكانت لا تتكاسل عن اصـطحابها إلـى أشهر حلاق نسائي في المدينة بين فترة وأخـرى، بعـد أن أقنعتها أن زمن الضفائر قد انتهى، وأن لوجهها جمالاً طاغيا بتلك التسريحات الجميلة الجديدة.

كذلك، لم تشعر عزيزة بنفور قط، من ذلـك الـذي اغتصبها، في ذلك الزمن البعيد، بل كانت الأيام وتراكمهـا الدائم، تزيدها اقترابا منه، وتعلقًا به، وهي التي اعتادت عليه منذ أن كانت طفلة صغيرة باعتباره الراعي لشئونها والمهتم بها، الذي يحرص على تحميمها بالصابون النابلسي المصنوع من زيت الزيتون، لأن رغاويه قليلة، لا تضايقها في عينيها، كما كان يمشط شعرها ، واضعا فيـه الشـرائط الملونـة، الجميلة، المتلائمة الألوان، مع ما ترتديه من ثيـاب أنيقـة، حرص على شرائها من أرقـى محـلات أزيـاء الأطفـال بالمدينة، وقبل أن يواقعها في ذلك اليوم الذي لا تنساه أبـدا، كانت قد اعتادت النوم في حضنه لفترات طويلة، وهو يحكي

لها القصص والحكايات، وتأخذ أصابعها، الدودية، الرفيعة في تحسس ذقنه الخشنة غير الحليقة.

ستظل نادرة المرأة الوحيدة، التي كرهتها، وستكرهها عزيزة طوال حياتها، لأن نادرة برأيها، هي اللصة الزانية الكاذبة القاتلة لها، هادمة اللذات، بل إنها العاصفة التي اجتاحت بشرها أعمدة السعادة السبعة التي ظلت تستند إليها عزيزة دوما فلقد خطفت منها الزوج والعشيق والحبيب والأخ والابن والصديق وانتزعتها دونما ضمير أو رحمة من الماضي، والحاضر، والمستقبل.

كانت نادرة أقل جمالاً من عزيزة بكل المقاييس فملامحها أقل تناسقًا واتزانا، مثل جسدها، الذي كان يعيبه اتساع كتفيها وارتفاع خصرها بعض الشيء، لكنها كانت ذات شخصية قوية، ناعمة، وقدرة على التأنق وإبراز كل ما هو جميل فيها، وإخفاء ما عداه من مواطن ضعف حسني، بحيث تبدو في النهاية، لكل من يراها وكأنها فاتنة تتألق أنوثة وفتنة، مما يثير الرغبة في الرجل لامتلاكها، لا لشيء إلا لانتزاعها من كل الرجال الآخرين، أولاً وقبل أي شيء آخر وقد ساعد نادرة على تميزها، وقوة حضورها، الشخصي

حصولها على قدر لا بأس به من التعليم إذا أنهـا التحقـت بالجامعة لبعض الوقت، لكن الدراسة لـم تسـتهوها كثيـرا فتركتها، على أمل أن تتعلم الرسم، وذلك على عكس عزيزة، التي أنهت دراستها الأولية بالكاد، وكانت محـدودة الخبـرة بالحياة، والمعارف الدنيوية المكتسبة، لعزلتها الدائمة في ذلك البيت الواسع، مع أمها الضريرة، وغياب أشقاء لها تشاركهم تفاصيل يومية، لم يتسن لها معرفتها أبدا.

ولطالما لاحظت عزيزة الانطباع الذي تحدثه نادرة، عند دخولها، أو وجودها في مكـان مـن الأمـاكن فتشـعر بالغيرة، والضيق، عندما يخصها الناس بالاهتمام والحـديث دونها، أو يغير الرجال من زوايا جلوسهم للاسـتماع إليهـا، غير أن نادرة، كانت تتميز بذكاء ولباقة، فتمتص ما تعانيـه عزيزة من ضيق، وتظل تمتدحها، على نحو لا يشوبه افتعال وتدير دفة الحديث بحيث يوجه جانب منه في اتجاهها، لكنها في أحد الأيام، اكتشفت عزيزة أن معشوقها واقع في غـرام تلك السمراء، اللاطيفة، لأنها شعرت بأنه يلعـب معهـا دورا أبعد من دور المضيف الكريم، إذ كانوا ساهرين ذات ليلة في البيت يلعبون الورق.

فظل العشيق الأرمل حريصا علـى تقـديم الطعـام لنادرة بنفسه متابعا لكل حركة من حركاتها المدروسة بدقـة، للتعبير عن أنوثتها، بينما كان يستمع بآذان كربونية حساسـة إلى كل ما تقوله، ويبادلها الكلام الذي شاركت فيه النظـرات المتيمة بالغرام أيضا.

ظنت عزيزة، بعد ذلك، أن نـادرة سـوف تكـون كسحابة صيف، عابرة في سماء علاقتها الصافية بزوج أمها ككل تلك السحابات، التي عبرت، ومرت مـن قبـل طـوال علاقته الطويلة بها، والتي شاركت فيها راقصات في ملاهي ومحلات المدينة الليلية، وسيدة إيطالية جميلة، طالمـا نسـي صورها، مبعثرة، ضمن أوراقه، على مكتبه بالبيت، وكانـت تمنحه هدايا وتذكارات عديدة، ولم تعرف عزيزة أبـدا أنـه منحها بدوره طفلاً صغيرا، أخذته بعد تأميم مصـنع أدوات التجميل، الذي كانت تعمل به وغادرت البلاد لكن ظنها خاب في اللحظة التي فاتحها فيها برغبته في الزواج مـن نـادرة، رغم أنه كان قد صار على مشارف الستين من عمره تقريبا، وما كانت تظن هي أبدا أنه يفكر في الزواج، مرة أخرى لكن احتفاظه بوسامته القديمة وقلة التجاعيد في وجهـه، التـي لا

تفصح عن عمره الحقيقي ربما كانت مـن العوامـل التـي شجعته على التفكير والإقدام على خطوة مـن هـذا النـوع، وخصوصا أن نادرة، كانت تبدو لـه كفرصـة سـانحة لا تعوض، وعندما أيقنت أنه جاد فيما انتوى عليه، إذ أخذ فـي إقناعها أن ذلك أفضل لها وله، وبدأ يناقشها فـي التفاصـيل العملية، لتلك الزيجة التي ينتويها، خصوصـا فيمـا يتعلـق بالبيت وحجراته، ظلت عزيزة تحملق فيه، وهي تفكـر فـي الطريقة الملائمة لقتله، دون أن يطرف لها رمش.

كانت أعراض الجنون قد أخذت في الظهـور علـى عزيزة، شيئًا فشيئًا بعد سنوات قليلة من دخولها السجن، ففي بداية الأمر، شوهدت وهي تحادث نفسها بين الحين والحين، بكلمات غير مفهومة المعنى لمن تسمعها من السجينات وهي الكلمات اليونانية القليلة التي كانت قد عرفتها من أم زخاري، جارتهم القبرصية، في الشارع الذي كان يقع فيه بيتهم، ثـم لوحظ عليها بعد ذلك، أنها حطـت كثيـرا مـن شـموخها، وترفعها المعتاد في تعاملها مع كل اللواتي يتعاملن معها فـي السجن، بما في ذلك السجانات أنفسهن اللواتي يتعاملن معهـا بتحفظ أكثر، لأنها ظلت حريصة دائما، على ألا تضع نفسها

في موضع يعرض كرامتها للإهانة منهن، بأي حـال مـن الأحوال، ثم إنها أخذت توزع ملابسها، على كل من يحتاج، محتفظة بأقل القليل منها لنفسها، ثم أخيرا بدأت تضرب كـل من تضايقها، أو تتعرض لها مـن السـجينات، وكـادت أن تضرب، ذات مرة، محروسة السجانة التي أوشـكت علـى ضربها ضربا شديدا، يمكن أن يجعلها ترقد على أثره ممددة كالجثة في فراشها، إلا أن طيبة قلب محروسة، وتذكرها لأن عزيزة أعطتها قميصا داخليا مصنوعا من الدانتيل الأسـود الفاخر، قبل ذلك بيومين، جعلاها تتراجـع، وتأخـذها إلـى زنزانتها بالتحايل، واللين، لتهدأ وتستريح لكنها، ذات يـوم، عضت لولا القوادة عضا شديدا، بعد أن هجمت عليهـا، لأن لولا التقتها في دهليز السجن، وقالت لها إنها كان يجـب أن تلقاها خارج السجن قبل ذلك بعشر سنوات، ليصبح لها معها شأن آخر، أخيرا قررت إدارة السجن عرضها على الأطبـاء المتخصصين في الأمراض النفسية والعصبية، بعد أن فشلت معها كل طرق العقاب الممكنة داخل السجن، دون أن ترتدع أو ترعوي، لكنها بدت في حضرة الطبيبين الشابين اللـذين حضرا لمعاينة حالتها، وكتابة تقرير عنها، هادئـة، رقيقـة،

تتحدث بثقة أميرة، من أميرات الأسرة العلويـة المخلوعـة، وبأسلوب متحضر يفصح مع مظهرها الراقي، عـن حقيقـة انتمائها الاجتماعي، مما جعلها موضـع تقـدير، واحتـرام، منهما، فقررا، في النهاية، وبعد حوار طويل أجرياه معهـا، أنها ليست مجنونة، على الإطلاق إلا أن قرارهما هذا ربمـا كان بالقياس إلى كمية الجنون التي طالمـا صـادفاها، فـي حياتهما المهنية، بعيدا عن السجن.

لذلك، اكتفت إدارة السجن بعزل عزيزة، في زنزانة انفرادية، داخل مستشفاه، بجوار عنبر الضـعفاء والعجـزة، وربما كان ذلك أسعد، وأجمل، قرار اتخذ تجاهها، منـذ أن حكم عليها بالسجن المؤبد، بعد أن قتلت زوج أمها، فقد أتيح لها، ولأول مرة منذ زمن طويل، تمضية أمسيات، طويلـة، هادئة، تخلو فيها إلى نفسها، دون أي إزعـاج، مـن أحـد، يشاركها المكان، مثلما يحدث عادة في العنـابر المشـتركة، وباتت تستطيع السهر، وحيدة، تتطلع إلى النجـوم لأوقـات طويلة، دون أن يطالبها أحد بإغلاق النوافذ الخشـبية، لمنـع تسلل القطط الضالة، والحشرات إلى العنبر، وها هي تمضي الليالي، تفكر بصفاء ودقة في كل، أولئـك اللـواتي سـوف

تأخذهن معها، في عربتها الذهبية الجميلـة، ذات الأفـراس البيضاء المجنحة الصاعدة إلى السماء، واللاتي تحـرص أن يكن من أفضل وأنبل نساء السجن، بل اللواتي هن في الحقيقة ملائكة بلا أجنحة، ضللن طريقهن إلى السماء، فجئن إلى هذا الموضع الموحش الكئيب الذي ستصعد بهن منه، معيدة إياهن إلى موضعهن السماوي اللائق بهن، بواسطة تلـك العربـة الرائعة التي تفوق روعتها روعة عربة الملك فاروق التـي رأتها، ذات مرة، بأم عينها تجري في شوارع المدينة، عنـد الصباح آتية من قصره البحري في المنتزه، وها هي تجلـس الآن بعد أن فكرت كثيرا في أمر أم رجب، فتقرر ضمها إلى الركب الملائكي الصاعد إلى السماء.

لم تكن عزيزة لترتاح قبل ذلك لأم رجب أبدا، فهـي بنظرها السوقية المجسدة، والنصب، والاحتيال، بعينهما، إذا وقفا على أقدام ومنذ اليوم الأول الذي جاءت فيه أم رجـب إلى السجن محكومة بثلاث سنوات، بعد إثبات تهمة النشـل عليها، كانت عزيزة تتجنب الاحتكاك بها، أو التعامل معهـا، لأنها كانت تكره منظرها الشيطاني، بوجهها العجوز الصغير الذي رتعت في كل موضع من جلده التجاعيد الكثيرة الدقيقة،

وشعرها الأحمر الأقرب للبرتقالي الفاتح، لكثرة صباغته بالحناء، والذي كان كثيفًا مجعدا منكوشًا دائما، بحيث يجعل رأسها يوحي، لمن يراه، بأن شعلة النار الأبدية قد اتخذته مستقرا لها، غير أن شعور عزيزة نحو هذا الرأس، كان يأتي على نحو مختلف، غريب بعض الشيء، إذ كانت تشعر وكأنه شمامة صغيرة فاسدة، تعطنت قشرتها وباتت أكثر دكانة، وربما كان مصدر ذلك الشعور تلك الرائحة العطنة الكريهة الملازمة دوما لأم رجب، والتي طالما اشتمتها عزيزة كلما مرت بجانبها، أو اقتربت منها، بالإضافة إلى ما لاحظته في أم رجب من نظرات حادة سريعة قلقة، لا تستقر أبدا، أشبه بنظرات ثعلب صغير، لم تستطع عزيزة أن تبلعها أو تستريح لها، أبدا، وقد كانت محقة في ذلك، لأنها كانت كتلك النظرات التي طالما تميز بها النشالون دون سواهم من اللصوص، والتي دلت أيضا إلى جانب أصابعها النحيلة للغاية، ويديها المعروقتين على كونها نشالة محترفة، طالما التقطت بمهارة وخفة، محافظ ونقودا، وأشياء ثمينة، من أماكنها في جيوب، أو حقائب الناس.

رغم أن أم رجب لم تكـن سـليلة أسـرة نشـالين محترفين، ورغم أنها لم تتلق طوال حياتها دروسا منظمة في النشل، إلا أنها كانت بارعة جدا، إلى ذلك الحد الذي جعلهـا تحترف النشل بسهولة، بعد أن طلقها زوجها، قبل انقضـاء خمس شهور على زواجها فاضطرت لإعالة نفسها، بعـد أن وضعت طفلة كانت قد حملتها منـه، واضـطرت لمواجهـة الحياة، بمفردها، والجري على لقمتها ولقمة ابنتها الصغيرة.

أما حكاية أم رجب، وهو الاسم الذي طلبت من جميع المسجونات مناداتها به، فكان مبعثها أنها كانت ومازالت تحلم بأن تكون أما لطفل آخر ذكر ، تسميه رجب، وقد كانت هذه الأمنية، من الأمور القليلة التي سعت إلى تحقيقها، في الحياة، قبل ذلك، خارج السـجن، دون جـدوى، إذ أنهـا حاولـت الارتباط بأي رجل، آخر، يقبل الزواج بهـا مهمـا كانـت ظروفه، ومهما بلغ فقره وحاجته لكنها فشلت تماما، حتى أنها ذات مرة استدرجت شحاذًا عجوزا، كانـت تـراه يجـوب الشوارع، زاحفًا على الأرض بسبب فقده لساقية، دعتـه لأن تؤويه، في غرفتها الصغيرة التي كانت تعيش فيها مع ابنتها، ووافق الرجل الذي كان بلا مأوى محدد فكان يبيـت كيفمـا

اتفق في الجوامع، أو عند بعض زملائـه مـن الشـحاذين الميسورين الذين يمتلكون مساكن تؤويهم مقابل أن يدفع لهـم لأجل ذلك، وقد استبشرت أم رجب خيـرا، بعـد أن انتقـل الرجل إلى مسكنها، وشعرت أنها قاب قوسين أو أدنى مـن رجب، وكادت أن تفاتحه في أمر الزواج، بعد أن أطمأنـت لجانبه، وأغدقت عليه، في حدود مسـتطاعها، ممـا كانـت تجلبه، كل يوم من عمليات النشل الذي برعت فيه إلى حـد كبير، بسبب الظروف العامة المواتية، إذ كانت الحكومة قـد عجزت عجزا شبه تام، عن حل مشكلة المواصلات، بسـبب سوء التخطيط الإداري، وتكدس المدينة بسـكانها الوافـدين إليها، يوما بعد يوم، من القرى، والمدن الصغيرة المحرومـة من معظم الخدمات الأساسية، مما أتاح الفرصة لأم رجب أن يتسع رزقها، ويكثر، في ظل ذلك الازدحام، وتكدس النـاس في المركبات العامة، والقطارات، وخصوصا تلك القطارات التي تعمل بين مركز المدينة وضـواحيها البعيـدة، لكـن أم رجب فوجئت، مفاجأة أذهلتها، إذ اكتشـفت وجـود صـبي صغير ينام إلى جوار شحاذها العجوز، في رضـا، عنـدما عادت، ذات ليلة، متأخرة بعد يوم حافل بالنشاط النشلي، لأنه

كان يوم وقفة عيد الفطر المبارك، وقد خرج معظم العاملين بالحكومة والقطاع العام، لشراء ملابس وأحذية جديدة لأفراد أسرهم، بعد أن حصلوا على منحة العيد، وقد أيقنت أم رجب على الفور، خيبة أملها المعقود الذي كانت تعد له، للحصول على عزيز المنال رجب، عندئذ، وبـدون أدنـى مناقشـة، طردته، شر طردة، من بيتها مسبوقًا بطفله الصغير، بعد أن جردته من أعز ما يملك، وهو جاكت نسائي كروازيه وطاقية من صوف الغنم، كانت قد اشترتهما خصيصا لأجله، من بائع يبيع الملابس القديمة، دون أن تـدري بـالطبع أن الجاكـت مخصص للنساء، لأنه كان على طراز أوائـل السـبعينات، حيث شاع أسلوب الألبسة الرجالية في أزياء النساء، ورغـم توسلات الرجل لتتركه يبيت ليلته حتى الصباح، وتعهـده أن يدفع نصف الثمن الذي اشترت به الجاكت، إلا أنها رفضـت رفضا قاطعا، ضاربة عرض الحائط، برغبة ابنتها، وطلبهـا اللحوح، منها أن تترك الصبي يبيت ليلته معهما، حتى تلعب معه قليلاً.

ولعل فشل أم رجب في تحقيـق أمنيتهـا البسـيطة المتواضعة التي ترى عشرات النساء يحققنها كل يوم، هـو

الذي جعلها تشعر بعقدة نقص دائمة في داخلها، وأن تظـل، دائما، مكسورة الخاطر، وذات قدرة فذة على تحويل أبسـط العقبات إلى مصائب كبرى، كأن تنسى اللبن يفور على النار، أو يسقط من ابنتها كوب على الأرض، فتصرخ وتولول، كما لو أن ملمة كبرى قد ألمت بها، ثم إنهـا تحولـت، بمـرور الوقت، وبسبب رجب أيضا، إلى إنسانة حقود، ذات نزعـة دونية تجاه الناس، وهي النزعـة التـي أهلتهـا لأن تكـون جاسوسة، مثالية، للسجانات اللواتي كانت تبالغ في تملقهـن والتودد إليهن، عبر إبلاغهن بكل تفصيلة تحدث في عنـابر النزيلات، سواء شاهدتها، أو سمعت بها، بل كانت لا تتورع عن الوشاية بأية سجينة تحاول مخالفـة اللـوائح الداخليـة للسجن، كأن تحتفظ بمرآة أو بـبعض مـن أدوات التجميـل البسيطة، أو بأي من الملابس الملونة التـي تخفـى، عـادة، بعناية، وترتدى أثناء الليل، حيث لا تبقى إلا سجانة واحـدة، أو اثنتين على الأكثر، تغطان في نوم عميق، خـلال هـذه الأثناء، غير أن كل ذلك لم يتعارض مع أن أم رجب، كانت تقوم وكلما سنحت لها الفرصة بممارسة نشاطها الذي جاءت بسببه إلى السجن، والذي طالما عرضها إلى مشكلات عندما

كانت في خارجه أيضا. وقد تصادمت معهـا عزيـزة لأول مرة، عندما لمحتها تحاول سرقة بيضة مسلوقة، كانـت قـد وضعتها، إلى جانب بضعة زيتونات، على رغيف فوق إفريز الشباك، استعدادا لأن تفطر بهم، وكانت عندئذ تقف خـارج الحجرة مادة يدها إليهما، عندما، أمسكت عزيزة بيدها، بينما كانت واقفة داخل الحجرة تغسل حبة طمـاطم، لتبلـع بهـا الأكل، وانقضت عليها، بعضة قوية، كادت أن تقتطع جـزءا من لحم يدها، لولا صراخ أم رجب الذي تجمعت على أثـره عدة مسجونات، قمن بتخليص يدها من أسنان عزيزة التـي ظلت تسب وتشتم بغيظ، ثم بـدلاً مـن أن تلـتهم البيضـة والزيتون بالرغيف، طوحت ، بهم جميعا، في فناء السـجن، لأنها أنفت من تناول طعام اشتهته أم رجب إلى حد السرقة، لكن عزيزة كانت تحمل سببا أعمق من هـذا، لكراهيـة أم رجب، فقد اكتشفت أنها تكاد أن تخاصم المـاء والصـابون، وربما كان ذلك سبب رائحتها الزنخة الكريهة التي تهب على كل من يقترب منها، ورغم أن السجانات، كـن يجبـرن أم رجب على الاستحمام بين الحين والحـين، إلا أن فطريـات الصيف، كانت تنتعش، أكثر، عقب كل مرة تسـتحم فيهـا،

فتتكاثر بين أصابع قدميها ويديها وتحت إبطيها، وبين ثنيات جلدها المتغضن، دالة على ازدهارها بتلك الرائحة التـي لا تطاق.

لكن في يوم مشهود، لم ير سجن النساء مثله، تغيرت رؤية عزيزة لأم رجب، تغيرا يعادل رؤية جاليليو لنظريـة بطليموس في دوران الشمس والأرض، فقد هبت عزيزة ذات يوم من قيلولتها المعتادة، على صراخ ونحيب أم رجب التي كانت قد أخبرت للتو، من قبل إدارة السجن بوفاة ابنتها، بعد أن شب حريق هائل، في البيت الذي كانت ما تـزال تقطـن إحدى حجراته، والذي كـان يـؤجره صـاحبه، كحجـرات مشتركة أو منفردة لأولئك الذين لا يقوون على دفع إيجـار سكن مستقل، من فقراء المدينة، وقد ظلت أم رجـب تبكـي وتندب ابنتها التي راحت دون بناتها الثلاث، فـي الحريـق الذي شب بسبب انفجار أنبوبة غاز، كـان صـاحب عربـة فشار، يقطن الحجرة المقابلة لها، يحـاول ملأهـا، ففشـل، وانفجرت لينتشر الغاز في كل أرجاء البيت، ويشتعل.

كانت المحروقة واقفـة بحجرتهـا تقلـي باذنجانًـا وبطاطس لبناتها اللواتي كن يلعبن، حتى ذلك الوقـت مـن

منتصف النهار الحجلة في الشارع، وقد كان شعور أم رجب بالمصيبة يتزايد، كلما تذكرت مصير هؤلاء البنات الصغيرات اللواتي كن قد فقدن أباهن، منذ شهور، بعد أن داهمته نوبة من نوبات مرض السكر الذي كان مزمنًا لديه، بعد أن تناول، بنهم، خرطتين كبيرتين من الكنافة.

لذلك ظلت أم رجب تلطم، وتصرخ، لساعات طويلة، وقد واتتها طاقة هائلة على ذلك، وانتفخ خداها الضامران، انتفاخا واضحا، غارت خلفه فتحتا عينيها الضيقتين الشبيهتين بعيون الثعالب، ولما لم تعد قادرة على بذل المزيد، من مشاعر الغم والنكد، سقطت مغشيا عليها.

ظلت عزيزة تتابع من مكانها، على فرشتها، بالزنزانة، معاناة أم رجب، وحزنها الذي شعرت بمدى عظمته، من كل ذلك النواح، واللطم والعديد الذي كان يصل إليها، عبر الشباك المفتوح بزنزانتها، من عنبر العجزة، وقد تفتحت عينا عزيزة لأول مرة، على حقيقة كون أم رجب، أشد الناس الذين عرفتهم ابتئاسا، ومسكنة، وأنها امرأة أكلها الغلب، من كل جانب، فها هي لا تستطيع حتى أن ترى ابنتها، عندما ماتت، ولا أن تودعها الوداع الأخير إلى قبرها،

ناهيك عن طاقة الألم الهائلة التي سوف تلتهم روحها، كلما فكرت في الصغيرات الثلاث اللواتي بتن بلا أم أو أب يحنو عليهن، وهي بعيدة، لا تملك أمرا لهن، ولا تستطيع دفع شر يحيق بهن.

بكت عزيزة عندئذ بدموع حقيقية، لفرط تعاطفها مع أم رجب، والتمست لها العذر، في هذه اللحظات في كونها لصة نشالة، فأم رجب ما حققت شيئًا، خلال حياتها من النشل، وما صنعت من ورائه مجدا ولا مدخرا ينفعها في أيام العوز والشدة، بل طالما سرقت، ونشلت، لتعيش وتأكل، ولعلها لو وجدت فرصة أفضل للعيش ما كانت بسارقة في يوم من الأيام.

لكن عزيزة شعرت بعدئذ أنها تمادت في تعاطفها مع أم رجب، لأن اللصوص، برأيها، لصوص مهما كان الأمر، ويجب أن ينالوا عقابا على لصوصيتهم وسرقتهم للناس لكنها عند ذلك الحد من التفكير وتقليب الأمر مع نفسها، تذكرت زوج أمها، وتذكرت نادرة، وأيقنت أن العدالة، رغم كل شيء قاصرة، ولا يمكن أن تتحقق، كما يجب، بين الناس، على الأرض، ولو قدر لها أن تمسك بميزان العدالة،

لوضعت نادرة في موضع أم رجب، ووضعت زوج أمها في موضعها، فثمة جرائم للضمير لا تكفي قوانين البشر لإدانتها ومواجهتها، فها هي أم رجب محكومة بالسجن، لكنهـا فـي الحقيقة والواقع، كالمحكومة بالموت، ولا تستطيع حتـى أن تنظر إلى ابنتها وهي راقدة رقدة الموت ولن تتمكن، أبدا، من احتضانها، والبكاء على صدرها، ومن طبـع قبلـة الـوداع الأخير على وجنتها.

بكت عزيزة أكثر لأجل أم رجب، وشعرت كم أنهـا كانت قاسية عليها عنيفة معها، وداخلها ندم شديد، لأنها لـم تتركها تسرق البيضة والزيتون بالرغيف، بل عضتها، حتى رسمت بأسنانها على معصمها ما يشـبه سـاعة مسـتديرة زرقاء، ظلت آثارها باقية على لحمها لأيام طويلـة، ثـم إن عزيزة قامت وتمشت في الحجرة بعـد أن أشـعلت لنفسـها سيجارة، وظلت تقدح ذهنها بشدة، لأنها أدركت كم سـتكون متهورة لو أنها لم تأخذ أم رجب، معها في العربـة الذهبيـة الصاعدة إلى السماء، لأنها قبل هذه الواقعة التي هزتها مـن أعماق نفسها، كانت تعتبر مجرد التفكير فـي أن تلمـس أم رجب بيدها الدنسة، تلك العربة السماوية المقدسة، ضربا من

ضروب المستحيل، باعتبارها العربة الملكية المذهبـة التـي رأتها ذات يوم بعيد، لآخر ملوك مصر في القرن العشرين، مع تعديل بسيط أدخلته عليها وهو مجموعة مـن الأجنحـة القوية الممتدة التي تساعد أفراسها الجميلة البيضـاء الستة، على الصعود إلى السماء، وشق عباب السحاب.

لم يكن هذا الحادث هو العامل المرجح، فقط، لتراجع عزيزة عن قرارها، في عدم إلحاق أم رجب بالعربة الذهبية الصاعدة إلى السماء، بل كانت هناك حيثيات أخرى، جعلـت عزيزة تحسم الأمر حسما نهائيا لا رجعة فيه، وهي حيثيات، وإن لم تكن قوية من حيث المنطق والعقل، إلا أنها على أيـة حال، كانت مقنعة تماما بالنسبة لعزيزة التي طالما اسـتندت إلى مشاعرها الصادقة التي تثق بها عـادة، لأنهـا حيثيـات نبعت حقًا من عمق انفعالها لما جرى لأم رجـب وتعاطفهـا العميق معها، فرغم أن أم رجب كانت نشـالة محترفـة، إلا أنها، وكما اعترفت لعزيزة فيما بعد، لم تسرق أبدا إلا تحـت ضغط الحاجة، بعد أن ضاقت السبل بها، فقد حاولت بعد أن تركها زوجها، أن تعمل أي عمل يسد جوعها وجوع ابنتهـا، فاشتغلت مرة في مدبغة لدبغ الجلود، وكانت مهمتها تنظيـف

جلود الجاموس والبقر من الشعر، وقد حصلت من عملها الشاق هذا الذي كان يمتد طوال النهار، على أجر زهيد، كان يكفي بالكاد لأود حياتها هي وصغيرتها، بالإضافة إلى ما حصلت عليه من إصابة فطرية مزمنة، لم يكن من السهل علاجها، لو تمكنت أم رجب، من ذلك، وسنحت لها الظروف التي كانت تضن عليها بأي فائض مالي بسيط، يجعلها تواجه هذه الفطريات اللعينة بأي مرهم أو عقار طبي يمكن شراؤه من أي صيدلية صغيرة، ثم إنها عملت كموزعة لأكياس غزل البنات التي كانت تحصل عليها من بائع يقوم بتصنيعها، لتنال نسبة ربح بسيطة مقابل هذا، لكن المشكلة كانت أنها تضطر لأكل ما تبقى منها، في نهاية اليوم، إذ تكون قدماها قد تعبتا من اللف والدوران، وبطنها الخاوية قد نهشها الجوع، ثم عملت بائعة بالونات، وذرة مشوية، وظلت لفترات طويلة تشتغل كحمالة في سوق الخضار، تشيل أجولة البطاطس والطماطم الثقيلة، حتى أصيبت، ذات يوم بانزلاق غضروفي أقعدها عن العمل، ولولا بعض حبات البطاطس التي كانت تختلسها من الجوالات الكبيرة، بين الحين والحين، لكانت نفقت جوعا، هي وابنتها، كما تنفق الحيوانات، لذلك

احترفت النشل أخيرا، رغم أن ذلك جاء بالصدفة المحضـة، إذ كانت تقف ذات يوم أمام جمعية تعاونية مزدحمة، لابتياع كيس من الأرز، عندما وقع نظرها على حقيبـة مفتوحـة، لسيدة واقفة، أمامها في الطابور، يبدو من هيئتها أنها موظفة من موظفات الحكومة اللواتي يضطررن لقضـاء حاجـاتهن المنزلية، بعد انتهاء يوم عملهن، وقد كـان بالحقيبـة كـيس جلدي صغير، مدت أم رجب أصـابعها الرشـيقة الرفيعـة، والتقطته، بهدوء، لتدسه في صدرها وتنسحب متسـللة مـن الطابور، صحيح أنها لم تجد فيه غير ثلاثة جنيهـات، إلا أن فرحتها بها كانت بلا حدود، إذ اشترت يومها علبـة حـلاوة طحينية تغدت بنصفها مع ابنتها، وكيلو يوسف أفندي، وكيلو مكرونة، لمواجهة يوم أو يومين آخرين، وقد شكلت الجنيهات الثلاثة فتحا مبينًا، بالنسبة لأم رجب في عالم النشـل الـذي ظلت فيه مستقلة طوال حياتها المهنية، إذ رفضت الانتمـاء إلى أية عصابة، أو جماعة من جماعات النشل المتخصصـة المنتشرة في أنحاء المدينة، وقد اعترفت أم رجب لعزيزة بعد أن صار بينهما أخذ وعطاء في كلام، بأنهـا ضـعفت ذات مرة، وكادت أن تنتمي إلى عصابة منظمة تمارس نشـاطها،

على نطاق واسع في سيارات نقل الركاب، بين القاهرة والأقاليم الأخرى، إلا أنها تراجعت، بعد أن فكرت جيدا وأدركت أن النشل الانفرادي أفضل لها، ألف مرة، لأن من المحتمل، لو وقع أحد أفراد العصابة في يد البوليس، أن يعترف على بقية زملائه. لكن ذلك التفرد، طالما كلف أم رجب الكثير، لأنها كانت مضطرة دائما لتوخي الحذر، ليس فقط من العصابات التي طالما اختلست هي العمل في مناطق نفوذها، ولكن من أعين الشرطة أيضا، ثم حكت لعزيزة أنها كادت أن تقتل في مرة من المرات، من قبل أفراد عصابة، طالما ألحوا عليها في الانضمام إليهم وظلت ترفض طلبهم على الدوام، لكنهم اكتشفوا، بعد فترة أنها تقوم بالنشل داخل الحدود الخاصة بعصابتهم والمتفق عليها مع العصابات الأخرى، فقامت هذه العصابة بخطفها، إلى مكان بعيد عن العمران، وشرع أفراد منهم في خنقها، لكنها توسلت إليهم توسلاً شديدا ليتركوها تعود إلى ابنتها الوحيدة التي تحتاج لرعايتها، فاكتفوا بضربها ضربا مبرحا، كان من آثاره عاهة مستديمة، فوق حاجبها الأيسر، قلما تلحظ بسبب كثرة تجاعيد وجهها.

كانت النهاية المأساوية التي ألقت بأم رجب في السجن، والتي عرفتها عزيزة منها بالتفصيل بعد فترة من المصالحة بينهما، هي العامل الأخير الذي رجح ترجيحا مطلقًا انضمامها إلى زمرة أهل العربة السماوية المذهبة لأن عزيزة التي طالما خبرت القدر، وفهمت ألاعيبه أدركت بعد تفكير وتمحيص لحالة أم رجب، أنه لم يلعب لعبته معها، على هذا النحو، إلا ليجيء بها، لتكون ضمن اللاواتي سيصعدن إلى السماء،، فرغم دقة أم رجب في تأدية عملها، وحرصها الشديد، وموهبتها الفائقة في النشل، إلا أن الحكومة أمسكت بها، بطريقة الصدفة القدرية، فبينما كانت تعمل ذات يوم في مترو مصر الجديدة الذي طالما اعتبر بالنسبة لها، واحدا من أفضل حقول استخراج النقود من محافظ ركابه الصابرين على عدم دقة مواعيده، وبطء سيره، وبعد أن نجحت في سحب كيس نقود خرزي ملون، من ذلك النوع المصنوع في تايوان الذي تتهافت عليه النساء وشاع انتشاره بعد سفر المصريين إلى الخليج الذي طالما فتح صدره على الرحب والسعة، لكل منتجات الاستهلاكية، من مثل هذا النوع، وغيره كالبلوزة المحاكة من الحرير الصناعي

المشغولة بالخرز على الصدر، والتي كانت ترتديها صـاحبة الكيس الشابة الذي كانت تضعه دون حرص في حقيبة يـدها التي فتحتها أم رجب في منتهى اليسر بمهارة خبيرة متمرسة على النشل لمدة تزيد عن ثلاثين عاما، بينما كانـت الشـابة مشغولة بترتيب خصلات شعرها بأناملها المطلية أظافرهـا، ورغم أن العملية تمت بنجاح، واستدارت أم رجب، بعـد أن خبأت الكيس، بسرعة في كيس بلاستيكي به بعض الخضار، والخبز، ثم أخذت تستعد للنزول بسلام في المحطـة التاليـة التي كان سيتوقف فيها المترو إلا أن طفلاً رضـيعا الـتقط، ببراءة رغيفًا من الخبز، بأصابعه الرقيقة، كاشفًا عن الكـيس الذي تحته. ولسوء حظ أم رجب، لمحته صاحبته بسرعة، إذ كانت قد استدارت هي الأخـرى، لتقـف خلـف أم رجـب استعدادا للنزول في المحطة ذاتها التي كانت أم رجب ستنزل فيها.

كانت كومة من نفايات السجائر قـد تجمعـت أمـام عزيزة، بينما عاودتها آلام الرأس والصـداع الـذي كـان يداهمها، بين الحين والحين، بسبب إصـابتها بضـغط الـدم المرتفع، وكانت قد فكرت بما يكفي، وقلبت مسألة أم رجـب

على كل جانب من جوانبها، فقامت لتتمشى قليلاً ولتعد لنفسها شيئًا تأكله، لأنها كانت قد بدأت تشعر بالجوع، تأملت سـقف الحجرة العالي الذي عشش العنكبوت في كـل زاويـة مـن زواياه، رفعت يمناها محيية إياه تحية المساء، قائلة له إنهـا تراه أحسن منها، وأفضل حالاً، لأنه أتى إلى هـذا المكـان بإرادته، ثم إنها سألته أن يسدي لها خدمة بسيطة، لكنها هامة جدا وسرية للغاية، وهي أن يذهب بهـدوء إلـى أم رجـب ويوشوشها في أذنها قائلاً لها:

عزيزة قالت لي أن أقول لك.. خلاص.. هي ناويـة أن تطلعك لهناك إن كان لها عمر، بإذن واحد أحد.

فصل الخطاب في تآخي الأضداد

ظلت الأسباب الحقيقية الكامنة وراء قتل حنة العجوز لزوجها الذي يكبرها بحوالي أربع سنوات، سرا مجهولاً، لكل الناس، بما فيهم أولادها الثلاثة، وهيئة المحكمة التي أصرت حنة أمامها على كل الأقوال التي كانت قد أدلت بها، قبل ذلك، للنيابة، فلم تزد عن أن وعاء الماء الذي كانت قد وضعته على موقد الغاز، قد غلى وفار، بعد أن نسيته ونامت وزوجها في المساء، وأنها عندما أفاقت في صبيحة اليوم التالي، لذلك المساء، وجدت نفسها وكأنها مخدرة، لا تقوى على الحركة أو حتى التنفس الطبيعي، فلما نادت زوجها، ليساعدها على النهوض من الفراش، لم يرد عليها، رغم أنها كررت نداءها له عدة مرات، ثم إنها شمت رائحة غاز قوية تملأ البيت، فتذكرت حينئذ الوعاء الذي كانت قد وضعته على النار قبل نومها مما جعلها تتحامل على نفسها وتجري إلى المطبخ، لتكتشف تسرب الغاز من الشعلة التي كانت قد انطفأت قبل ذلك، بوقت طويل، لكن هيئة المحكمة استمعت إلى أقوال حنة، بقدر عال من الاستخفاف، وعدم الجدية، وهو ما كانت النيابة قد فعلته أيضا، بسبب ثغرات عديدة،

تثبت سبق الإصرار والترصد، ليس في هذه الأقوال فقـط، ولكن في الشواهد، والأدلة الكثيرة التي توصلت إليها النيابـة أثناء التحقيق، وحكمت عليها بالسجن عشر سنوات بعـد أن وجهت إليها تهمة القتل العمد، مع سبق الإصرار والترصد، وبعد أن فشلت كل الجهود المبذولة من محاميها الذي كلفـه أبناؤها بالترافع عنها، وباءت بالخيبة توسلاته لها لكي تنطق وتقول إن زوجها كان يضربها ويعذبها ويقتر فـي الإنفـاق عليها، مما جعل السبل تضيق بها، وتظلم الدنيا في عينيهـا، فتقتله في لحظة غضب، وإنها الآن، نادمة كل النـدم علـى فعلتها الشنعاء التي قامت بها ضد أقرب الناس إليها، وتلتمس من هيئة المحكمة، أن تنظر بعين العطف والرحمة إليها بعد أن أقرت بجريمتها، وبات الندم والحسـرة ينهشـان قلبهـا، ويحطمان روحها، بسببها، لكن حنة ظلت مصرة على أقوالها الأولى، لا تعير أذنيها لنصائح المحامي الذي اعتبرت تدخله في هذا الموضوع، نوعا من السخف، وعتها من أبنائها الذين اعتادوا إنفاق فلوسهم فيما لا يفيد، وآثـرت إطباقـًا شـفتيها الرفيعتين إطباقا تاما في بؤرة ضيقة صغيرة، اختفت بداخلها نهايات الخطوط، والتجاعيد الدقيقة للمنطقة المحيطة بهمـا،

مما جعل القاضي الذي ظل يتثاءب، بملل، أثنـاء المرافعـة الإنشائية الطويلة، لممثل النيابة، يقـرر حكمـه الـذي بـدا متساهلاً بعض الشيء، إذا أنه لم يحكم عليها بالسجن المؤبد، أو الإعدام، كما هو شائع في مثل هذه الحالات، مستندا فـي هذا إلى شيخوختها وإلى تقرير طبي ضمه المحـامي إلـى أوراق قضيتها، يؤكد معاناتها من ضعف في عضلة القلـب، وارتفاع في ضغط الدم، فاعتبرها قاب قوسين أو أدنى مـن الموت، وآثر ترك مهمة إعدامها لعزرائيل الذي تشير كـل الدلائل إلى أنه ليس بعيدا عنها، وهو ما أثبتت الأيام عكسه، إذ عاشت حنة حتى أمضت نصف مدة عقوبتها، وخرجـت إلى الدنيا، مرة أخرى بعد أن صدر قرار عفـو جمهـوري شملها وسجينات أخريات، بمناسبة عيد الثورة، وربما كـان شعورها المتفائل، لحظة سماعها الحكم، وراء تلك الابتسامة الخفيفة التي انفرجت عنها شفتاها، وأغاظت ممثـل النيابـة الذي ظل، قبل ذلك بوقت طويل، يصفها بأبشـع الصـفات، وأحطها.

جرى إيداع حنة سجن النساء، حيث استقر بها المقام في عنبر العجائز، والضعفاء، بالقرب من الزنزانة الانفرادية

المخصصة لعزيزة الإسكندرية التي سرعان ما حظيت حنـة بمحبتها ورضاها، بعد أن التقتها في اليوم التـالي لإيـداعها السجن في دورة المياه، أمام حوض غسيل الوجـه، وكانـت حنة تشب بقدميها محاولة الوصول إلى صـنبور الحـوض العالي وفتحه دون أن يساعدها جسدها القصير، قصرا شديدا، على ذلك، فقامت عزيزة بمساعدتها، وفتحته لها، فشـكرتها حنة، وهي تضحك ساخرة، من قصرها الذي طالما جاب لها المتاعب في تعاملاتها مع الناس، وجعلها موضـع تنـدرهم، على الدوام، بل وكان يجعل زوجها يأنف من السـير إلـى جانبها في الطريق، إذ كانت قامته تميل إلى الطول، فتضطر لأن تسير خلفه بخطوات، حتى المكان الذي يذهبان إليه.

ثم إن عزيزة استلطفتها جدا، ودعتها لتناول الإفطار، معها في زنزانتها الانفرادية، فلما جـاءت حنـة، وجلسـت المرأتان تأكلان ما جادت به الأيام على عزيزة من طعـام، كان عبارة عن بقايا مكرونة مقصوصـة، كانـت جمـالات الحرامية، قد أعدتها لعزيزة في اليوم الفائت، بعد أن سرقت علبة صلصة صغيرة من مطبخ السجن، بينما ظلت المرأتان تدفعان بملعقتين حبات المكرونة إلى فميها، وتقضمان البصل

الأخضر، بشهية ونهم، بعد أن غسلته جمالات التي كانت واقفة، آنذاك في ركن الحجرة تنتظر غليان الماء الموضوع في كوز صغير، على السخان الكهربائي الرخيص، ذي الأسلاك اللولبية، لتعد الشاي الكشري الذي تفضله عزيزة، ولا ينفعها من وجع الدماغ عند الصباح سواه، وبينما كانتا تأكلان برضا وانشراح، حكت حنة لعزيزة ببساطة وسلاسة شديدتين، وكأنها تحكي قصة فيلم سينمائي ممتع شاهدته منذ وقت قريب، حكايتها مع زوجها التي قادتها في النهاية، إلى سجن النساء، وذلك دون أن تداخلها لحظة ضيق، أو شعور واضح بالندم، بل إنها بدت، وهي تقص تفاصيل هذه الحكاية، كما لو كانت سعيدة جدا، إذ ظلت تبتسم بين الحين والحين، كاشفة عن أسنانها المتراصة البيضاء الجميلة، ليس بسبب أي شيء سوى أنها أسنان صناعية، تحمل ابنها الصغير نفقات صنعها عند واحد من أشهر معامل تصنيع الأسنان في الجمهورية كلها، وقد استطاعت حنة أن تشد عزيزة إلى حكاياتها المثيرة، وكذلك جمالات التي كانت تستمع إليها بشغف شديد، لأنها تستحق ذلك أولاً ثم لتحفظ تفاصيلها فتحكيها لصديقاتها في عنبر الجرب، بعد ذلك، لتزجية

الوقت، وصرع المال، كانت جمالات منتبهة إلى كلام حنـة، سارحة بفكرها فيه، لدرجة أن الماء غلى غليانًا شديدا، ولـم تنتبه إليه إلا عندما سال وانسكب على السـخان الصـغير، محدثًا صوتًا واضحا، لتبخره السريع، بفعل الحرارة الشديدة التي كانت عليها الأسلاك اللولبية الرفيعة التي وصلت إلـى حد التوهج بالاحمرار.

اكتشفت حنة، وهي تحكي حكايتها لعزيزة التي تعتبر أول إنسان باحت له بها، منذ أن قتلت زوجها، حقيقة لم تفطن إليها، طوال سنوات عمرها الطويلة، وهي أنه كـان يجـب عليها التخلص من ذلك الزوج الذي عاشرته حوالي خمسـا وأربعين سنة، قبل أن تقدم على قتله، ولعـل مـن محاسـن الصدف – التي لم تدركها أبدا – بالنسبة لها، أن اكتشـافها، لهذه الحقيقة، تم بعد أن كانت قد بلغت من الكبر عتيا، فلـو أنها قتلت زوجها في سن أبكر كثيرا، من العمر الـذي هـي فيه، فإن هيئة المحكمة التي راعت اعتبـار السـن بالنسـبة لحالتها، لم تكن لتوكل مهمة إعدامها لعزرائيل، لأنها كانـت على الأغلب، سوف تحكم عليها بالإعدام، أو علـى الأقـل، بالسجن المؤبد، كما يحدث في هذا النوع من الجرائم.

كانت حنة مستعدة لقص حكايتها، ليس على عزيـزة فقط، ولكن على أية امرأة أخرى، غيرها، إذا ما طلبت منها ذلك، حتى لو لم تكن على علاقة حميمة بها، أو ارتاحت لها، وحاولت التعرف عليها، مثل عزيزة، لكنها لم تكن على أقل استعداد لأن تتكلم مع أي رجل، مهما كان قريبا منها في هذا الموضوع، حتى لو كان واحدا مـن أبنائهـا، أو محاميهـا الخاص، أو قاضي المحكمة نفسه، حتى لو قـرر أن يحكـم عليها بتقطيعها قطعا صغيرة، ورميها للكلاب في الشـارع، لأنه من المستحيل بالنسبة لها أن تحكي واحدة مثلها، تربـت تربية مهذبة، فاضلة، عن أمور خاصة، سرية، تتعلـق بمـا يحدث بين الرجال والنساء، عادة في غرف النوم، وحتى مع النساء أنفسهن، ما كانت بمستعدة أن تفتح فمها بكلمة واحـدة في هذا النوع من المسائل، مع أية واحدة منهن، قبل قيامها، بحادثة القتل، مهما بلغ الأمر بها من ضيق وزهق، ورغبـة في الفضفضة عما بداخل النفس، أما الآن، وبعد أن انتهى كل شيء، وأخذ كل نصيبه من الدنيا ، فانتهى زوجهـا نهايتـه المكتوبة، والمقدرة له عند الرب، وبات مستقرها فـي ذلـك السجن النسوي بعالمه الغريب، فقد تساوى كل شيء بالنسبة

لها، وهي لا تجد ما يمنع من قص حكايتها، من طـق طـق لسلام عليكم، لكل واحدة تسأل عنها، لأنها لن تخجـل ولـن تستحي من امرأة مثلها، لديها بجسدها ما بجسد حنـة ذاتـه، ولها مشاعر لا تختلف عن مشاعرها كثيرا، فتستطيع أن تفهم وتحس وتقدر ما عانته في حياتها، ولم تستطع التعبير عنـه، قط في حياة عين زوجها الراحل.

حكت حنة لعزيزة عن شراهة زوجها لجنس النسـاء التي اكتشفتها، منذ ذلك اليوم البعيد الذي زفت فيه إليه، وهي الشراهة المجنونة التي دفعته لأن يضاجعها في ليلتها الأولى معه، تسع مرات متواليات، رغم الآلام الفظيعة التي عانتها، فجعلتها تتوسل إليه أن يكف عن ذلك الفعـل المـؤلم الـذي يجعلها تشعر أنها على وشك الاحتضار، لكنـه، بـدلاً مـن الاستجابة لتوسلاتها المعذبة، واصل إغارته عليها، مرة تلـو أخرى، حتى طلع فجر تلك الليلة، بينما كانـت آلامهـا قـد وصلت إلى درجة اضطرتها لتمضية ساعة كاملة جالسة في وعاء واسع مملوء بالماء الدافيء، بعد أن أضافت إليه نصف ملعقة من الملح، حتى تخفف من شعورها بالألم الذي امتزج برغبة حادة في النوم، تغلبت عليها، فسـقط رأسـها، علـى

صدرها، وراحت في سبات عميق، وهي جالسة فـي ذلـك الوعاء، دون أن تشعر.

في ظهيرة اليوم التالي، عندما جاءت أمها وأبوهـا، مصطحبين إخوتها الصغار، لتهنئتها بحلول نهار اليوم الأول على استقرارها في منزل الزوجيـة السـعيد، فقـد ودت أن تبصق عليهم جميعا، وأن تضرب أمها التي اعتبرتها، آنذاك المسئولة الأولى عن أكبر جريمة عرفتها البشرية، إذ كانـت وراء تزويجها من ذلك الفحل المعجزة الذي هو بحاجة، ليس إلى امرأة واحدة فقط، بل إلى قطيع من الإناث، ليقفز عليهن طيلة الوقت، مثل الديك وسط الدجاجات في الحظيرة، لكنهـا عوضا عن فكرة البصق والضرب التي ربما كانت قد أتتهـا تحت تأثير كئوس الخمر التي أجبرها الزوج المفاجأة علـى تجرعها، غصبا عنها، ومازال تأثيرها يفعل فعله في رأسها، عوضا عن ذلك الأسلوب غير المهذب الذي أوشـكت علـى الوقوع فيه، مع أهلها الذين هم أقرب إليها من حبل الوريـد، وأمها التي حملتها في بطنها تسعة أشهر، تماسكت وكظمـت غيظها، دون أن تعفو عنهم، وراحت ترسم علـى شـفتيها، ابتسامة فرح، كاذبة، تليق بمعاناة عروس في مثل حالتها عند

النهار الأول لزواجها، إذ كانت قد أيقنت أن الفأس وقع في الرأس، وأنها أصبحت أمام الناس، وعند الدولة، وبمعرفة أهلها زوجة لذلك الرجل الذي يطفح وجهه بشرا وسعادة وهو يستقبل عائلتها بترحاب ومودة، باعتباره زوجا لابنتهم، يستقبلهم في بيته الزوجي للمرة الأولى.

تحاملت حنة على نفسها، وأعدت مائدة الغداء الذي كانت أمها قد طبخته لها بنفسها، وأحضرته معها حرصا على راحتها، وعلى عدم إزعاج الزوج الجديد، لكن وبينما كان الجميع يستمعون إلى تمثيلية من التمثيليات الشيقة التي كانت تبثها الإذاعة آنذاك، قام زوجها، من بينهم، ودخل غرفة النوم، ثم نادى على حنة منها، فلما ذهبت إليه، أغلق دونهما الباب، وباغتها بجولة سريعة، اقتنصها من وقت الضيوف الذين كانوا ما يزالون منصتين إلى التمثيلية، لكنهم سرعان ما تنبهوا لغياب الزوجين في غرفة نومهما، فأحسوا بثقل وجودهم الذي بدا في نظرهم، غير مرغوب فيه، وهبوا راحلين، بعد أن أرسلوا بتحياتهم وتمنياتهم الطيبة للزوجين السعيدين،وتركوا مبلغًا من النقود في مظروف ورقي صغير،

فوق المذياع الذي نسوا أن يغلقوه، وذلـك كهديـة بسـيطة للعزيزين في صبيحة زواجهما.

منذ ذلك الزمن البعيد، وطوال سنين طويلة، ظلـت حنة، مطية تحت الطلب لزوجها، آناء الليل، وأطراف النهار فقد كان يباغتها، أحيانًا بعودته من العمل، مبكرا عن الوقـت المعتاد لرجوعه، كل يوم، عندئذ، كان عليها أن تترك، على وجه السرعة، ما بيدها من أعمال منزلية، أيا كانت وتتوجـه إلى الفراش، لذلك طالما احترق طعام، كانت تعـده لوجبـة الغداء في قدرة على النار، وسقطت رغما عنها قطع غسـيل صغيرة، كانت تلمها أو تنشرها على الحبال بعـد غسـلها، لارتباكها وعجلتها، لتلحق به في السرير، ورغم أنها ما لبثت أن أنجبت له ثلاثة صبيان النظرة في الواحد مـنهم تشـرح القلب الحزين، إلا أن ذلك لم يصرفه عـن طلـب المتعـة المنشودة في جسد حنة الضعيف، فكانـت تتـرك رضـيعها يصرخ طالبا الرضاع منها، بينما هي مشغولة بأبيه الذي هو بحاجة لتلبية رغباته أيضا، والمشكلة أن ذلك الأمـر، كـان يلتهم ساعات يوم حنة التي أصبح شعارها، كشعار أي تلميذ في فريق الكشافة:

"كن مستعدا"، لأنها كان يتوجـب عليهـا أن تؤهـل نفسها التأهيل المناسب، لذلك النوع من المطالب الزوجيـة، فتستحم، وتتزين واضعة الكحل في عينيها، والمساحيق على وجهها، كاشفة عن أكبر مساحات ممكنـة، مـن ذراعيهـا وصدرها الذي كان عليها أن تترك شعرها الأسود الجميـل يتهدل عليه ليضفي عليها شكلاً يجعلها أشبه بمهرة صغيرة، ولدت منذ زمن قصير، كل ذلك لتبدو، كما يريـد أن يراهـا دائما، مثيرة للرغبة، وعلى حال تبدو معه وكأنها واحدة من بائعات الهوى في علبة من علب الليل المنتشـرة بالمدينـة، وليست زوجة من ربات الخدور، وأما فاضلة لا تغفل عينها عن أبنائها، إلا عندما تكون مضطرة للانشغال بذلك الـزوج المشكلة.

أدى كل ذلك في النهاية، إلى أن تضرب حنة عرض الحائط، بكل التعليمات والنصائح الأمومية التي تلقتهـا قبـل الزواج، وبعده بشأن العناية بالبيت، والحفاظ علـى جمالـه، وهي النصائح التي طالما تمنت أن يسنح لها الوقت لاتباعها، مما جعل الشقة في النهاية، تتحول إلـى مـا يشـبه نـزلاً للعابرين، بدلاً من أن يكون بيتًا، للإقامة العائلية المريحة.

ثم إنها كانت تحرص دوما على ألا تكون مجهدة، أو ملطخة بالأتربة والأوساخ، إذا ما قامـت بعمليـات الكـنس والتنظيف، وقد كان أي زائر عابر للبيت، يلحـظ التنـاقض الغريب بين عناية امرأته بزينتها، ونظافتها الشخصية، وبين تلك الكميات المتراكمة من الأتربة على المـرآة البلجيكيـة الصنع، ذات الإطار الذهبي الجميل الذي ضـاعت تفاصـيل نقوشه الدقيقة، لكثرة ما استقر عليه من أوساخ، وعفار غطى كل شيء بالحجرة، حتى ريشات الطـاووس الخمـس فـي مزهرية الصيني الكحلية الموضوعة علـى المنضـدة ذات السطح الرخامي، والأرجل المذهبة المنتهيـة بإطـار علـى شاكلتها، يحوط ذلك السطح، أما المطبخ، فقد كانت عناكـب السقف، والصراصير المستوطنة لشقوق دواليبـه الخشـبية، استيطانًا مطمئنًا، لا تكدر صفوه غارات نظافـة دوريـة، أو مبيدات حشرية قاتلة، تشهد على مدى قلة اهتمام ربة المنزل بذلك المكان، وعلى وضعه في مـؤخرة أولويـات مهامهـا العملية التي كان على رأس قائمتها، تمكـين الـزوج منهـا وتهيئة الظروف المناسبة لممارسة نشاطه اليومي المعتاد في أي وقت من الأوقات.

لقد حاولت حنة في حدود استطاعتها الإقلال من اندفاع الزوج في شهوته الطاغية، بأساليب مختلفة، فعندما كان أولادها صغارا كانت تصحبهم في زيارات طويلة إلى بيت أمها، تمتد من أول النهار وحتى حلول المساء، على أمل أن تقتل الوقت بعيدا عن حصانها الجامح، لكنه عندما كان يجدها، قد غابت نهارا بكامله، وهو أكثر مما يمكن احتماله، من وجهة نظره، كان يلاحقها إلى حيث تكون، ويعود بها إلى البيت، بسرعة بل إنه في إحدى المرات لم يطق صبرا، بانتظار عودتهما إلى بيتهما، فسحبها إلى حمام بيت أمها وأغلقه عليهما دون أدنى شعور بالحرج من أطفاله الذين ظلوا يصرخون خلف الباب لفرط انزعاجهم من دخول والديهما إلى ذلك المكان سويا، وهو ما لم يعتادوه قبل ذلك، ولحسن الحظ فإن أمها كانت خارج البيت آنذاك، وإلا لكانت حنة قد تعرضت لحرج شديد وفي محاولة أخرى، قررت حنة تلهيته بلعب الورق، أو النرد في الأمسيات التي كان يحرص على تمضيتها إلى جوارها في البيت، لكنها فشلت في ذلك أيضا فشلاً ذريعا، إذ أنه كان يفضل قتل الوقت بلعبته الأساسية المفضلة، ثم إنه لما كبر الأولاد، وزادت

مطالب الحياة التي لم يعد من الممكـن مواجهتهـا براتبـه الصغير فقط، ابتاعت ماكينة تريكو بالتقسيط، وظلت تتذرع بانشغالها بها ليلاً، عندما كان يطلبها في الفراش، لكنه فـي لحظة من لحظات غضبه، وحنقه الجـامح عليهـا، بسـبب انصرافها عنه إلى الماكينة – الغريم، قام بتحطيم تلك الماكينة التي كانت للأسف، صناعة يابانية ضعيفة، من ذلـك النـوع الرخيص الذي اكتسحت به اليابان أسواق البلدان المتخلفـة، ونجحت في سحب السجادة من تحت أقدام الخواجـة سـنجر وشركاه.

ومثلما فشلت خططها في لعـب الـورق والنـرد، وماكينة التريكو الذين استعاض عنهم، جميعا، بالفرجة علـى مجلات جنسية فاضحة، حتى يتمكن من تجريب، وابتكـار، أساليب مضاجعة جديدة، مع حسنائه الكبيرة فشـلت أيضـا محاولتها في تقليل مرات اتصاله بها، عـن طريـق وضـع أقراص منومة له في كوب اللبن المحلى بعسل النحل والذي كان حريصا على شربه كل مساء، فرغم أنه كان يرقد بعـد ذلك كجثة هامدة، حتى صباح اليوم التـالي، إلا أنـه كـان بمجرد أن يفيق ويعي الدنيا حوله، وقبل أن ينطـق، حتـى

بتحية الصباح، كانت يده تمتد لتحسس جسدها، شارعا في الانقضاض عليها، مستفيدا من ساعات نومه العميق، وجسده المستريح المسترخي، طيلة الليل.

المرة الوحيدة التي شعرت فيها حنة أن مشكلتها مع هذا الزوج قابلة للحل، ولو إلى حين كانت عندما جرى نقله من عمله إلى مدينة ساحلية بعيدة، تفصلها عن القاهرة، عدة ساعات بالقطار، ولكن سرعان ما خاب ظنها، إذ أنها بعد أسبوع واحد فقط من النوم الليلي الهادئ الذي لا تنغصه هجمات مفاجئة، عادت حنة لمعاناتها الأولى، فلقد نجح الزوج في العودة إلى مقره الأول في العمل بعد أن دفع رشوة، كانت تشكل نصف ما ادخرته طوال سنتين لشراء تلفزيون، كسائر الجيران، لأنها الوحيدة في العمارة التي يسكنون بها التي لم يكن بشقتها تلفزيون. بعد ذلك، أيقنت حنة أن لا فائدة، واعتبرت حالة زوجها ميئوسا منها، بل هي المقدر والمكتوب، على لوحها المحفوظ في السماء، قبل أن توضع بذرتها في رحم أمها، لأن لكل مخلوق – كما قالت لها أمها ذات يوم، لوح محفوظ عند ا ، مكتوب فيه، كل ما كانه وما سيكونه، منذ ابتداء خلقه، وحتى مماته، ورغم أنها

كانت تتمنى حدوث معجزة، تجعل زوجها - يمرض مرضا يقعده عن واجبه الزوجي الزائد عن الحد، أو يصاب بعاهـة مستديمة تجعله يكف عنها، إلا أنها كانـت أحيانًـا تحـاول مواساة نفسها، لأن مصيبتها كانت ستكون أكبر وأشد، لو أن زوجها كان من ذلك النوع من الرجال الذي يلجأ إلى نسـاء، غيرها، فهو موظف صغير، محدود الدخل، ولـولا قـدرتها على التدبير والاقتصاد، لما سارت بأسرتها عجلـة الحيـاة براتبه الضئيل، ولعله لو كان عيل إلى معرفة امرأة غيرها، لكان ولابد سيقطع جزءا من دخله، للإنفاق على هذه المرأة، سواء فيما يتعلق بالهدايا، أو الخروج والدخول معهـا، ممـا كان سيشكل خطرا، يهدد استقرار حياتها العائلية الآمنة.

في النهاية، يئست حنة، بعد أن اقتنعت أن مشـكلتها من ذلك النوع الذي لا يحله إلا الزمن، لكنها عندما تجاوزت الخمسين، أدركت خيبة ظنها، فرغم بلوغها هذه السن التـي وضعتها على أعتاب الشـيخوخة، وزواج أبنائهـا الثلاثـة، ومغادرتهم البيت إلى بيوت الزوجية، فـإن آيـة الإعجـاز الحسي - هذا - التي هبطت علـى حنـة، زادت مطالبـه الزوجية، على اعتبار أنه انتهى من هم العيال، وبات متفرغًا

لعلاقته بها من جديد، الأكثر من هذا أنه أصبح يجلـب لهـا مساحيق التجميل، والعطور، وقمصان النوم العارية التي تليق ببنت بنوت ليلة زفافها، طالبا منها ارتداءها طيلـة الوقـت، مستفيدا بذلك من الزيادة التي تطرأ على مرتبه بـين الحـين والحين، وتخففه من عبء الإنفاق على أولاده، بعد أن كبروا وباتوا متحملين لمسئولية أنفسهم، وكان ما يزيد من غيظهـا منه، وحنقها عليه، هو مطالبته اللحوح، لها أن تترك شعرها منسدلاً على كتفيها، ما عدا غرة صغيرة منه، تجعلها علـى جنبيها، لتبرز فتنة وجهها، ولما كان شعر حنة، قد بات خفيفًا منحولاً، بسبب الحمل والرضاع، ومـرور الأيـام وكثـرة الصباغ والشد على لفائف، منذ أن أصـبحت شـابة تطلـب للزواج، فقد حاولت إقناع زوجها، بأنه لا داعي للغرة، بـل من الأفضل والأريح لها أن تقصه عند حلاق النساء، بطريقة مناسبة تتلاءم مع الطبيعة الحالية لهذا الشعر، وظروف سنها، لكنه أبى ذلك بشدة، مدعيا أنه سيشتري لها، من عند عطـار كبير معروف بشطارته، مجموعة زيـوت مقويـة لجـذور الشعر. الأكثر من هذا، أنه رفض رفضا قاطعا، أن تخلع عند النوم أسنانها الصناعية التي كانت قد استعاضت بهـا عـن

أسنانها الطبيعية، بسبب نخر السوس والالتهاب المزمن الذي عانت منه منذ طفولتها في لثتها فقد كان ذلك الزوج الذواقة، لا يحب أن يقبل فما خاويا من الأسنان، إذا ما رغب في ذلك في أي وقت من أوقات الليل، مما جعل حنة تنام نوما متقطعا قلقًا، بسبب مخاوفها من أن تغيب في النوم فتبتلع فكًـا مـن فكيها أثناء ذلك، أما المسألة التي باتت تثيـر حقـدها عليـه بالفعل فهي إصراره الدائم على مضاجعتها، وهـي عاريـة تماما، حتى في أقسى ليالي الشتاء برودة، خلال شهر طوبة، وكان أقصى ما يسمح به لها، بعد توسـلها الشـديد هـو أن ترتدي جوربا من جواربه القديمة في قدميها، لتدفئ أصابعها التي تكاد أن تتيبس من شدة البرد.

تحملت حنة كل هذه السخافات، والمضايقات الزوجية الشنيعة، لأنها لم تجد ما تفعله إزاءها، بل وكانت لا تستطيع أن تحكي عنها لأي مخلوق آنذاك، لأنها كانت مستوعبة جيدا لدرس الحياة الزوجية الأول الذي لقنتها إياه أمها قبل الزواج، وهو أنه لا يجوز مهما كانت الأسباب الكلام عما يدور داخل حجرة النوم، خارج جدرانها، حتى لأقرب المقربين للإنسان، بما فيهم الأم، ذاتها، لذلك فإن حنة، طوال حياتها الزوجيـة

الطويلة، لم تناقش متاعبها الزوجية الخاصة، مع أي كائن كان، بما في ذلك أختيها، وأمها نفسها، بل وكانت فيما بعد تتحمل على مضض همزات ولمزات وتعليقات زوجات أبنائها المبطنة بالسخرية، عندما كن يأتين لزيارتها، وتقع عيونهن بالصدفة على ملابسها الداخلية الوردية، والحمراء، أو على تلك القمصان الحريرية الناعمة المخصصة للنوم، والتي تكشف كامل الذراعين، والجزء الأكبر من الصدر عند ارتدائها، لأنهن كن على الأغلب، ورغم كونهن شابات في عز شبابهن، يكتفين بارتداء تلك الأنواع القطنية، ذات الطابع البسيط العملي الاستخدام، والتي تنحو نحو التحفظ والاحتشام.

بعد أن بلغت سنة الستين، بدأت في حركة تمرد وعصيان لمطالب هذا الزوج الذي لا يهدأ أبدا، لأنها كانت ترى أن الحكومة نفسها، وهي التي لا تعرف الرحمة أبدا، تحيل الموظف أو العامل إلى التقاعد عند بلوغه هذا العمر، وأنه يحق لكل إنسان أن يحيا بسلام وهدوء في هذه المرحلة المتقدمة من حياته، ثم إن الحكومة تعطي معاشًا لمن تركها في هذه السن، أما هي فلا ترغب في أي شيء، سوى أن يتركها ذلك الزوج في حالها، فتستمتع بنوم هادئ أثناء الليل،

وترتدي ما تشاء من ملابس تريحها، دون التقيـد برغباتـه صيفًا وشتاءا، ليلاً ونهارا، ثم إنها تريـد أن تـريح نفسـها وترحم وجهها الذي أصبح جلده عجوزا مكرمشًا، فتقلع عـن وضع المساحيق التي باتت، وبسبب رعشة يديها المسـتجدة عليها لا تقوى على استخدامها بشكل متقن جميل، مثلما كانت تفعل في الماضي لتزيد وجهها فتنة وإشراقًا، وخصوصا مع تزايد حالة الضعف التي ألمت ببصرها، فجعلتها تضع الكحل بعيدا عن خط الجفن الداخلي للعين، فيبدو منظرها بعد ذلـك غريبا مضحكًا، حتى أن زوجة أبنها الأكبر، لفتت نظرها إلى ذلك، ونصحتها بالامتناع عن استخدام الماكيـاج، عمومـا، والكحل، خصوصا، لكن في كل مرة كانت تناقش هذا الأمر مع زوجها، كان يرفض رفضا تاما، إحجامها عما افتـرض أنه عناية واجبة، بنفسها، وحق من حقوقه الشرعية عليها، بل واعتبر في إحدى المرات التي كررت فيهـا رغبتهـا فـي التوقف عن استخدام المساحيق، أن هذا نـوع مـن الـدلال والمناورة منها، حتى تحصل علـى المزيـد مـن الرعايـة والاهتمام منه، لذلك راح يغدق عليها الكثير مـن العطـور، والملابس الداخلية، وكل تلك الأشياء النسائية التي لا لـزوم

لمعظمها، كطلاء الأظافر، وكريمات الأيدي والوجه، وزيوت الشعر، وهي الأشياء التي يمكن أن تفتن بهـا عـادة شـابة صغيرة مازالت في بداية حياتها الزوجية.

في إحدى المرات، أحضر لها ملبنًا محشوا بالجوز، باعتباره النوع الأثير، من الحلوى، لديها، على أمل أن ينـال رضاها، ولقاءها في الفراش، لكنها رفضـت ذلـك بشـدة، وظلت متشددة في موقفها، دون أن تقرب الملبن بالجوز الذي كانت تتلمظ عليه، وبقيت في مكانها جالسة تشمس على كنبة الصالون في ذلك اليوم الشتوي الدافئ وراحت تقنعه أنهمـا صارا جدان لعشرة أطفال، هم حصيلة زيجات أبنائها الثلاثة الذين تكفي النظرة إلى الواحد منهم، لغمر القلـب بالسـعادة والفرح، وأنه من الأجدى، لمن في مثل سنه، أن يتقرب إلى ا بالصلاة والصيام والشكر على تلك السنين الراضية الهنية التي عاشها، والصحة الموفورة التي يتمتـع بهـا، والنسـل المبارك الذي من به عليه، ثم إنها دعت له بالتوفيق وصلاح الحال، وسألته أن يسأل ا النهاية السهلة المستورة، والمثوى الطيب في الآخرة، لكن الزوج الطائش اشتعل غضـبا عنـد سمع هذا الكلام، وقال لها إنه كلام يقصـف العمـر، ويغـم

النفس، ويجعله يشعر بأنه يجب أن يسارع بتجهيز تربته، وأنها تريد أن تحرم ما أحله ا له، ثم إنها جاحدة، لا تقدر النعمة التي خصها ا بها دون سائر النساء اللواتي تتمنى الواحدة منهن، أن يكون لها زوج مثله لذلك فإنها ولابد، ستحشر في نار جهنم، لتذوق فيها عذابا أليما، لكونها لا تطيعه الطاعة الواجبة له، والتي هي من طاعة ا ، بل وتدفعه بتمنعها، وابتعادها عنه إلى الانحراف، والسير في طريق الفسق والفجور.

غير أن حنة، ظلت مصرة على موقفها، رافضة الاستجابة لمطلبه الخاص بمرافقته في الفراش، بل وراحت تهدده بأنها ستشرب سما، وتقتل نفسها، إن هو حاول الاقتراب منها، والحقيقة أن الدافع الأكبر لموقفها، هذا، كان سببا طبيعيا دفعها إلى رفض حدوث ذلك الأمر بينها وبين زوجها تماما، إذ أن جسدها القصير الضئيل، أصلاً، انكمش كثيرا، وبات أكثر ضآلة في سنوات شيخوختها الأخيرة، ولم يعد قادرا على تحمل ثقل سبعة وثمانين كيلو جراما من اللحم البشري، هي ما آل إليه وزن الزوج، آنذاك، وعندما كانت تواجهه بهذه الحقيقة أيضا، كان يتحول غضبه إلى بكاء

مرير، متهما إياها بأنها باتت تكرهه، وتعيره بما أصبح عليه حال جسده من سمنة وترهل، بعد أن كان رشيقًا، ممشـوقًا، قويا، كعود الخيزران، ثم إنه كان يأخذ عندئذ في نعي حظـه العاثر الذي أوقعه في زوجة مثلها، لم ير معها يوما واحـدا حلوا في حياته، فهي نكدة، معقدة، خالية من الأنوثـة، كـان الأليق بها ألا تتزوج وأن تلتحق بدير مـن الأديـرة مـدى الحياة.

ولما صارت حنة في كل مرة تحدث بينهما مثل هذه المشاحنات، تبدو كصخرة لا تتزحزح من مكانها، ولا ترجع في قرارها العنيد الذي لا يضعف حتى عند سقوط دموعـه الحارة، ابتدع أسلوبا جديدا للضغط عليها، فأخـذ يشـتكيها لأبنائها، قائلاً لهم إنها تتفنن في إيلامه وتعذيبه، وإنها باتـت تهمله ولا ترعاه، وتمضي معظم وقتها في الاسترخاء والنوم، ولم يتطرق بالطبع إلى علاقتهما الخاصة لأنه كان، كحنة قد استمع جيدا إلى دروس أبيه في هذا الجانب أيضا مكتفيا بأن يفهم أبناؤه ما بين السطور في كلامه لهم لكـن الأبنـاء لـم يفهموا ما قصده أبوهم، أبدا، لأن عقولهم كانت منصرفة عن مثل هذه الأمور، باعتبارهم يقومون بالكاد بواجباتهم الزوجية

المتعلقة بالجزء السفلي من الجسد، بسـبب الإرهـاق الـذي يعانون منه كغيرهم في مواصلات المدينة، وكافـة جوانـب حياتهم اليومية المنهكة للقوى، مما يجعلهـم يعـودون إلـى بيوتهم، آخر كل نهار، متعبين إلى الحد الذي لا يتمنون معه إلا الدخول إلى السرير، للنوم، وإراحة أجسامهم المكدودة، ثم لأنهم كانوا يظنون أن علاقة أبيهم الخاصة، بأمهم في هـذا الجانب، قد انقطعت منذ زمن طويل.

بعد أن جرب الزوج كل وسيلة تجعل حنة ترعـوي وتثوب إلى رشدها، فتلبي مطالبه الزوجية، وأيقـن أنـه لا جدوى معها أبدا، بالأساليب السلمية التي صدت كل باب في وجهها، والتي كان منها أنه اصطحبها إلى حديقـة الحيـوان مرة، ومرة أخرى إلى السيرك القومي الذي لم تكن قد رأتـه على الطبيعة أبدا، ثم إنه دعاها للعشاء علـى فتـة كـوارع بالحسين، وبعد أن عدم كل طريقة من الطرق الممكنة التـي تجعله مقبولاً، مرغوبا، من وجهة نظرها، اضطر للجوء إلى الجفاء والقسوة، وخصوصا وأنها تجاهلت جهده في الاعتناء بهندامه وصبغ شعره الأبيض بالأسود، وحرصه على حلاقة ذقنه وتهذيب شاربه، ورش نفسه عند كل خروج، ودخـول،

بكولونيا "ثلاث خمسات" التي يمكن استخدامها لتطهير الجروح، لاحتوائها على نسبة مرتفعة جدا من الكحول الأبيض النقي، وبات يشتمها ويثور في وجهها لأسباب بسيطة، وعادات هي سيئة في الحقيقة، لكنها لا تستحق كل هذا التجريح، مثل كونها تعيد عيدان الكبريت، بعد إشعالها، إلى العلبة مرة أخرى أو أن تصر على شرب الحلبة الحصى المغلية وهي جالسة في السرير واللحاف فوقها، صحيح أنه لم يضربها أبدا مثلما يفعل أزواج كثيرون مع زوجاتهم، لكن تلك الإهانات التي باتت تسمعها حنة موجهة لها، صارت تؤلمها وتؤذي مشاعرها إلى أقصى حد، بل إنها صارت تستفز وترد عليه وهي التي لا تحب ذلك أبدا، لأن احترام الزوج واجب غير أن كيلها طفح، خصوصا عندما أصبح يسخر منها ويقول لها إنها قصيرة كيد الهاون، ويحاول إغاظتها أمام أحفادها الصغار، عندما يأتون لزيارتهما، فيحكي لهم حكاية السيدة القصيرة التي لديها مقشة بيد قصيرة، وسريرها بأرجل قصيرة، وناموسيته قصيرة، وحنفيتها بخرطوم قصير، وكيف اشتكت للقاضي ذات يوم، وهو جالس يحكم بين الناس، من ذبابة ضايقتها وسقطت في

طبق العسل الذي كانت قد وضعته لتأكل منه، فما كان منه إلا أن أعطاها منشة، ذات يد طويلة، وقال لها: كلما رأيت ذبابة نشيها، وبينما هي جالسة أمامه تنظر إليه، إذ رأت على عمامته البيضاء الضخمة ذبابة تقف في اطمئنان، فما كان منها إلا أن سارعت برفع المنشة، وهوت بها على رأسه فغضب منها غضبا شديدا، لأنها آلمته، وجعلت الحاضرين يضحكون عليه، فأمر بمدها في الفلقة، وضربها على قدميها عشرين ضربة، حتى لا تفعل ذلك مرة أخرى، وتكون عبرة لكل من لا يعتبر.

الشيء الذي لم تتصور حنة أن يصدر في حقها من زوجها في أي يوم من الأيام، كان اتهامه لها ذات مرة، بأنها تبتسم في دلال لبائع الفول المدمس الجوال الذي يتعاملان معه منذ زمن بعيد، وقال إنه كان، ولابد، يغازلها وهي تستجيب لغزله بتلك الابتسامات الناعمة التي رآها على وجهها بنفسه، فلما شرحت له أن البائع، كان يقص عليها حكاية الولد الصغير الذي خدعه، وأعطاه عملة ليبية على أنها مصرية، من فئة العشرة قروش، فابتسمت لشقاوة الولد، وقالت للفوال يعوض ا عليك، لكن الزوج لم يصدقها

وتوعدها بقطع يدها، إن رآها تمتد، مرة أخرى، بأي طبق لبائع الفول، مهما كان الأمر، مفضلاً، بذلك، تحمل مشقة الذهاب إلى مطعم بعيد عن شارعهما لشراء الفول كل صباح.

ثم إنه بعد ذلك امتنع نهائيا عن شراء الملبن بالجوز الذي تحبه حنة، ومنع عنها المصروف الشخصي، باعتبارها زوجة متمردة سادرة في غيها، دونما شفقة أو رحمة، منها تجاهه، فباتت تجد صعوبة في شراء الحلوى الرخيصة، والهدايا الصغيرة التي كانت تشتريها لأحفادها، من ذلك المصروف المقرر لها شهريا، وفي السنتين الأخيرتين اللتين سبقتا قتلها له، بدأ الزوج في عزف نغمة جديدة على حنة تماما، وهي أنه بصدد البحث عن امرأة أخرى بدلاً منها، وأنه سوف يقوم بطردها من البيت.

لم تكن فكرة المرأة الجديدة هي التي أرعبت حنة، رغم ضيقها الشديد منها، ولكن رعبها كان مبعثه فكرة الطرد، لأنها لم تكن تعرف مكانًا آخر يمكنها العيش فيه غير بيتها الذي عاشت بين جدرانه على الحلوة والمرة خمسا وأربعين سنة، ولأنها لا يمكن أن تلجأ لأحد أبنائها للعيش

عنده، فالأكبر منهم، يقيم في شقة صغيرة مكونة من غرفتين ومنافعهما، ولديه ولدان وبنتان، يكفيهم المكان بالكاد، إضافة إلى أمهم، وأبيهم الذي اضطر لتحويل الشرفة الملحقة بغرفة نومه مع زوجته، إلى مكـان لنـوم البنتـين، لأن الحجـرة الأخرى كانت مخصصة لنوم الولدين، أما الأوسـط، فهـو يعيش مع زوجته في إحدى الغرف ببيت أهل هذه الزوجـة، وحياته، باتت جحيما، بسبب تلـك المعيشـة المشـتركة، إذ تتدخل حماته في كل كبيرة وصغيرة، مـن تفاصـيل حيـاة ابنتها، وترصد دوما كل ما يدور بينها وبين زوجهـا الـذي يبذل جهدا كبيرا لئلا تفسد الحماة ما بينـه وبـين امرأتـه، فيضطر لفراقها، أما الصغير فزوجته لا تطاق وهي لا تطيق أهله، كذلك، ثم إنها متكبرة، تعامله باستعلاء، لأنها هي التي حلت مشكلة المسكن، وأنفقت على تأثيـث شـقة الزوجيـة الشطر الأكبر، من النفقات، من مدخراتها الخاصة، بالإضافة إلى إسهامها بشكل رئيسي في دخل الأسرة، بسبب اشـتغالها في فندق سياحي، بينما زوجها ليس إلا مهندسا مغمورا فـي إحدى المصالح الحكومية كل هذه الأسـباب، كانـت تجعـل

إمكانية لجوء حنة إلى أي واحد من أبنائها، وإقامتهـا عنـده ضربا من المستحيل.

في الأسابيع الأخيرة التي سبقت قتل حنة لزوجهـا، باتت شبه مجنونة يلتهمها القلق، فقد أصبح الزوج العجـوز يتغيب كثيرا عن البيت خلافًا لعادته، وعندما يظهر، يحادثها في أضيق الحدود، وبجفاء واضح، كمـا أنـه امتنـع عـن مشاركتها الطعام، أو الجلوس للفرجة على مسلسل السـابعة والربع في التليفزيون، فلم تكن المسألة كما ظنت بحاجة إلى ذكاء كبير، لتستنتج أن زوجها لا بد وأن يكون قـد ارتـبط بامرأة أخرى، وبالتالي، فإن مسألة بقائها في البيت، أصبحت مسألة وقت فقط لا غير لكن الحقيقة أن حنة التي لم تكن قـد درست أبدا نظرية الاحتمالات لأن تعليمها توقف عند السـنة الخامسة الابتدائية، لم تعرف أبدا أن الزوج كان يمضي جل وقته خارج منزله في الفرجة على أفلام جنسية فاضحة، عبر جهاز فيديو، عند صديق تعرف عليه في المقهى، وذلك مقابل خدمات صغيرة، أو هدايا محدودة، كان يقدمها لذلك الصديق.

غير أن الترجيح المطلق لمسألة المرأة الأخرى عند حنة، كان كفيلاً باستعار نار حامية في صـدرها، وتصـاعد

قلق حطم أعصابها، لأن ذلك كان معناه الإلقـاء بهـا فـي الطريق، بمجرد وصول هذه المرأة، إلى البيت لتحل محلها.

في أحد الأيام، وبينما هي تفتش جيوب أحد بناطيلـه لتخليها مما بها، قبل أن تغسله، عثرت على صـورة امـرأة محجبة، لا يتعدى عمرها الأربعين ذات عينين جميلتـين، لا تخلو نظراتهما من جرأة وشقاوة وفـم شـهواني لا يلزمـه الطلاء باللون الأحمر لإحداث المزيد من الإثارة، وبمجرد أن تأملت الصورة، ارتمت منهارة على السـرير، ولـم تنتبـه لدبوس المشبك المفتوح الذي شكها في يدها، وهو واحد مـن دبابيس كثيرة، تجدها عادة في جيوبه، قبل تنظيف ملابسـه، كان يشتريها في الأتوبيسات، من الباعـة الجـائلين الـذين يصعدون إليها، ضمن ما يشتريه منهم، من باغـات لياقـات قمصانه، وأمواس حلاقة، وبلى النفتالين وإبر خياطة، ومطاط لدكك ألبسته الداخلية، وأشياء أخرى عديدة يعود بها إليهـا، باعتباره من هواة الشراء من هؤلاء الباعة دون سـواهم، لا لشيء إلا لاستمتاعه بطريقة نداءهم، لترويج بضائعهم، وهي الطريقة التي تتخللها، أحيانًا، قصص مأساوية مؤثرة يحكونها بسرعة قبل سير الأتوبيس، وكذلك أغنيـات قصـيرة علـى

غرار أشعر الأغنيات التي تبث دون كلـل ولا ملـل، مـن المبنى الضخم الواقع على ضفة النيل، مع تعديل بسيط فيها، وهو أنها أقل تسببا في وجع الدماغ، لقصرها النسبي وعـدم جنوحها للإطالة بحكم ضيق الوقت المتاح لها.

استدعت تلك الواقعة التي هي بمثابة سابقة خطيـرة للزوج، أن تفكر حنة على نحو جدي، فيمـا سـوف تفعلـه لتواجه المصيبة وشيكة الحدوث، لها، فلقد أيقنت تمامـا، أن موضوع المرأة أصبح حقيقة لا شك فيها، لذلك فكرت فـي البداية، أن تقتل نفسها، وتستريح لكن فكرة الانتحار كانـت صعبة التحقيق، بالنسبة لها، لأن روحها صعبت عليها، ثـم لأنها لم تفعل شيئًا آثما تستحق عليه ذلك، لهذا فكـرت فـي ضرورة التخلص من الزوج، إذ ليس أمامها غير ذلك، على أن يتم الأمر دون علم أي إنسان، غيرها، ودون أن يشعر هو بذلك أولاً وقبل كل شيء.

بعد اتخاذها لهذا القرار الخطير، بدت حنـة إنسـانة مرحة، تتصرف مع زوجها بهدوء، وتقابل شتائمه لهـا دون أدنى مبالاة، كما كان يحدث عادة، صحيح أنها ظلـت علـى حالها، لا تسمح له بالاقتراب منها، لكنها كانت تعامله برقـة

الحريص على صحته المهتم بشئونه، خشية أن يكتشف مـا تنوي أن تفعله به.

في إحدى الأمسيات الشتوية البـاردة، قامـت حنـة بوضع وعاء مملوء بالماء على موقد الغاز، بعد أن استمعت جيدا إلى شخيره المستمر الشبيه بنقيق ضفدع، والذي طالمـا تعودته بعد أن ينام، مما أكد لها دخوله فـي سـابع نومـة، وفتحت أنبوبة الغاز عن آخرها، وأحكمـت إغـلاق نوافـذ الشقة، ثم تسللت لتقضي بقية الليل في شرفة الصالة، بعد أن تلحفت ببطانية، سميكة، وجلست مستندة بظهرها إلى البـاب الذي أغلقته، من الخارج، حتى تضـمن ألا يفـتح، فيسـمح بدخول الهواء إلى الشقة، وباتت ليلتها على هذا الوضع حتى طلوع النهار.

لم يصدق البوليس – كما قلنا من قبل – حكاية وفـاة الزوج قضاء وقدرا، متأثرا باستنشاق الغاز حتى الاختنـاق، لأنه عندما وصل إلى الشقة، إثر استدعاء عاجل، من جيران حنة، على ضوء صراخها ولطمها، كانت هي بصحة جيـدة، ولا تعاني من أية أعراض للاختنـاق كالإعيـاء وضـعف التنفس، بل وكانت تبدو متماسكة ولم يلحظ رجال البـوليس

عليها سوى أنها كانت تكح كحة متقطعة، لسـبب لـم يكـن واضحا لهم، بالطبع، وهو أنها باتت طوال تلك الليلة الباردة في الهواء الطلق، لكنها كانت أيضا، تبكـي بكـاء صـادقًا، لشعورها بالحزن، بعد أن فقدت رفيق عشرة لخمسة وأربعين سنة بالتمام والكمال، ولما واجهتها النيابة، بعـد ذلـك فـي التحقيق الذي أجرته معها بالمفارقة المتمثلـة فـي حالتهـا الصحية السليمة واختناق زوجها، رغم وجودها في الوقـت ذاته، بالبيت أثناء وقوع الحادث ادعت حنة أنها نامت ليلتهـا في الصالة التي تبعد عن المطبخ، لأن الزوج الميت، كانـت تزعجه كحتها المستمرة، وكاد البـوليس أن يصـدق هـذه الحكاية، لولا اكتشاف النيابة المعاينة للحادث لخطـأ سـاذج ارتكبته حنة وهو تركها مفتاحي شعلتين من شعلات الغـاز مفتوحين بدلاً من مفتاح شعلة واحدة كان موضوعا فوقها قدر الماء، لأنها على ما يبدو كانت متلهفة على تسـريب الغـاز بأكبر كمية ممكنة بحيث تكفي للموت في أقل وقت، خشية أن يفيق الزوج، وينتبه، لرائحة الغاز المنتشرة في البيت.

كان من السهل بعد ذلك توجيه تهمة القتـل العمـد لحنة، لوجود أدلة أخرى عديدة، على ذلك، لم تكـن مفـاتيح

الغاز إلا مفتاحا بسيطًا لها، لكن حنة، ظلت طـوال الوقـت مصرة على أقوالها التي أدلت بها أول مرة، لا تحيد عنهـا، رغم تضييق الخناق عليها بالأسئلة، والطريف أنها كانت تبدو وكأنها مصدقة تماما لروايتها، بـل وتغضـب بشـدة كلمـا واجهتها النيابة بتهمة القتل، وكأنها تتبلى عليها بشـيء لـم تفعله قط، وهكذا ظلت طوال فترة التحقيق معها، ومحاكمتها في حالة شديدة من الضيق لشعورها بظلم صـارخ، واقـع عليها، ولغيظها من النيابة التي ظل ممثلها، أثناء ذلك، يعيـد ويزيد في التهم التي كالها لها، مصورا إياها على أنها وحش بشري عجوز افترس ولي نعمته وأقرب الناس إليه، مخالفًـا بذلك كل النواميس الأخلاقية، والشرائع السـماوية المقدسـة التي تنص عليها كافة الأديان.

لكن حنة بمجرد صدور الحكم، شعرت بارتياح مـن ألقى حملاً كان يثقل ظهره، وأخذت من خلف القضبان تهدئ روع أبناءها الذين شرعوا في البكاء مطمئنـة إيـاهم بأنهـا سوف تكون بخير، بل وأخذت توصيهم على الأشـياء التـي يجب أن يوافوها بها، عند زيارتهم لها في السـجن، ومـن

ضمنها ملبن محشو بالجوز، وإبرة كيروشيه معقوفة الطرف، وخيوط قطنية من ذلك النوع المستخدم في التنجيد.

كانت اللحظة السعيدة الحقيقية التي شعرت بها حنـة منذ مقتل زوجها، هي لحظة استقرارها في عنبر الضعفاء مع عجائز أخريات أصابهن الضعف والوهن، فلقد اطمأنت إلـى أن هناك مأوى يؤويها في أمان، خلال البقية الباقية من أيامها في الدنيا، لأنها كانت ترجح الموت، علـى الحيـاة، خـلال السنين العشر التي حكم أن تقضيها في هذا المكان لكن ذلـك لم يمنعها من الحلم بحياة أفضل إذا ما عاشت بعد انتهاء مدة السجن، فكانت تراودها أحلام يقظة بأن تعيد تنظـيم أثـاث الشقة وفقا لذوقها ورغبتها خلافًا لما كانت قد تركته عليه من وضع وترتيب وفقًا لذوق زوجها، كمـا أنهـا فكـرت فـي ضرورة تأجير الحجرة التي مات فيها مفروشة، باعتبارهـا أوسع حجرات البيت، لطالبة أو اثنتين، من اللاتي يأتين مـن الأقاليم للدراسة في الجامعة، كما تفعل جارتها التي تسكن في الطابق السفلي بالعمارة، ثم إنها ستأكل كما تشاء وفقًا لذوقها وخيارها في الطعام، بل وستعود من جديد إلى طبخ السبانخ التي توقفت عن طبخها لأن زوجها منع من أكلهـا بسـبب

الالتهاب الكلوي الخفيف الذي يعاني منه، الأكثر من ذلك، هو أنها سوف تشتري لحافًا جديدا، بدلاً من ذلك القديم المهترئ الذي يعود تاريخه إلى زمن الزواج القديم، ذلك اللحاف الذي ترجت الزوج مرارا أن يعيد تنجيده وتجديد كسوته دون جدوى.

أثناء ذلك، كانت عزيزة تضع خطة أخرى لجنة، خطة أجمل وأعظم من خططها الدنيوية الصغيرة، فهي ستصحبها معها إلى السماء، ستضمها إلى العربة الذهبية ذات الأفراس البيضاء السحرية المجنحة التي ستطير وتعلو، بينما تعزف لها آلهة الموسيقى والطرب، ألحانًا كتلك الألحان التي سمعتها ذات يوم بعيد تعزفها فرقة الجيش الموسيقية بمدينتها، وهزت أعطافها، وعندما تصبح العربة وسط السحاب، وتتهادى على صفحات الأثير، سوف تنسى جنة السبانخ واللحاف والزوج الذي قتلها ألف مرة طوال خمس وأربعين سنة، ولم تقتله إلا مرة واحدة، وستعرف وقتها كم تحبها عزيزة وتقدرها، وتسعى لأن تجعلها تحظى بكل سعادة، وتكريم يليق بها وتستحقه، باعتبارها واحدة من أولئك المظلومات بسجن النساء، بل الأكثر أنها سوف تجلسها إلى

جوار عظيمة الطويلة التي هي أنبل وأجمل امـرأة عرفتهـا عزيزة طوال فترة إقامتها في هذا السجن.

وللوهلة الأولى، تحدث لأي إنسان تقع عينـاه علـى عظيمة الطويلة صدمة مفاجئة نظرا لغرابة منظرها، حتى أن مأمور سجن النساء ارتبك عندما رآها للمرة الأولى، بينمـا كان يستلمها لتصبح إحدى نزيلات السجن المسئول عنه، بل إنه خرج عن تحفظه الوظيفي وراح يسألها عن سر طولهـا الغريب.

وبالطبع لم تجب عظيمة إجابة شافية، لأنها لم تعرف أبدا سر طولها، فهي طفرة طولية بين النسـاء، إذ تجـاوز طولها المترين، متجاوزة لقامة أبيها بمقدار ربع المتر، رغم أنه كان يعتبر طويلاً بين الناس.

كانت عظيمة، حتى الثانية عشر من عمرهـا طفلـة عادية، تبدو طويلة من الشيء بالنسبة لأقرانها من البنـات، لكن طولها لم يكن ملحوظا إلى حد قلق أهلها الـذين كـانوا يعدونها للزواج، مثل بقية أخواتها اللواتي تـزوجن، كفتـاة عادية الشكل، سوف تجد رجـلاً يقبـل عليهـا، ذات يـوم، يتزوجها، وقد تأكدت هذه الحقيقة بعد أن فشلت عظيمة فـي

الحصول على مادة إتمام الدراسة الابتدائية، مثل معظم تلاميذ تلك المرحلة، بسبب الفشـل المـزمن للسياسـة التعليميـة، وأصبحت متفرغة تماما لإتمام تعلم الشئون المنزلية، والمهام التي يتطلبها الزواج.

لكن مشكلة عظيمة بدأت في الظهور بعد ذلك بقليل، إذ أخذ جسدها يمدد تمددا رأسيا على نحو مـذهل السـرعة، وبشكل واضح ساعد على وضـوحه نحافتهـا الملحوظـة، وغياب التناسق بين أعضائها، إذ كان نصفها الأسفل طويلاً، ممتدا، يتناقض مع قصر نصفها الأعلـى وطـول رقبتهـا المنتهية برأس صغير ذي عينين واسعتين لا تخلـوان مـن جحوظ، حتى أن الناظر إليها يظن أنها كانت فـي الأصـل مشروع زرافة ضلت طريقها لتصبح من النـوع البشـري، وعندما بلغ عمرها السادسة عشرة، كان طولها قد وصل إلى حد تبدو معه أطول من أي إنسان موجود بالمكان الذي هـي فيه، بفارق كبير، مما أدى إلى تعرضها لكميات هائلـة مـن السخرية، سواء وهي سائرة في الطريـق، أو حتـى داخـل البيت، فباتت تعاني معاناة نفسية فظيعة، لا بد أن تعانيها فتاة في عمر المراهقة، إذا ما تعرضت لذلك، لأن هاجسها فـي

عمر كهذا، أن تكون محبوبة مقبولة من الناس عموما والجنس الآخر خصوصا، وقد وصلت تلك المرارة النفسية بها إلى حد الإقدام على محاولة انتحار، فشلت، لأنها عندما ألقت بنفسها من شرفة بيت أهلها الواقع في الدور الرابع، بإحدى العمارات سقطت بالصدفة على عربة إسمنت كانت تعبر الطريق، فلم يصبها سوى كسر أحد قواطعها الأمامية، لأنه اصطدم بجانب من الجوانب الحديدية للسيارة التي مضت بها حتى نهاية الشارع، وظل ذلك الكسر تذكارا، أبديا صغيرا، شاهدا على ذلك الحادث البسيط.

وإذا كانت تلك الواقعة لم تترك بصماتها، بما يكفي، على حياة عظيمة، فإن واقعة أخرى حولت مجرى حياتها تحويلاً كاملاً، فبعد ذلك بشهور قليلة، مات عم لها في ريعان شبابه، ميتة مأساوية، اهتزت لها مشاعر كل من سمع تفاصيلها، إذ أنه بعد أن أنقذ أمه وأباه، وشقيقاته الثلاث من موت محقق، بعدما بدأ المنزل الذي يقطنون فيه بالانهيار، بشكل مفاجئ، أثناء الليل، توسلت إليه جارة لهم، أن ينقذ أمها المشلولة، من الموت، فسارع الشاب بحمل العجوز التي كانت قد زحفت حتى وصلت إلى إحدى الشرفات، وألقى بها

إلى الحشد المنتظر ليتلقفها منه أسفل المبنـى، لكـن قطعـة ضخمة من الحجر سقطت، فور وصول العجوز سالمة، على رأس الشاب فحطمته، على الفور تماما.

عندئذ شهد الحي الذي جرت فيه الواقعة، مأتما لذلك الشاب الشهيد، لم يحدث مثله منذ أيام مـأتم شـهداء ثـورة ١٩١٩، حيث تشارك الناس في نصب أكبر شـادر عـزاء ممكن، وجلبوا أفضل مقرئ للقرآن تصل إليه فلوسهم، لتلاوة ما تيسر من آي الذكر الحكيم، بعد أن شيعته حشود كبيـرة، حتى مقره الأبدي في مشهد مهيب شارك فيه طوب الأرض، وأدى إلى تعطيل المرور في شارع محمد علي المتجه إلـى القلعة لمدة نصف ساعة، زادت إلى ساعتين، بعد ذلك، رغم انتهاء مرور الجنازة، لأن السيارات كانت قد زحفـت علـى شريط الترام القديم، بينما كان العسـكري المـنظم للمـرور مشغولاً بتناول شقتي رغيف بطعمية، لأنه ظل علـى لحـم بطنه، ولم يذق طعاما منذ بداية اليوم، حتى الظهـر، وقـت مرور الجنازة.

بعد تشييع الجنازة، كانت النساء قد تجمعن في ساحة صغيرة، أمام بيت الأسرة المنكوبة الجديد الذي لم يكـن إلا

بيت أهل عظيمة، حيث سالت دموع تكفي لغسل ميت آخـر غير الفقيد، ولفرط التأثر والانفعال، سقطت عدة نساء - كن قد بذلن جهدا جبارا في الصراخ واللطم - في حالة إغمـاء، وكانت منهن أم المتوفى، وخطيبتـه خائبـة الرجـاء التـي شاركت تلك التي لم تصر حماتها في التعبير عن الألم.

عندئذ، تفتقت مواهب عظيمة، على نحو لم يحـدث من قبل، عن شاعرة ندابة، قادرة على قول كلمـات رثـاء بليغة، شديدة التأثير في النفوس، عبر صور حافلة بالجنـاس والطباق والتشبيه والاستعارة، وكل ألوان البـديع الأخـرى، مستندة في ذلك، إلى خيال جامح، اكتشفت وجـوده آنـذاك، ونفس شعري طويل، مشابه لطولها الجسدي، وقد ساعدها في ذلك، إضافة إلى الدور البطولي للفقيد، أنه كان على جانـب غير قليل من الوسامة، أتاح لها التغزل في محاسنه الجسدية التي لم ينقض على مواراتها الرديم إلا وقت قصير، مما زاد شعور خطيبته بفداحة مصابها في الفقيد الذي قد لا توفق في الارتباط بمثله، مرة أخرى.

منذ ذلك اليوم، باتت عظيمة هي الندابة المعتمدة في الحي، وامتد نشاطها، بمرور الوقت، إلى الأحياء المجـاورة

الأخرى فصارت تقصد، عند حدوث أية نازلة تلم بعائلة من العائلات. عبر ذلك، اكتشفت عظيمة طريقها في الحياة، وهو الطريق الذي جعلها قادرة على التكيف مع محيط كان قبـل ذلك يعرضها دائما لأبشع الآلام النفسية التي يمكن أن تعيشها فتاة، بسبب السخرية الدائمة منها ومن طولها الذي لا يتلاءم مع معايير الأنوثة التي وضعت منذ أزمان بعيدة، المتطلبـة لتوافق طول المرأة مع وظيفتها المقررة لها، كمطية للمتعـة الذكورية، ووسيلة لإنتاج النوع البشري.

لذلك، تضاءل الهاجس الذي طالمـا أرق عظيمـة، والذي أيقن أهلها باستحالة تحققه، على أرض الواقع، وهـو هاجس الارتباط - عبر الزواج - بكائن من الجنس الآخـر، وقررت أن تهب حياتها لدنيا الندب التي وجدت تحققها الكبير فيها، وباتت، ذات حيثية في محيطها الاجتماعي من خلالها، وكان ذلك يتطلب، بالضرورة، أن تبدو عظيمة في مظهـر، وقور يليق بهذه المهمة الحزينة، يختلف عمـا كـان عليـه مظهرها، قبل ذلك، فصارت حريصة على ارتداء الملابـس السوداء الطويلة، عند الخروج، وكان ذلك ملائما لهـا، مـن أجل إخفاء ساقيها العظميتين عن النظر، كما أنها صارت لا

تظهر في أي مكان بدون طرحة، من الشيفون الخفيف، على رأسها، تقمطها بقماط أسود من الحرير الصـناعي الشـيء الوحيد الذي ظلت عظيمة تحافظ عليه من زينة النساء هـو الكحل الأسود الذي تضعه في عينيها بمجرد أن تفيـق فـي الصباح، وتغسل وجهها، والذي لم يمنح عينيها غير المزيـد من الاتساع والحزن، مما يجعلها تبدو وكأنها امرأة لم تخلق إلا للهم والأسى.

بمرور الوقت، اكتسبت عظيمة خبرات فائقـة فـي مجالها، فقد باتت تختار المراثي الملائمة لحالة كـل فقيـد، يحرص أهلها على رثائه، بحيث تتماشى مع سنه وملابسات موته، وصفاته الجسدية، فإذا كان طويلاً عريضا يسد الباب، كأنور وجدي في أفلام الأربعينات والخمسينات، فإنها تقول: طول بعرض، تحضنه الأرض، وإذا كان نحيلاً رقيقًا تقول: عصفور محني، خطفه الموت مني، وكانت تبدع وتتـألق إذا كان الميت شابا، أو فتاة جميلة لم تفقد عذريتها، بعلم الدولـة في سجلات الزواج الرسمية، فتجعل قلوب السامعين تتفجـر بالأسى والحزن، وقد وصلت شدة تأثيرهـا عبـر الكلمـات المنظومة، وقدرتها على التشبيب الحزين، إلى حد تعرضها،

أحيانًا، لمشاكل من أقارب الميت، أنفسهم، ففي إحدى المرات هددها شقيق أحد المرثيين بالضرب، إن لم تكف عن الندب، وتغادر المكان فورا، لأن أمه فاجأتها أزمة قلبية حادة لشـدة انفعالها، وفرط حزنها، على ابنها المتوفى، وهو الحزن الذي كانت تؤجج ناره المرثية الرجزية المطولـة التـي أتقنـت عظيمة إلقاءها في مأتم ذكراه السنوية الأولى.

بالإضافة لذلك، واستكمالاً لإجادة دورها الذي باتـت تتلقى عليه أجرا، ويدر دخلاً كافيا لمواجهة متطلبات الحياة، أخذت عظيمة تطالع بعض المواعظ، والخطب الدينية، لتلقيها في المآتم، وحفظت حفظًا متقنًا لا يشوبه لحن سورة الرحمن، إلى جانب بعض قصار السور التي كانت قد ترسـبت فـي ذاكرتها منذ أيام المدرسة الابتدائية، فأصبحت تتلوها بصوت حرصت أن يكون رخيما، قدر مستطاع حنجرتها التي لم تكن تلبي متطلبات عملها كقريحتها المتوقدة، أمـا فـي فتـرات الاستراحة، حيث كانت تلين صوتها باليانسون أو الجنزبيـل الذي يقدمه لها أهل المتوفى، أو عند الجلوس لطاولة الغـداء لالتهام اللحم المسلوق والثريد، فإنها كانـت تقـوم بتفسـير الأحلام على ضوء منهج ابن سيرين، بتصرف كبير، إذ كان

خيالها يمدها بحلول سعيدة، ترضي صاحبة الحلـم وتشـرح صدرها.

لم يشكل انتشـار ورواج عـادة اسـتخدام شـرائط الكاسيت المسجلة عليها سور بأصوات كبار ومشاهير مقرئي القرآن المعتمدين من الأزهر والإذاعة أية مشـكلة لعظيمـة التي لم تجد في ذلك منافسة حقيقية تخشى منها كساد عملها، ولم تخش تأثير الجماعات الإسـلامية التـي تحـرم نـدب المتوفى، ورثاءه، لأنهما يتنافيان وتعـاليم الـدين الحنيـف، فالإقبال عليها كان يتزايد مع مرور الأيام، لسبب لم تعرفـه، أبدا، كان يعود إلى كونها تلقي بنوع من النظم يلبـي حاجـة مفتقدة عند الناس، بسبب كلمات الأغاني السخيفة التي يفتعلها شعراء العامية، والمفروضة عليهم ليل نهـار فـي أجهـزة الإذاعة والتليفزيون، وتلك الأشعار الغامضة التي تنشر فـي الصحف والمجلات، بين الحين والحين ولا تعبر عـن أيـة قضية تخصهم أو تخاطب مشاعرهم، ويكتبها شعراء يصفون أنفسهم بالحداثة، أو آخرون عفا الزمن عليهم، يصرون على ضلفتين من الشعر ينسجون بهما، نسيجا اهتـرأت خيوطـه، على غرار قدماء الشعراء، حيث الفروسية لم تعد موجـودة،

لأن الناس لم يعودوا يتعاملون مع الأفراس في حياتهم اليومية الصعبة التي غابت عنها كل ملامح النبالـة الأخلاقيـة فـي خضم الصراع الشرس من أجل البقاء.

بعد ذلك بسنوات، حيث تنصبت بين النـاس كندابـة بارعة معترف بها، لا يرقى إلى مسـتواها وحـذقها شـك، سلكت عظيمة طريقًا أخرى، إضافية، أضافت رصيدا جديدا، إلى رصيدها المالي الذي كانت تؤثر الاحتفاظ به في يـديها وعلى جيدها وصدرها، على هيئة حلي ذهبيـة، بـدلاً مـن وضعه في بنك من البنوك، فأخذت تشـارك فـي الموالـد والاحتفالات الدينية، بمواويل ومدائح دينية، لاقـت ذيوعـا وانتشارا، مستفيدة بذلك من إنجازات العلم الحديث الذي ابتكر جهاز الميكروفون القادر على منح الأصوات الضعيفة قـوة، سحرية، مبهرة، لأن عظيمة لم تتمتع بصوت متميز قط، لكن بما أن كل من هب ودب بات يغني، ليس في الموالد فقـط، ولكن في الإذاعة والتليفزيون وشرائط الكاسـيت المنتشـرة، انتشار النار في الهشيم، من أعلى نقطة بشمال البلاد، حتـى أسفل نقطة في جنوبها، فإن عظيمة دخلت حلبة الغناء، مـن أعظم أبوابها في نظر الجماهير العريضة، من محبي الغناء،

وهو باب الموال الديني الذي تفننت في نظم كلماته، وبذلت جهدا صادقًا، ليخرج صوتها المدعم بالقوة الكهربية، قويا رخيما بقدر المستطاع، مستفيدة بذلك من البحة التاريخية المكتسبة بفضل سنوات طويلة من الندب، وهي البحة التي طالما حظيت بإعجاب الجموع التي كانت تحتشد للاستماع إليها في الموالد، والتي تجعلها جرعات، لا بأس بها من أنواع المخدرات المختلفة، تغالي في تثمين ذلك الصوت، ذي البحة الحزينة المغازلة للشعور الكامن في أعماق الوجدان، بالانكسار والقهر وانقطاع الرجاء باعتبارها قدرا أبديا، لأسباب سماوية ربانية، لا تمت بصلة للبؤس المقيم الذي تعيش فيه تلك الجموع.

لم تمض سنوات أخرى، إلا وكان لعظيمة فرقة موسيقية خاصة، تصاحبها في إحياء ليالي الموالد القاهرية الشهيرة، كمولد الحسين، ومولد السيدة زينب وكذلك مولد السيد البدوي في مدينة طنطا، ونظرا لتزايد انتشارها الغنائي، فقد باتت تلبي حاجة سامعيها ومحبي فنها، باعتبارها مطربة الموال الأولى، فتطبع مواويلها على شرائط مسجلة يحمل غلافها صورتها وهي تبتسم ابتسامة عريضة، لا تظهر

على نحو الدقة الأضراس الذهبية الثلاث التي في فمها، وقد كتب فوقها اسمها وتحتها مطربة الموال الأولى، وهو اللقـب الذي منحته لنفسها على غرار الألقاب التي باتت شائعة فـي كل المجالات، لتضفي على أصحابها صفة التميز والتفـوق، وقد حظيت عظيمة بإقبال جماهيري من خلال هذه الشرائط، بسبب جنوحها فيها، إلى وصفية دنيوية واضـحة لحـالات العشق والغزل في شعرها، وهو جنوح تغطى بغطاء دينـي، متخذًا شكل المديح في صاحب البيت النبوي الشريف وأهلـه الكرام، سائرة بذلك علـى درب كـل المـداحين الشـعبيين السائرين على درب جهابذة الصوفية، وعظمائها في القرون الوسطى، وقد أجادت عظيمة في هذا الجانب، إجادة حاذقـة، بعد أن طعمت مواويلها بمقتطفات لم تخل من تصرف منها، من أشعار كبار أهل التصوف كابن الفارض الـذي طالمـا صعدت إلى جامعه بجبل المقطم، للـدعاء والتبـرك، وابـن عربي، وذي النون المصري، وغيرهم من أهـل الطريـق الواصلين، هذه الأشعار، كانت عظيمة تحصل عليها مطبوعة طبعات شعبية رخيصة من باعة الكتـب المنتشـرين علـى أرصفة ميدان الحسين أو السيدة زينب.

استدعى المجال الفني لعظيمة، أن تستبدل ملابس المآتم السوداء التي طالما ارتدتها في الماضي، بأثواب ملونة حريرية طويلة، مشغولة بالخرز والترتر، من باب الأناقة، وطرحة تتناسب ولون الثوب الذي ترتديه معها، ومع قماط الرأس الموشى، بخيوط ذهبية أو فضية، حسب الأموال، ثم إنها اكتشفت أن الكحل الحجري الأزرق الشائع بين فلاحات الدلتا، يلائم عينيها، على نحو أفضل من ذلك النوع الأسود المصنوع من هباب قطنة، مشتعلة، بعد غمسها في الزيت، وقد كان ذلك كله لأجل جمهورها الحبيب الذي حرصت على أن يطالعها وهي في أجمل صورة ممكنة، بالنسبة لإمكانياتها المحدودة في هذا الجانب، وهو الجمهور الذي أصبحت تتخلى عن الندب، تدريجيا، ليس لأجله فقط، ولكن لأنها اغتمت طوال سنوات شبابها بما يكفي، وباتت لا تذهب إلى المآتم، إلا في حالات نادرة للغاية، يكون فيها العائد المالي مجزيا، يستحق عناء النكد والغم.

غير أن حادثًا ثالثًا، تلاعب بسيرة حياة عظيمة الطويلة، وهو الحادث الذي لو لم يقع، لاختلف مصيرها تماما، إذ كان من المحتمل، أن يكتشف مواهبها، فنان عاشق

للفن الشعبي، كزكريا الحجاوي، أو أن تنضم إلى أولئك المطربين الشعبيين الذين تجلبهم الثقافة الجماهيرية، وتضعهم على المسارح كالفجل بطينه، ليستريح ضمير الدولة، من ناحية الاهتمام بالثقافة الشعبية ورعايتها.

ولم يكن ذلك الحادث من الحوادث البسيطة العابرة في حياة شاعرة موهوبة، مرهفة، مأساتها أنها لم تأت في زمن كالزمن الذي جاءت فيه المغنية "سافو" لكن مواهبها تفتقت في زمن يضع الثقافة في نهاية جدول أعماله، لا لشيء إلا لكي لا تغيب عن قاموسه اللغوي، فبعد أن بلغت عظيمة الأربعين وقعت فيما لم تقع فيه من قبل أبدا، إذ دخلت في شباك الهوى والعشق، كحمامة بريئة تتعلم الطيران لأول مرة فأوقع بها صياد ماهر، لم يكن إلا أحد أفراد فرقتها الموسيقية، مما بدل حالها، وأمد روحها بقصائد عشق مجنونة، جن بها الناس، كانت موجهة لسيدنا الحسين دون سواه من أهل البيت النبوي الشريف لأن حبيب الغفلة كان اسمه حسين أيضا، وهو ناياتي غير بارع العزف، انضم إلى فرقتها عن طريق عازف الربابة الأول في الفرقة نفسها، والذي كانت قدماه قد حفيتا بحثًا عن ناياتي جيد المستوى،

دون جدوى، لأن معظم الآلاتية باتوا يفضلون العمل في فرق شارع الهرم، والملاهي الليلية بالمدينة، دون الانضمام إلـى الفرق الشعبية المرتبط عملها بمواسم الموالد والأعياد.

وكان ذلك الحسين من أولئك الذين يعرفـون كيـف يضعون أيديهم على كتف المرأة، فبعد أن تفحص بنظراتـه جسد عظيمة، موقنًا أن به ما لا يستحق التقدير سوى الذهب الوفير المستريح، على ذراعيها، وحول جيدها، وفي أذنيهـا، أخذ يرميها بنظرات الغرام والوله، بعد أن سـاعدته خبرتـه الطويلة في الغرام والعشق، على اكتشاف حاجتها الحقيقيـة إلى رجل ليس فقط كجسد ظامئ بحاجة إلى الارتواء، ولكن كروح شاعرة تنشد العشق والجمال.

أمد العشق عظيمة بطاقات أخرى، تفجـرت لـيس بروحها فقط بل بجسدها أيضا، فأخذ في الامتلاء، لأول مرة طوال تاريخها، صحيح أنها باتت تشبه ساترا مـن السـواتر الطوبية التي كان يجري بناؤها، أمام مداخل البنايات، أثنـاء كل حرب من الحروب التي خاضها جيشنا ضـد إسـرائيل، لكن شكلها على أية حال، بدا أفضل، بعد أن استدار وجههـا الذي امتلأ باللحم، فاندس أنفها الممطـوط، داخلـه، وباتـت

تعيش، كحقيقة واقعة، حلم عمرهـا المسـتحيل: أن تسـمع كلمات حب رقيقة، من رجل في هذه الدنيا، فأغدقت عظيمـة على عاشقها كل ما يمكن أن تغدقه امرأة متفانية في عشـقها لرجل، ابتداء من حر مالها الذي جلبته بفنها، وجمعتـه مـن جيوب عشاقها، ومحبيها، من فلاحي القـرى البعيـدة فـي الريف، وفقراء المدينة الذين كانوا يحجون إليهـا، طـالبين طربها، وانتهاء بجسدها الضخم محدود الخير الأنثوي.

لم تمض فترة إلا وكان الناياتي، سيد روحها، وسـيد فرقتها الموسيقية أيضا، بعد أن تقهقر عازف الربابـة الأول إلى الموقع الثاني، وأصبح العشيق الذي كان يعـرف جيـدا كيف يركب الموجة، آخر الأمر، مديرا لأعمالها، والمـتحكم في كل مسألة تتعلق بحياتها، والآمر الناهي صاحب الكلمـة النافذة عليها.

كانت عظيمة تضع عشقها في كفة، وكل ذلـك فـي الكفة الأخرى، فكانت مستعدة لبذل المزيد من مالها وروحها، وكل ما ملكت يدها في هذه الدنيا، لهذا الجيـب الـذي جـاد الزمان عليها به، شريطة أن يتزوجها زواجا شرعيا، فتكون علاقتهما في النور بالحلال الذي تتمنـى أن تكـون ذريتهـا

الممكنة، من هذا الرجل – اللقية، به أيضا، فلما صـارحته، دون أية مواربة، أو لف أو دوران في الكلام، برغبتها فـي الزواج منه بسرعة الأمر الذي لن يكلفه أي شيء، وكانـت تظن أنه منتهى أمله وسعادته، وكمال مراده، فوجئت بتهربه من إجابة مطلبها، لأنها لم تدرك أبدا، أن النایاتي العليم بخبايا وبواطن قلوب النساء كان يرى أن أفضل طريقة للاحتفـاظ بقلب المرأة هي ألا يتزوج المرء منها أبـدا، وقـد رفـض عرضها للزواج الذي لم يكن مفاجأة بالنسبة له على أية حال، فلقد توقع حدوثه يوما، وتلقاه بمنتهى الهدوء، بينما كان جالسا إلى جانبها على الكنبة الوثيرة في صالة منزلهـا، يـدخنان تدخينهما الصباحي المعتاد للنرجيلة ويشـربان قهـوة بعـد الفطور، فقال لها وهو يتحسس أصابعها الطويلـة المنتهيـة بأظافر مشذبة، ومطلية بلون أحمر فاقع، أنه يحبهـا حبـا لا حدود له، ويعشق كل جزء من أجـزاء جسـدها الجميـل، وخصوصا رقبتها الطويلة الملفوفة البيضاء وكأنها كوز مـن الفضة، لكنه لا يمكن أن يتزوجها أبدا، وهو على ما هو عليه من حال، إذ أنه يعمل عندها كأجير، لا طاقة له على تحمـل تكلفة الزواج، ومواجهة الإنفاق عليها، وعلى بيت الزوجية،

لذلك فهو يفضل تأجيل الزواج، حتى تتحسن ظروفه المالية، ويكون جديرا بالتجرؤ على طلـب يـدها، علـى سـنة ا ورسوله، ويتزوجها على رءوس الأشهاد.

عند هذا الحد من الكلام، تأثرت عظيمة جدا، وخفق قلبها بشدة، إذ كانت ترى أنه صادق في كل كلمة قالها لهـا، لأنه كان في هذه اللحظات، يضع عينيه في عينيها، ويـذيب مشاعرها بنظراته المتأججة بنار الحب التي أججت نار قلبها أكثر فأكثر، لذلك وافقت على ما قاله، ثم اقترحت عليـه، أن تبيع مصحفًا ذهبيا كبيرا، وزنه حـوالي أونصـة وسـوارا مشغولاً، كانت قد اشترته، من عدة أعوام، بحـوالي خمسـة آلاف من الجنيهات، ربما يصل ثمنه، عند البيع إلى ما يزيد على ذلك بألفين من الجنيهات، وأن تعطيه حصـيلة ذلـك، ليخطبها، ويقدمها لها كمقدم الصداق عند عقد القران، لكـن الناياتي الذي كان يتأمل وجهها وهي تتكلم، ويتفحص فمهـا، وأضراسها الذهبية اللامعة، كلما تمكن من ذلك لم يقـع فـي الفك المفترس ، ولا بات مزنوقًا في خانة اليك، إذ أقسم با العظيم، ثلاثًا، ودعاه وهو يرفع يديه بالـدعاء، أن يحرقـه بالنار، ويحوله إلى مثل جمرات النرجيلة المشتعلة أمامهمـا،

إن هو مد يده وأخذ منها الفلوس، أو أقدم على أيـة خطـوة للزواج منها، لا تكون بفلوسه المجلوبة مـن عـرق جبينـه المتصبب من كثرة النفخ في الناي بالطبع.

لم تستطع عظيمة ابتلاع الحجـج الواهيـة للعشـيق المداهن بسهولة، لأنها كانت غير مقبولة شكلاً ولا مضمونًا، إذ أنه كان يغترف حتى هذه اللحظات من أموالها كيفما شاء، ويقبل، بكل الرضا، ما تقدمه له، ليكون رجلاً ملء هدومـه، ابتداء من الجنيهات النقدية التي تدسها في يده، بـين الحـين والحين، وانتهاء بسيارة المرسيدس الخاصة بها الموضـوعة تحت تصرفه، وقتما يشاء، ومن الناحية العملية، لن يتحقق ما تذرع به من حجج أبدا، لأنه لو ظل مائة سنة، وباض كمـا تبيض الدجاجة في القفص، فإنه لن يستطيع جمع المال اللازم للزواج منها، فهو لا يملك شروى نقير.

لذلك وجعتها كرامتها، وآثرت الانسحاب من العلاقة التي لم يكن من الممكن استمرارها في الحرام، بالنسبة لهـا أبدا، خصوصا أن رائحتها بدأت تفوح، وتلفت الأنظار إليهـا واكتفت بإيصاد باب قلبها بالضبة والمفتـاح علـى عشـقها الكبير، ليبقى بداخله، كشجرة يانعة للذكرى، ولأيام غـرام،

جميل، عبرت حياتها كحلم أفاقت منه، سريعا، دون اكتمـال تفاصيله السعيدة، لكن الناياتي لم يقبل بانقطاع ما اتصل بينه وبينها، لذلك راح يبتز مشاعرها من جديـد، بالمزيـد مـن كلمات الهوى، ونظرات الهيام التي تذيب مشاعرها، وتلـين عواطفها التي حرصت أن تكون جافة جامدة أمامه، وكانـت عظيمة، عظيمة في تشددها وحسمها معه ، إذ جعلت الزواج الرسمي، هو شرطها الأول والأخيـر لاسـتمرار العلاقـة، ورفضت عرضه الجديد الذي تقدم به، بعد القطيعة بينهمـا، للزواج العرفي بها، مما لا يرتب أية التزامات قانونية مـن ناحيته لها، محافظة على تشددها، وإصرارها علـى أنـه لا مساس بقضية الشرعية الزواجية، على عكس الحكومة التـي طالما أعلنت أنه لا مسـاس بالـدعم الاقتصـادي للفقـراء وواظبت على مسه مسا خفيفًا، وثقيلاً، وصل إلى حد ضرب عرض الحائط، بكل ما أعلنته بخصوص ذلك، بل إن عظيمة قلصت علاقتها بالناياتي إلى أضيق الحدود التي لم تكـن إلا حدود العمل في الفرقة الموسيقية، لأنها لم تسـتطيع طـرده والتخلي عنه، بسبب النقص في العازفين الذي كان ما يـزال مستمرا في سوق الموسيقى، وقد استطاعت مواجهة الضغوط

العاطفية للحبيب الغادر، والإشاحة بوجهها عنـه، رغـم أن قلبها كان بحاجة، آنذاك، إلى عشر أغنيات من أغاني فريـد الأطرش المسيلة للدموع، لتندب غرامها المقطوع، وحظهـا العاثر في دنيا الهوى، ولما لم يجد العاشق الحريـف، حـلاً سلميا، ومل حالة اللاسلم واللاحرب، بدأ بالكشف عن وجهه القبيح، وأخذ يشن عليها حرب تشهير واسعة النطاق، تتعلـق بتفاصيل علاقته بها، بأسلوب غاية في الخبث، ينحـو إلـى التلميح، دون التصريح، وإبراز أطراف من خيوطها، لينشغل الناس بها، ويضيفون من عنـديات خيـالهم إليهـا، وكـان يستهدف من ذلك أن ترضخ عظيمة له من جديد، لـتلم مـا بعثره من تفاصيل غرامها، ولتجعله يسكت عـن التشـهير، ويكفي على الخبر ماجورا.

اعتبرت عظيمة هذا الأسلوب أسـلوبا متوحشًـا، لا يليق إلا بضبع من الضباع لا يتورع عن نهش لحم فريسـة ميتة إذ أنها اعتبرت نفسها كذلك بعد انقطاع أملهـا فيـه.. واستشاطت غيظًا وغضبا، شاركها فيه عازف الربابة الأول في فرقتها الذي كان صديقها الصدوق، وذراعها اليمنى فـي تصريف أمورها الفنية، والشخصية، حتى بعد وقوعها فـي

الغرام، لأنه كان يؤمن بها إيمانًا مطلقًـا، كأفضـل مطربـة شعبية تقول الموال في زمانها، بعد أن مـات سـيد المـوال محمد عبد المطلب، ولم يكن رأيه هذا ناتجا، إلا عن اعتباره لنفسه عازف ربابة قدير، ينحدر من أسرة قـوالين جـوالين عريقة، احترفت الغناء الشعبي أبا عن جد، دون أية حرفـة أخرى، على مدى تاريخها المجهول بعد الجد الرابع.

الغضب الشائط، انجلى عن خطة انتقام صغيرة، من رمز الغدر والخيانة، تلخصت في تأجير أحد خبـراء صـنع العاهات المستديمة، لشـحاذي الحسـين، وسـائر شـحاذي القاهرة، ليقوم بخصي العشيق السابق الذي استدرجته عظيمة ذات مساء بعد أن أوهمته بعودة مياه غرامها العميقـة إلـى مجراها القديم، وذهبت به إلى بيت عـازف الربابـة الأول الواقع في منطقة الترب، بحجة التدرب مع بقية أفراد الفرقة، استعدادا للمشاركة في مولد السيدة زينب الذي كان موعده قد أوشك، فجربت عظيمة صوتها، وعادت، وزادت، وأبـدعت في أداء أغنية جديدة في مدح رسـول ا ﷺ ، كانـت فـي الأصل أغنية عاطفية، لحنها محمد عبد الوهاب لفايزة أحمد، منذ زمن طويل، لكن عظيمة غيرت في الكلمات، بما يتناسب

والمديح النبوي، مع الالتزام باللحن الـذي عزفتـه الفرقـة بتصرف يسير، يتلاءم مع المزاج الشعبي المفعـم بالنشـوة والمعتاد في الموالد، فأتيح مجـال أوسـع لآلات الإيقـاع، والوتريات الشعبية التي جرى تلخيصها تاريخيا في الربابـة التي كانت ترد بجواب لحني صاخب، كلمـا أدت عظيمـة بصوتها المبحوح "أنا قلبي إليك ميال".

وبعد الانتهاء من التجريب والتدريب، غادر أعضاء الفرقة بيت عازف الربابة الأول، ما عدا عظيمة، والنايـاتي الذي جلس إلى جانبها ليتلقى توبتها وطلبها للعفو والمغفـرة منه، بعد أن استيقظ قلبها على نداءات حبه الجديدة، لكنه لـم يلبث إلا وقتًا قصيرا حتى ذهب في غيبوبة تامة بعد تجرعه لعدة كئوس من النبيذ الوردي المضاف إليه كمية لا بأس بها من المخدر، فلما جرى التيقن من غيبوبته، نقل علـى وجـه السرعة لغرفة النوم الواسعة لعازف الربابة الأول، حيث كان في انتظاره خبير الخصي الذي تجرى في عروقـه موهبـة تاريخية، وصلت إليه عبر دم آبائـه مـن زمـن العصـر المملوكي، فقام بعد أن قرأ الشهادتين وشمر عـن أكمامـه، وتأكد من تأثير المخدر، وتمـام تعقـيم أدواتـه الجراحيـة

الموضوعة في حلة ألمونيوم صغيرة بها ماء يغلـي، علـى موقد كحولي من النوع المستخدم عادة في إعـداد القهـوة، ووجود قطن، وشاش وصبغة يود ومسحوق سـلفا بكميـات كافية، مد يده إلى الماء المغلـي واسـتخرج دون الالتفـات لسخونته الشديدة، موسى حلاقة من ذلك النوع الحـاد الـذي يستخدمه المزينون عادة، فقطع به ما تقاضى، خمسمائة جنيه – نصفهم مدفوع كمقدم – على قطعه، وبعد أن انتهـى مـن العملية التي كللت بالنجاح، ووضع صبغة اليود، ومسـحوق السلفا واف القطن والشاش، جرى نقل الناياتي، علـى وجـه السرعة إلى مسكنه الذي كان مفتاحه لم يزل مع عظيمة، منذ ما قبل القطيعة الأولى، وتم وضعه على سـريره وتغطيتـه باللحاف، وتركه ليجد نفسه في ظهيرة اليوم التالي، بعـد أن أفاق من غيبوبته، ونومته الطويلة، كالطواشي صبيح.

حاول عازف الربابة الأول، أن يحل محل العشـيق الغادر المنتقم منه، فعرض الزواج مباشرة علـى عظيمـة، رغم كونه متزوجا، منذ سنوات طويلة، ويعول، لكن عظيمة اعتبرت عرضه على سـبيل الشـفقة بهـا، ورد الاعتبـار لكرامتها المهانة، وإخراسا للمغرضين من الناس، ورفضـت

طلبة بلباقه لهذه الأسباب النبيلة، ولسبب آخر غير نبيل، هو أن عازف الربابة الأول، كان قصيرا على نحو واضح، مما يجعله يصل بالكاد إلى ما بعد وسطها بقليل، ثم إنها كانت ما تزال واقعة في غرام الناياتي الميئوس منه، وهو الغرام الذي باتت تفضل العيش على ذكراه الجميلة، دون التفكيـر فـي رجل آخر، أو الإقدام على زواج، إذ كانت آمالها في الرجال جميعا، قد ضاعت وفنيت، من جديد، واعتبرت مـا جـرى درسا لها وتجربة كان لا بد منها لتفيق إلـى نفسـها، مـرة أخرى، بعد أن أغرتها الشهرة والفلوس، وجعلاها تظن أنهـا تستطيع أن تشتري بهما العواطف والحب مثلما تشـتري أي شيء آخر من السوق.

كادت الحياة أن تمضي بعظيمة، بعد ذلك، بالشـكل المعتاد الذي كانت عليه قبل دخول النياتي فيها، لولا أنه كان يجهز لخطة انتقامية مضادة للعملية الجهنمية الانتقامية التـي استهدفت بنجاح أعز ما يملك فقد آثر بعد أن أكتشف ما لحق به، أن يكفأ على الخبز ماجورا، لأنـه لا يريـد أن يكـون موضوعا لتندر وسخرية كل من هـب ودب، وخصوصـا، أولئك الذين كان يتعمد إخبارهم طرقًا مـن أخبـار غرامـه

بعظيمة، وفضل ألا يشتكي للبوليس ليروحهما في داهيـة، إذ كان يفضل أن يقوم هو شخصيا بهذه الداهية، كسبا للوقـت، لأن يوم الحكومة بسنة، والبوليس سوف يمط في الموضوع، بسبب السين والجيم، وإحالة الموضوع للنيابة والمحكمة، مما يجعله يعيش بنار غيظه وغله وقتًا طويلاً، قـد يصـل إلـى سنين، لذلك قرر أن يحصل على حقه في الانتقام، بيده، فقام بوضع خطة مرحلية، تتركز أولاً على عازف الربابة الأول، باعتباره الرأس المدبر لعملية الخصي، وتستهدف في الجزء الثاني منها عظيمة التي سوف يطبخ طبخة الانتقام منها على نار هادئة حتى تؤتي أكلها، وهي طبخة سيكون أول مكوناتها قذف وجه عظيمة بماء النار، أي حامض الكبريتيك المركز، لتشويه وجهها، بحيث يضيع مستقبلها الفني، إذ أنها لن تقوى بعد ذلك على مواجهة جمهورها الحبيب، بوجـه مرعـب، يناسب أبا رجل مسلوخة الذي كانت أمه تخيفـه بـه وهـو صغير لينام، ثم بعد ذلك فإنه سوف يعمـل علـى تركيعهـا أمامه، بحيث تجيء إليه سائرة على أربع، بعـد أن تسـف التراب الذي يمشي عليه، طالبة منه العفو والرحمة والمغفرة.

لكن خطة حسين الناياتي، فشلت منـذ بدايـة تنفيـذ مطلعها، فقد فشلت محاولة قتل العازف الأول من قبل القتلـة المأجورين الذين كلفهم بقتله، بعد أن أصيب المغدور إصابات شديدة، استدعت نقله لمستشفى الحسين الجامعي، على وجـه السرعة، وانتقل إليه أيضا البوليس والنيابة للتحقيـق معـه، ورغم أنه لم يتهم حسينًا الناياتي، إلا أنه تعرف على الـذين حاولوا قتله، بينما كان يسير في الترب عائـدا مـن زيـارة لعظيمة في بيتها بباب الشـعرية، بعـد أن أطلعهـا علـى مصاريف وأجور العازفين الجدد للربابة الذين ضمهم للفرقة، وكان بينهم طالب مبتدئ في معهد الموسيقى العربية.

في النيابة، اعترف هؤلاء الذين فشلوا في القتل، بعد أن نال كل منهم كفًا على وجهه، على سبيل فتح الكلام، بأنهم قاموا بذلك لحساب حسين الناياتي الذي حاسبهم على أسـاس ألف جنيه نقدا، يوزعونها بينهم بالطريقة التي تناسبهم، وعند مثول حسين أمام النيابة التي استدعته، اعترف بأنه أقدم على ذلك انتقاما، لما جرى له، وقد أثبت الكشـف الطبـي الـذي حولته النيابة لإجرائه، أنه مخصي فعلاً منـذ مـدة قريبـة، ووجهت التهمة لعظيمة، بعد أن قـررت أن تبعـد العـازف

الأول للربابة، عن سكة الاتهام، واعترفت بأنه لا علاقة له بما قامت به من خصي الناياتي، سواء من قريب أو من بعيد، حرصا على استمرار الفرقة، ووجود من يرعى مصالحها بإخلاص، وقد أدانت المحكمة جريمتها التي تسببت بإحداث أضرار جسيمة وبالغة بإنسان لا تعوض بثمن، وقررت الحكم عليها بالحبس والغرامة التي بلغت خمسا وعشرين ألفًا من الجنيهات، لم تدفع عظيمة منها مليما واحدا، مفضلة أن تقضي في السجن ما يقابلها من سنوات، بعد أن خلعت كل مصاغها وقدمته للعازف الأول، ليحتفظ به لها على سبيل الأمانة، لحين خروجها من السجن.

واجهت عظيمة سنوات السجن بالصبر والرضا فقد اعتبرت أن ذلك لم يكن إلا الضريبة التي دفعتها في سبيل إخلاصها لعشقها الكبير الذي كانت على استعداد لمواجهة الموت نفسه في سبيله أيضا وقد عاشت داخل السجن على ذكرياتها الجميلة مع حسين الناياتي، ولم تنسها للحظة واحدة، فهي التي جعلت روحها تفيض بكل ذلك الحب الصدفة في حياتها، وقد كانت سلواها الوحيدة في أيام وليالي السجن الطويلة التي ينساها الزمان، هي أغنيات أم كلثوم القديمة

التي تؤجج نار قلبها الذي لم تنطفئ فيه جذوة العشـق، فلـم تكن تمل ترديدها كلما خلت إلى نفسـها فـي الليـل، هـذه الأغنيات هي ما جعل عزيزة تعيد النظر في أمر عظيمـة، بعد أن كانت تنفر وتتضايق من مرآها، وتشعر أنها عفريتـه انشقت عنها الأرض لا تنتمي إلى عالم البشر، ضلت طريقها إلى السجن بينما يجب أن يكون مكانها أي جب قديم، وكـان الصوت الإنساني المقهور الذي طالما ترنم بتلـك الأغنيـات الكلثومية البديعة هو السبب في اكتشاف عزيزة لهـا، وفـي تعرفها على نبلها ورهافة مشاعرها المفرطة التي لا يمكن أن تكون إلا لملائكة حقيقيين.

لذلك قررت عزيزة، أن تجلس عظيمة إلـى جانـب حنة في العربة الذهبية الصاعدة إلى السماء، لأن نبل عظيمة البالغ كان يتبدى في تعاطفها مع حنة المسـكينة، خصوصـا عندما مرضت حنة مرضا متواصلاً، لمدة أسبوعين، أقعدها في الفراش، فكانت عظيمة تخدمها خدمة البنت لأمها التـي أنجبتها من رحمها، حتى أنها كانت تحملهـا لبيـت الأدب، لتقضي حاجتها، وتعود بها، بعد تنظيفها وغسلها، إلى مكانها في فراشها بعنبر الضعفاء، بل وكانت تقضي أوقاتًا طويلـة

تناشدها أن تأكل، وتصبر عليها صبرا جميلاً في ذلـك، لأن حنة كانت ترفض أكل عيش السجن الأسود، بسبب أسـنانها الصناعية التي باتت مخلخلة في فمها بعد أن نحفت وضعفت كثيرا، فكانت عظيمة تبله بالماء وتفتته إلى فتيتات صـغيرة تلقمها لها وهي تغني لها أغنيات مرحـة تـدفعها للابتسـام والانشراح.

إضافة إلى ذلك، فإن عظيمة مغنية ذات أداء جميل، وراكبات العربة سوف يحتجن إلى الغنـاء ليسـري عـنهم، خلال رحلتهم السماوية الطويلة، مما يرجح ضـرورة ضـم عظيمة إليها، وهذا ما فكرت به عزيزة تماما.

أبلغت عزيزة القرار السري الخطير لعظيمـة فـي كلمتين، فقط لا غير، بينما كانتا ذات يوم تغسلان وجهيهمـا في الصباح بالحمام، فقد ألقت عظيمة علـى عزيـزة تحيـة الصباح في بشاشة وهي تدعك وجهها بالصابون مما جعلهـا لا تلحظ الإيماءة الخفيفة التي ردت عليها بها عزيزة، لكنهـا سمعتها فقط وصوتها يختلط بسرسوب الماء المنسـاب مـن الصنبور، دون أن تفهم ما تقصده بقولها لها:

- خلاص.. استعدي.

البقرة حتحور

الوحيدة التي لم يستغرق تفكير عزيزة، لضمها إلـى راكبات العربة الذهبية الصاعدة إلى السماء الوقـت الـلازم لساق بيضة، سلقًا خفيفًا، كانت الفلاحـة أم الخيـر، فرضـا عزيزة عنها مشابه للشعور المتمخض عن حب من النظـرة الأولى، لأن عزيزة شدت إلى أم الخير وانفتح قلبها لها، مـذ رأتها لأول مرة في السجن، مشمرة عن سـاعديها، جالسـة القرفصاء، تفت في طبق من الصاج الأزرق، بعض الخبـز، وتصب فوقه قليلاً من مسحوق اللبن الذي مزجته بقليل مـن الماء لتقدمه لقطة السجن الأثيرة التي كانـت قـد وضـعت لتوها، بعد ولادة عسيرة، استمرت ليلة كاملة، أربعة قطـط مغمضة العينين، أفصحت اثنتان منها عن بعض سمات الأب المجهول، إذ كان لونهما رماديا داكنًا، مخططـًا بالأسـود، خلافًا لأمهما التي كانت مشمشية اللون، لذلك أطلقت عليهـا السجينات اسم مشمشة.

استندت عزيزة بمرفقها على إفريـز شـباك عنبـر العجزة المطل على الدهليز الطويل الذي تطل عليـه بقيـة العنابر وكانت تقف فيه، آنذاك، ثم قالـت وهـي تبتسـم لأم الخير:

- العوافي.

ثم تأملت مشمشة وهي تلعق بنهم ما فـي الطبـق، وأردفت:

- الحمد على السلامة يا مشموشة، إن شـاء ا يتربوا في عزك.

انفرجت شفتا أم الخير عن أسنان قوية، جميلة، قلما يمكن العثور عليها لدى فلاحة في مثل عمرهـا، جـاوزت الخامسة والستين، وقالت كما لو كانت مشمشة امرأة حقيقيـة ولدت بعد عذاب:

- وا يا حبيبتي ما نمت طول الليل بسببها، لأنـي والوجع شغال فيها، كنت شاعرة أن مطـواة نازلـة تقطيـع بمصاريني، وبقيت أقول يا رب تخلص وتولـد بالسـلامة، ويشاء العالم بعبيده أنها تنزل أول قط والفجر ينطق ا أكبر.

ثم إنها دعت عزيزة لتدخل العنبر وتشرب الشـاي، عندها، وأغرتها بوضع قليل من اللبن المجفف فيـه والـذي كان ابنها الأوسط قد جاءها بعلبة منه في آخر زيارة زارهـا لها في السجن، منذ أيام مضت لأنه يعرف حرص أمه علـى شرب الشاي مع اللبن لتكسر سمه كمـا كانـت تقـول لـه ولإخوته دائما، عندما كانت تراهم يشربون الشاي داكنًا دون وضع أية قطرة من الحليب عليه.

دخلت عزيزة، وجلست إلى جوار أم الخير لتشـرب شايا باللبن، ولتدخل أم الخير إلى قلبها الذي يعد أوسع بـاب يقود إلى طريق العربة الذهبية الصاعدة إلى السماء، ولتستمع إلى قصتها في شغف شديد، دونما ملل، رغم سلوك أم الخير مسلك الفلاحات التقليدي في حكايتها، حيث كانت تعيد وتزيد وتحكي ببطء، وتبالغ في الوصف والتشبيه، وتدخل من حكاية إلى حكاية، لكن عزيزة، لم يضق خلقها المستمر في ضـيقه كلما مرت بها الأيام في السجن، ولم تتأفف من أم الخير، أو تشعر بازدراء نحوها، رغم انطباعها الذي لم يتغير أبدا عن الفلاحين – باعتبارها سليلة أسرة مدنية قديمـة – إذ تـراهم أجلافًا، خشنين، قذرين، لهم رائحة لا تطاق، مثـل رائحـة

"صابحة" بائعة الزبد والجبن التي كانت تأتي من الأرياف وتبيت عندهم حتى تغلي الزبد وتحوله إلى سمن، أيام الزمن القديم، حيث كانت أمها تخزن قنطار سمن كل سنة في القدر الخزفية الضخمة التي ضاعت ضمن ما ضاع من متاع موجود بالبيت في الحريق، لكن عزيزة تشعر بأن لأم الخير رائحة أخرى، غير رائحة الفلاحات، رائحة خاصة غامضة، غير رائحة الجلة، وشعر صابحة الفواح بالزناخة الذي تدهنه ببقايا الزبد الملوث لأصابعها بعد وزن كيزانه لينعم شعرها المنكوش ويلين ويتهذب منظره قليلاً، ولقد فكرت عزيزة ذات مرة في تلك الرائحة الغريبة التي تتميز بها أم الخير عن أية امرأة أخرى في السجن، واكتشفت أنها تشبه إلى حد كبير رائحة الأطفال الرضع أي رائحة الحليب الممزوج بالبراءة والرقة والضعف، وربما كان ذلك مبعث حبها لتلك الرائحة، وانسحارها بها، مثلما كانت تسحر في الماضي الجميل الذي عاشته، بتلك العطور السرية التي كان يهديها لها زوج أمها بين الحين والحين، لكن عزيزة لم تجرب رائحة الطفولة هذه، لأنها لم تكن أما أبدا، ولم تكتشف جمال الأمومة في يوم من الأيام، إلا عندما جاءت إلى السجن،

وتأملت عطش الأمهـات لصـغارهن، وراقبـت رضـاع الحاضنات منهن في السجن لأولئك المساكين الذين حكمـت عليهم الحياة أن يلقموا أثداء أمهاتهم حتـى الفطـام، خلـف الأسوار العالية.

ولعل ذلك هو أحد الفضائل المحدودة جدا للسـجون التي تفرض التأمل، وإمكانية الاكتشاف لجوانب من الحيـاة، ليس من الممكن معرفتها، أبدا، إلا من قبـل أولئـك الـذين تذوقوا مرارة الإبعاد، وانتفاء الإرادة، والعزلة الإجبارية عن كل التفاصيل التي يمكن أن تخلقها الحياة في المحيط البشري غير المحدود بحدود السجن، وجدرانه الفاصلة.

تحمست عزيزة لأم الخير كثيرا حتى أنها اسـتقرت على أن يكون موقع جلوسها، إلى جانبها شخصيا في مقدمـة العربة، وقد جاء هذا القرار الذي يمكن وصفه بأنه عـاطفي بعض الشيء، بعدما جرى بين هذه الفلاحـة وبـين البنـت عايدة، وقد أبلغتها عزيزة به، عندما جلست فـي زنزانتهـا الانفرادية تحتسي ماءها الخمري، وتدخن سجائرها، بعـد أن أحضرت كأسا أخرى لأم الخير، لتشربا سويا نخب الصعود السماوي، والجلوس المتميز في العربة الذهبية، لكن أم الخير

لم ترفع كأسها أبدا، مثلما لم تسمع أذنيهـا قـرار عزيـزة الخطير، لأنها، آنذاك، كانت مشغولة فـي عنبـر العجـزة المجاور لعنبر عزيزة من ناحية اليمين، بهدهدة وتنويم ابنـة حليمة السجانة التي كانت أم الخير تضعها خلال هذه اللحظة بحجرها، وتلقمها ثديها الضخم حليبي اللون الخالي تماما من أي لبن، كما يجب أن يكون ثدي امرأة جـاوزت الخامسـة والستين من عمرها، لكنها كانت تواسي الطفلة الرضيعة التي لم تكمل عامها الأول بعد، وترضعها عوضا عن حليب أمها الأصلية، وحليبها الذي جففته السنون، حنانًا دافقًا، وأغـاني ريفية قديمة، استقرت في قاع الذاكرة، كتذكار ودليل على ما بذلته لأبنائها العشرة الذين ربتهم وأبناءهم الأربعين، وطالما ساهمت إلى جانب أمهاتهم في خدمتهم، كان هؤلاء الأبنـاء العشرة هم حصيلة ما تبقى لها مـن خمـس عشـرة ولادة، أنجزتها بنشاط على مدى حياتها منذ زواجها بعد مرور ستة أشهر على بلوغها، وظهور الإشارة الحمراء الدالـة علـى استعداد جهازها النسوي لوظائف الحمل والإنجاب.

لم تسمع أم الخير قرار عزيـزة السـري الخـاص بصعودها إلى السماء، وكانت تفكر برضا وسعادة لا حـدود

لهما فيما خلفته في الحياة؛ في ذلك الابن الكبير الذي ما فتئ يضع القرش على القرش، ليشتري بين حين وآخر، أرضا جديدة، يضمها لأرضه القديمة، والصغير الذي ثابر على التعليم حتى حطّ رجله في الجامعة، وذلك الذي دخل الجيش، والبنات اللواتي زوجتهن جميعا زيجات موفقة مستورة، وما عادت واحدة إليها يوما غاضبة من زوجها، إلا ونجحت في إعادتها إلى حظيرة الزوج مرة أخرى معززة مكرمة، راضية البال، أما ابنها الرابع ، فقد كان قلبها يخفق بشدة، ويتصاعد الدم إلى رأسها، حتى تشعر وكأن الدنيا تلف بها، كلما تصورت أنه كان من الممكن أن يكون بدلاً منها في مكان فظيع كهذا، وأن ينام مثلما تنام الآن على حاشية إسفنجية بالية طالما نام عليها قبل ذلك عشرات غيرها من أولئك اللواتي ساقتهن أقدارهن إلى هذا المكان، وكانت تستعيذ من الشيطان الرجيم، وتتشهد وهي تتصور، كيف كان سيأكل من ذلك الطعام الرديء، والنفايات الغذائية التي تقدم في السجن، بل وكيف تظل عيناه طوال الوقت، لا تطالع إلا تلك القضبان الحديدية السوداء التي تغم النفس، وتقبض الروح.

تصاعد صوتها متهدجا بالغناء للرضيعة التي استكانت في حجرها، وحمدت ا لأنها استطاعت إنقاذ ولدها الذي هو نور عينها وعافيتها، من خمسة وعشرين سنة سجنًا، كانت ما قررته المحكمة عليها، وفقًا لقانون تطبيق أقصى العقوبة على تجار المخدرات، فقد سارعت عند مداهمة البوليس للبيت، وأعلنت أن كل ما عثر عليه من مخدرات مخبأ في قفة الأرز المركونة إلى جوار الفرن هو لها، وأن لا علاقة لابنها بها من قريب أو بعيد.

زغرد فرح في قلبها من جديد، عندما تذكرت نجاحها في إنقاذ ابنها الغالي، حتى أنها رفعت ابنة السجانة إلى حضنها وراحت تقبلها في حنان دافق، تصاعد أكثر إلى درجة دفعها في الهواء قليلاً، وإعادة التقاطها مما جعل الطفلة تسعد بتلك الحركات الأكروباتية الممتعة، ففتحت شفتيها عن آخرهما بما يفترض أن يكون ابتسامة، لكن أم الخير كفت عن مداعبة الصغيرة، وعن الغناء بصوتها الحاد الذي طالما أطلقته بالغناء والزغاريد في أفراح بلدتها الريفية، عندما زعقت لولا الكوافيرة محتجة على الزيطة الناتجة عن أم الخير، وبنت السجانة التي اعتادت أمها أن تتركها لتبيت مع

أم الخير في أيام كثيرة، لتوفر على نفسها مشقة تجهيزها وحملها معها كل صباح إلى السجن، من منزلها الذي يبعد ما يزيد على الساعة في المواصلات العامة التي تكون في هذا الوقت المبكر من الصباح، بالغة الاكتظاظ بالركاب، على نحو غير إنساني، وكانت لولا في هذه الأثناء، مشغولة بفتح الورق لاكتشاف حظها، بعد أن اعتذرت أم عبد العزيز المكشوف عنها الحجاب كما يشاع في السجن، عن قراءة خطوط كفها متذرعة بالنوم.

ظلت عزيزة ساهرة، خلال تلك الليلة، تفكر في أمر الفلاحة أم الخير، وتتعجب من العافية والصحة الموفرة في جسدها، رغم العدد الكبير من العيال الذين أنجبتهم عاما وراء آخر، فهي الوحيدة، بين سائر نزيلات عنبر العجزة التي لم يطلها مرض ضغط الدم المرتفع، كما أن قلبها ظل سليما تماما، كما قال لها طبيب السجن، بعد أن كشف عليها، أما عيناها، فهما حادتا البصر جدا، إلى حد مكنها أن تخرج قطعة زجاج دقيقة للغاية، يصعب رؤيتها بالعين المجردة، من طرف إصبع عزيزة، بملقاط حواجب، عندما كسر زجاج شباك حجرة الكشف الطبي ذات يوم، ووضعت عزيزة دون

انتباه منها يدها على إفريزه العريض الذي كان حافلاً بالقطع الصغيرة غير المرئية المتناثرة عليـه، بعـد إزالـة القطـع الكبيرة.

ما كان يدهش عزيزة من أمر أم الخير، أكثر من أي شيء آخر، هو معنوياتها العالية معظم الأحيان، وشـعورها الممتد بالسكينة والاطمئنان، مما جعلهـا السـجينة الوحيـدة تقريبا التي رأتها عزيزة لا تدخن، خلال إقامتها الطويلة فـي السجن، ولا تغالي في شرب الشاي الذي لم تصادفها تشـربه إلا مضافًا إليه الحليب.

وبينما كانت عزيزة ساهمة تفكر، وقع بصرها علـى ذلك الوجه الغريب الذي كانت قد حفرته ذات ليلة من ليـالي الملل الطويلة في زنزانتها الانفرادية، على حائط من حوائطه الكالحة التي لم يمسها طلاء منذ سنوات بعيدة، مستخدمة في ذلك مسمارا صدئًا كانت قد عثرت عليه ذات نهار مرميا في جانب من فناء السجن، وهو الوجه الذي ما عرفت أبدا، لماذا رسمته بملامح غامضة، ما رأت أحدا يشبهها من قبل، لكنها في هذه اللحظة تحديدا، وبينما هي تتأمله تذكرت واقعة قديمة جدا، طفت على سطح الذاكرة، مثلما يحدث لها عادة، وربما

لكل أولئك المنفيين المبعدين عن عوالمهم العـاجزين وهـم خلف الأسوار العالية، عن مراكمة ذكريات أخرى، لغيـاب إرادتهم في التحقق والفعل، مثلهم في ذلك مثـل المحتضـر الساعي للتشبث بالحياة، عبر هذه الذكريات المتجسدة، بشكل قل وضوحه في مخيلة العائش لأيامه المعتادة في المجتمـع، غير منقطع الأمل في الحياة.

تذكرت عزيزة واحدة من وقـائع صـباها، حيـث اصطحبها زوج أمها المعشوق من الإسكندرية إلى القـاهرة في زيارة طافا خلالها، سويا، بكل معالم المدينة، فذهبا إلـى مصر العتيقة، حيث حط عمرو، وبقيت الكنيسـة المعلقـة، ومعبد اليهود كشاهد إثبات على الحصن المستسـلم، والفـتح المثلج لمدينة كانت تدفع الجزية لمخضعيها منذ زمن طويل، وزارا حلوان المنتجـع، بحـديقتها اليابانيـة ذات التماثيـل الأربعين، ثم عرجا إلى حدائق المدينة الضـائعة الآن فـي الزحام، والإهمال، والرغبة الشريرة في طمس كل مـا هـو أخضر طبيعي جميل، فذهبا إلى حديقة الأنـدلس، وحديقـة الأسماك بجبلايتها السحرية المظلمة حيث قبلها العاشق قبلات مباغتة لا ينسى مذاقها العذب ثم حديقة الأزبكيـة، وحديقـة

الحيوانات التي رأت فيها لأول مرة فـي حياتهـا الحمـار الوحشي، والطواويس البديعة التي تمنت أن يكون لديها واحد منها، لكن الأيام والسنين، أثبتت لها أنها لم تكـن إلا واحـدة منها بالفعل.

تذكرت عزيزة كذلك، زيارتها للأهرامـات، وأبـي الهول المهيب، والمتحف الفرعوني الذي ترك في نفسها أثرا لا يمحى، وها هي تجلس محاولة الإمساك بالمشاهد الباليـة التي تخصه، والمتشابكة خيوطها، بخيـوط أخـرى كثيـرة متراكمة في جراب الذاكرة العميق.

طاف برأسها تجوالها مع العاشق القديم، عندما سارا متشابكي الأيدي، كأي عاشقين، معتـرف بعشـقهما، أدمنـا العشق منذ زمن طويل، فنضج بما يكفي لتفوح رائحته وتشي به، وتذكرت ذلك التمثال القديم الذي لم تنسه أبـدا، فـنهض بقوة من قرار الذاكرة حيث وضعته الأيام، وبدا أمام عينيهـا متجسدا، مثلما رأته في الزمن البعيد، إذ كان لامرأة ضخمة، وافرة الجسد، خصبة البنيان، لها رأس على هيئة رأس بقرة ذات وجه طيب حنون، تحتضن بيديها طفلاً صغيرا، وعندما سألت عزيزة آنذاك عاشقها المعشوق عن ذلك التمثال، قـال

لها بينما هو يضمها إليه قليلاً: إنه لآلهة قديمة محفورة في عمق الضمير عبدت لسنين طويلة، وكرست للخصب والجمال، أطلقوا عليها اسم حتحور، وها هي تحنو على إله صغير مقدس يدعى حورس.

حكت عزيزة لأم الخير المفترضة أمامها، بينما هي تتأمل ما رسمته على الحائط مما وافتها به الذاكرة عن التمثال القديم، وكيف أنها وقفت وقتها مشدوهة، تتأمله، وتفكر في شيء غامض لا تعرفه، وهي تتحسس صدرها بيدها، باحثة في داخلها عن معنى كلمة الخصوبة التي كانت تسمعها آنذاك لأول مرة في حياتها.

لم تتصور عزيزة، أن تكون ذات يوم كتلك البقرة الإنسية الطيبة التي تحنو على الأطفال وتشملهم برعايتها، فقد كانت تظن دائما أنها خلقت لغير ذلك، وهذا ما أثبتته الأيام لها على أية حال، وكأن مصيرها وسيرة حياتها، قد تحددا في ذلك اليوم البعيد الذي قررت ألا تكون فيه كتلك المرأة البقرة- التمثال الذي وقفت تتأمله، لكن ها هي تكتشف أنها خطت على الحائط رسما يذكرها بذلك التمثال، ويستدعيه من الذاكرة، وها هي أم الخير التي جسدتها عزيزة جالسة

أمامها، تلك الليلة، بكل ما تملكه من أمومة دافقـة فياضـة، تغمر بعطفها الجميع، بما في ذلك عزيزة نفسـها، إذ تنـادي جميع نساء السجن اللواتي يتعاملن معها باعتبارهن بناتهـا، بما فيهن أولئك اللواتي يكبرنها فـي العمـر، بـل وصـلت أمومتها إلى قطة السجن المدللة، لتـدلل بـذلك علـى أنهـا الأمومة الكاملة، الأمومة المطلقة التي ما عرفت عزيزة مـا هو نسبي منها في يوم من الأيام، ولا جربته أبدا، مذ قررت بحس لا شعوري ذات يوم في طفولتها البعيدة أنها لم تخلـق للخصب أبدا، لكنها خلقت للعشق الذي اكتفت به كدور واحد وحيد لها في الحياة، وهو الدور الذي أخلصت له حتى القتل والجنون.

كانت أم الخير، بشخصيتها الأمومية الطاغية، هـي الباعث الوحيد، على اكتشاف عزيزة لكلمة الأمومة التي مـا دخلت قاموس حياتها أبدا، فهي لم تشعر حتى من ناحية أمها بما يسمى الأمومة، فكان شعورها تجاهها أشبه بشعور أخت صغيرة تجاه أخت تكبرها بعدة سنوات، بل إنه كان أحيانًـا أشبه بشعور الصديقة الصغيرة، نحو صديقة أثيـرة، أكثـر خبرة منها في الحياة، فثمت ندبة كانت في العلاقـة بينهمـا،

وثمت خيط خفي كان يضعهما على قدم المساواة؛ اكتشـفت عزيزة بعد دخولها السجن أنه يتمثل في تعلقهما برجل واحد، عشقتاه سويا، دون أي نزاع ، أو تناقض، يمكن أن ينتج عن ذلك فبقدر ما كان يعطيها، كانت أمها تأخـذ، ابتـداء مـن الهدايا، والملابس الفاخرة الجميلة، والأمسيات الرائعـة فـي أرقى محلات المدينة، وأكثرها إثارة للبهجة، عنـدما كانـت الإسكندرية بحق مدينة لكل الدنيا يؤمها الناس من كل مكان، وتعيش فيها صفوة أثرياء البلاد، وانتهاء بالجسد الذي ما بخل به على واحدة منهما أبدا، لذلك فإن عزيزة ما شعرت بها كأم قط، لأنها ما أخذت أقل مما كانت تأخذه هي نفسـها، ومـا أعطت أكثر مما كانت تعطيه هي أيضا، بل إنها لـم تضـح ذات يوم بشيء، ولم تمتنع عن مطالبة نفسها بمتعة، تميـزت بها عزيزة، الأكثر من ذلك أنها لم تشعرها أبدا أنها الامتداد، أو منبع السعادة والطمأنينة في حياتهـا، أو أمـل مفتـرض لعمياء مثلها، حرمت نعمة البصر، فوجدت عزاءها في ابنـة لها، تسعى لأن تبصر من خلالها ما عجزت عيناهـا عـن الإبصار به.

لكن هذه الجالسة أمامها جلوسا وهميـا، لا يـراه إلا خيالها المتعب الذي دمرته سنوات ممتدة من الوحدة والأسى، هي الإلهة الأم حقًا، إنها الأمومة المطلقة التي تعطـي دون سؤال، وتفيض بعطائها على كل من تلتقيـه فتضـعه فـي موضع أولادها، وعبر دوائر الدخان المتصـاعدة، تجسـدت صورة أم الخير في عيني عزيزة، على هيئة تشبه هيئة ذلك التمثال القديم الضخم للمرأة البقرة الآلهة التي نست عزيـزة اسمها تماما في هذه اللحظات، رغـم محاولتهـا المسـتميتة للتذكر، واعتصارها نسيج ذاكرتها البالي المشـبع بقطـرات كثيرة من دمع وحزن، ولحظات سعادة متألقة كخمر عتيقـة، لكن دون جدوى الفارق بـين التمثـال الحقيقـي، والمـرأة المتجسدة من لحم ودم، كان في ذلك الحليب المتفجـر مـن حلمتي ثدييها، والذي سرعان ما راح يسربلها، حتى انسـاب من قدميها على الأرض انسيابا، شكل مجرى صغيرا، رأتـه عزيزة يمتد حتى تجاوز باب الزنزانة، شاقًا طريقـة علـى بلاط الدهليز الطويل الذي تطل عليه بقية الزنازين، انحنـت عزيزة على الأرض لتلعقه وتشرب منه، فقد بدا في عينيهـا متلألئًا أكثر من أية خمر أسكرتها في حياتهـا المنصـرمة،

واشتهته روحها على نحو لم تشته شيئًا مثله من قبـل، فلمـا لامس لسانها بلاط الزنزانة القديم، وأحست بمـذاق ندوبـه الخشنة، بفعل كثرة الوطء ومرور الأيام، سقطت قطرات من دموعها ساخنة عليه، ولم ترفع رأسها إلا بعد أن اسـتنفذت كل مخزون الألم واليأس المتراكم في داخلها.

منذ ذلك المساء الحزين الذي قلما عاشـت عزيـزة مثله، بعدما اعتادت ليالي السجن الطويلة، باتت تعتقد علـى نحو لا يقطعه شك في أن أم الخير، ما هي إلا إلهة مبجلـة من آلهة الجدود القدماء، هبطت من سابع سماء إلـى سـجن النساء، لتنقذ تلك الأرواح الضائعة المعذبة عذابات الوحـدة والنفي والإبعاد، وتواسيها بفيض حنانها، وعظيم عطفها، وقد دعمت تلك النظرية العزيزية العلاقة بين قطـة السـجن وأم الخير التي اعتبرتها عزيزة علاقة غير طبيعية، لا يمكن أن تنشأ إلا بين إلهة، وحيوان أعجم، فالقطة تنام جـل أيامهـا واضعة بوزها بالقرب من وجه أم الخير، دون أن تنهرهـا، بل وكثيرا ما سمعتها عزيزة تحدثها، وتواسيها بالكلام الرقيق في كل مرة يلتهم فيها ذكور القطط صغارها فـي غـاراتهم الليلية على العنابر، أثناء بحثها عما يملأ ضـروعها بـاللبن

لإرضاعهم، ورغم أن معظم السجينات كن لا يبخلن على هذه القطة بحنان من حرمن متعة التعبير عن مشاعرهن، تجاه من يحبونهن، فتبادلهن الحنان بالتمسح بأرجلهن، والمواء الخافت الرقيق، خصوصا، عندما يرمين إليها بشيء من فضلات طعامهن الفقير أو يمسحون على ظهرها بلطف، إلا أن عزيزة كانت تلاحظ أن القطة تخص أم الخير بمعزة خاصة، من ذلك النوع السري الذي أدركت عزيزة على الفور، أنه لا يمكن أن يمنح إلا للآلهة، لأن تلك القطة المشمشية، ذات العينين الداكنتين والذيل الذي أصبح أزعر، إثر معركة عنيفة، امتدت حتى مطلع الفجر ذات ليلة مع قط عجوز شرس، كانت تفضل المبيت كل ليلة تحت أقدام أم الخير في فراشها ذاته، بل كانت ترقبها في نومها، وتحميها كملاك حارس من أي خطر قد يتهددها، فقد اصطادت في إحدى المرات فأرا غريرا، تسلل إلى الصندوق الكرتوني الخاص بأم الخير، والذي كانت تضع متعلقاتها فيه، وفي واقعة أخرى سحبت عنكبوتًا كبيرا من ذلك النوع القارص السام، من فردة حذائها البلاستيكي المبتكر في مصانعنا المحلية، خلال الستينات، لمواجهة الحفاء التراثي الذي تعود

جذوره إلى حضارة ممتدة منذ سبعة آلاف سنة، وقد كانت أم الخير، وقتها، على وشك وضع قدمها، ذات الكعب المتشـقق لكثرة ما انغرست في الطين، بداخله.

لم يكن اكتشاف عزيزة للعلاقة السرية، بين القطـة وأم الخير، إلا جانبا من جوانب اكتشافها لتلك الفلاحة الإلهة التي تمتلك طاقات خارقة، قلما رأت مثلها لدى إنسان آخـر، وخصوصا ذلك الصبر العجيب الذي لا تقوى عليـه غيـر شجرة صبار عجوز حقيقية، والذي لاحظته فـي تعامـل أم الخير مع تلك المرأة الصعيدية الصغيرة البائسة عايدة التـي يعرف عنها جميع من بالسجن، أنها مصابة بـداء غريـب، يجعلها تنسى كل شيء فجأة وتتوه بين الحين والحين، لعـدة ساعات أو لبضعة أيام، ويصل بها النسيان إلى حد عدم تذكر اسمها، والعجز عن التعرف على من حولها، بل إلى حد عدم معرفة الأشياء ولأي الأغراض تستخدم، مما يوقعهـا فـي مشكلات عديدة، ويجعلها مثارا لسخرية بعـض السـجينات اللواتي يجدن في حالتها فرصة للتندر والضحك، خصوصـا عندما تأتي بأفعال غريبة لا منطقية، فلقد حدث مـرة أنهـا نامت واضعة تحت رأسها حوضا بلاستيكيا صغيرا بعـد أن

قلبته، عوضا عن الوسادة، وفي مرة أخرى صـنعت شـايا لمحروسة السجانة على سبيل الضيافة، عندما جاءت لتجلس بجانبها على سريرها في العنبر، لكنها وضعت فيه ملعقتـين من الفلفل الأسود، بدلاً مـن السـكر، ولـولا طيبـة قلـب محروسة، ومعرفتها بحالة عايدة، لكانت ضربتها كفًا جامـدا على خدها، كأي سجانة أخرى، كانت ستفسر الموقف علـى أنه سخرية واستهزاء بها من قبل السجينة.

لقد أدركت عزيزة مدى صبر أم الخير، ومثابرتهـا في الحنو على السجينات، منذ ذلك اليوم الذي سألتها فيه عن خبر عايدة، فقالت لها أم الخير، إنها شابة مسكينة، شافت في الدنيا مصائب وأهوالاً، لا يمكن أن يصدقها عقل بأي حـال من الأحوال، جعلتها يتيمة، بالرغم من وجود ذوي القربـى الحميمة ثم إنها تعيش بلا أمـل، بعـد أن فقـدت الضـرع والجمل، ولعل أفضل ما ينطبق عليها مـن الأمثـال القـول الصائب في بعض الأحوال: إن وصلك الطوفان، حط عيالك تحت رجليك، فلما استفسرت عزيزة عن أصل هذا المثـل، وكيف ينطبق على عايدة الصعيدية التي ربما تعقـد عليهـا النية، وكانت تقصد بذلك الصعود إلى السـماء، تنهـدت أم

الخير وسألتها أن تصلي على النبي، فلما صلت عليه – عليه الصلاة والسلام – وزادته صلاة بناء على طلب أم الخير، قالت هذه الفلاحة الحصيفة:

- كان يا ما كان في يوم من الأيام، عند غيط من الغيطان، أرنب يعيش في جحر مع أولاده، أسفل شجرة جميز عالية على طرف من أطراف الغيط، وفي مرة من المرات، طلب الأرنب من عيل له، أن يخرج ويراقب الطريق، والغيط، فإن شاف الطريق خاليا، والغيط لا يشتغل فيه أي نفر من بني آدم، عليه أن يعود بسرعة ليخبره حتى يأخذه وإخوته الأرانب، إلى الغيط، ليؤكلهم ويشبعهم، ويلعب معهم في سعادة وهناء، وهم جميعا في أمان وسلام، وبدون أي خوف من بني الإنسان، فلما خرج الأرنب الصغير، وبحث بعينيه في الغيط، لم يجد جنس مخلوق، إلا ثعلبا عجوزا، يدور في المكان عن صيد يأكله، فلما شافه الأرنب الصغير، قال لنفسه، من الأحسن أن أسأله هل شاف أي إنسان في الغيط، أو بالقرب من ذلك المكان، حتى يطمئن قلبي وأعود لأبي متيقنًا من خلو الغيط فعلاً من أي إنسان، فذهب الأرنب إلى الثعلب وحياه تحية الصباح، ثم أعلمه

بسبب خروجه، وسأله عن الإنسان، وكان الثعلب قد نوى افتراسه بمجرد أن رآه، لأنه كان في غاية الجوع، والرغبة في الالتهام، لكنه سرعان ما تراجع، إذ فكر أن هذا الأرنب لا بد أن يكون له جحر قريب من الغيط، يعيش فيه مع إخوته، ولعله من الأفضل أن يعرف مكانه، حتى يتسلل إليه كل ليلة فيخطف واحدا من الأرانب ليتعشى به، ويوفر على نفسه جهد البحث عن فريسة بين الحين والحين، لذلك احتال على الأرنب الصغير وقال له إنه لم ير أي إنسان منذ مطلع الفجر حتى الآن، لكنه يخشى عليه وهو عائد إلى أبيه أن يراه إنسان فيؤذيه، وربما يقتله، مما يوقع أبيه في الحزن والنكد، لذلك سوف يسير معه حتى يصل إلى جحره ويطمئن عليه.

فسار الثعلب إلى جوار الأرنب الذي سر لذلك أيما سرور، والثعلب يسامره طوال الطريق ويحكي له حكاية البطة السوداء الغريرة التي كانت تعيش في الحظيرة مع عدد من الإوز والديوك والدجاجات، وكانت ترى ألوان الإوز البيضاء، وألوان الفراخ الحمراء، وألوان الديوك البهيجة المزركشة، مما جعلها تتضايق وتغتاظ لأنها سوداء، سوادا

غطيسا، حرمتها الدنيا من نعمة الألوان، وفي أحد الأيام، شاهدها كلب مهمته حراسة الحيوان عندما يخرج من الحظيرة إلى صحن الدار، وحراسة الإوز عندما يذهب للعوم والاستحمام، وسألها عن سبب كدرها وضيقها، فلما شكت له همها، نصحها أن تتسلل إلى حجرة الخزين في الدار، وتدس نفسها في قفة الطحين، حتى يغطيها الدقيق فتصبح بيضاء ناصعة كالحليب، فتعود عندئذ إلى الحظيرة وهي في غاية السرور، ويذهب عنها الغم والضيق.

فلما كان اليوم التالي، ذهبت البطة إلى حجرة الخزين، ودفنت نفسها في قفة الطحين، وراحت تعفر ريشها ورأسها بالدقيق حتى همدت قواها من الجهد الكبير الذي بذلته في تعفير نفسها، ثم عادت إلى الحظيرة، وكانت صاحبة الدار قد فتحت الباب للإوز، ليذهب إلى النهر القريب، فسارعت البطة للالتحاق بالإوز، لتستحم هي الأخرى، وتمتع نفسها بالماء البارد، وتغتسل لتبدو نظيفة جميلة، فلما وصلت إلى النهر، ورأت الإوز الأبيض سابحا فيه، نظرت باعتزاز إلى نفسها، ومدت رقبتها كبرا واستعلاء، إذ كانت تشعر أنها بيضاء جميلة، كالإوز بعد أن اختفى لونها الأسود المغطى

بالدقيق، وسرعان ما ألقت بنفسها في الماء الذي أخذ يزيل ما علق بها من الدقيق الأبيض، ويعيد ريشها الأسود الحقيقـي، فلما اكتشفت البطة ما جرى لها، خرجت إلى النهر، وعادت إلى الحظيرة كسيفة البال، لكن صاحبة الـدار، كانـت فـي انتظارها وهي في غاية الغضب، والسـكين فـي يـدها، إذ قررت أن تذبحها وتأكلها على العشاء، بعد أن اكتشفت أنهـا دخلت في قفة الطحين، وأخرجت من أمعائها ما يخرجه سائر الخلق أجمعين، فلوثت الطحين، وأفسدت ما كانت تخزنه ربة الدار لتصنع منه العجين.

لما وصل الأرنب الصـغير والثعلـب إلـى جحـر الأرانب الواقع أسفل الشجرة، تركه الأرنب مودعا، ودخـل الجحر لكن الثعلب بقي مختبئًا في مكان مـا بـالقرب مـن الشجرة، يرقب الجحر عن كثـب ليتعـرف علـى مداخلـه ومخارجه، بينما كان الأرنب الصغير في هذه الأثناء، يقص على أبيه ما كان من أمره مع الثعلب، فلما سمع أبوه الحكاية، وفهم مغزاها ومؤداها، طب قلبه بين رجليه، وفهم أن الخطر بات وشيكًا، والكارثة لا بد محيقة، إذ أن الثعلب لا بـد وأن يفترس الأرانب، ويهجم على جحرهم من كل جانب، لـذلك

أخذ يفكر ويفكر، ثم إنه نظر إلى ولده في حزن وقال، اخرج من الجحر مرة أخرى، ولسوف تجد الثعلب في انتظـارك، فقل له بمجرد أن تراه، إنك لم تجد أباك وإخوتك في الجحر، وإنهم ربما ذهبوا إلى الجحر الآخر في الطرف البعيـد مـن الغيط، ثم اطلب منه أن يصحبك إلى هناك مثلما صحبته إلى هنا، وعندما تصلان، اتركه وعد مسـرعا، وسـنكون فـي انتظارك.

فلما خرج الأرنب الصغير، وأدرك أبوه أنه هالك لا محالة، إذ رأى الثعلب يسارع بالمسير معه إلى الجحر البعيد الذي لن يجده أبدا، مما يجعله يكتشـف الخدعـة، فيغضـب ويفترسه وبمجرد أن غاب الثعلب والأرنـب عـن مرمـى البصر، سارع الأرنب الكبير، بجمع أولاده، وهرب بهم من الجحر والغيط كله إلى بقعة بعيدة لا يصلها الثعلب، مضحيا بأرنبه الصغير، وهو يقول لنفسه: إن وصلك الطوفان، حـط ولدك تحت رجليك.

ثم قالت أم الخير لعزيزة: إن مـا جـرى للأرنـب الصغير، هو ما جرى للمسكينة عايدة الصـعيدية، فتـأملي حكمة ربنا في خلقه، لأن ما يجري في دنيا الحيوان، يمكـن

أن يجري في عالم الإنسان. ثم روت لعزيزة ما كـان مـن أمرها مع عايدة وهو أنها بينما كانت تجلس مستندة بظهرها على حائط العنبر القبلي تتشمس وتسلي نفسها بلعـب الكبـة بقطع طوب صغيرة، بعد أن زهقت من السـيجة، والقطـة المشمشية تتمدد مستكينة إلى جوارها فوق أحـدث خطـوط موضة الشتاء المنشورة في صفحة المرأة بالعدد الأسـبوعي من جريدة الأهرام، وتتابع بعينيها الطوبة الصـغيرة التـي تقذفها في الهواء، لتلقط واحدة من بقية الطوب على الأرض، قبل أن تسقط الأخرى المقذوفة، وإذا بأم الخير تسمع صـوتًا أشبه بعواء أليم ضارع لكلبة من الكـلاب الأرمنتيـة وقـت المخاض، ومع أنها تعرف أن لا موضع الكلاب في السـجن بسبب ظروفها القدرية التي لا تمكنها من القفـز، واجتيـاز السور العالي، أو الولوج من الباب العمـومي تحـت سـمع وبصر الحراس مثلما تفعل القطط عادة ، إلا أنها نهضت من مطرحها على الأرض، ظانة أنه ربما كانت هناك، كلبة تلـد فعلاً، مما زاد في دهشتها، لكنها لم تبتعد إلا خطوات قليلـة عن موضعها، حتى رأت عايدة، تجلس أمام وعاء غسـيلها، تحملق في دهول، وهي تصدر ذلك العواء الكلبي، ثم تقضـم

بأسنانها قطعة من صابون السجن، داكن اللون، وتمضـغها بعنف يعادل آلام مخاض لدفع سبعة جراء على الأقل، مـن الرحم، إلى الحياة.

حكت أم الخير لعزيزة، أنها جـرت بسـرعة إلـى عايدة، لتنتزع من فمها الصابون قبل أن تبتلعـه، فضـغطت على خديها النحيلين، بيديها القويتين، وهما اليدان اللتان طالما أمسكت بهما الفأس لتعزق الأرض وتقلبها، حتى تمكنت مـن إجبارها على لفظ كل حشو فمها مـن الصـابون، وعنـدما تأكدت من أن فمها، لم يعد يحوي إلا تلك الأسـنان القليلـة المتباعدة، واللسان الصغير الجاف الذي يتهته، عـادة، عنـد النطق والكلام، حررتها من قبضتها القوية، طالبة منها بحنان أن تصرخ، بكل ما تملك من قوة، وطاقـة الحـزن والألـم المكتوم في النفس، عندئذ أطلقت عايدة صوتًا طويلاً ممتـداً، ربما لو وجد من يرعاه ذات يوم – وهذا ما لن يحدث بالطبع – لكان لصاحبته شأن مع الأوبرا، إذ كان متماوجا بالأسـى والألم الذي وصل ذروته عندما سقطت مغشيا عليها.

في مساء اليوم نفسه، بعد أن نقلت، لتبيت مؤقتًا فـي عنبر الضعفاء الواقع ضمن المكان المخصص من العنـابر

كمستشفى للسجن، حكت عايدة التي ظلت تائهـة، لا تتـذكر شيئًا من الأشياء، طوال اليوم، والتي لم تأكل إلا قلـيلاً، دون شهية تذكر، حكت لأم الخير حكايتها، بعـد أن ظلـت إلـى جوارها طوال الوقت، تمدها بشراب الليمون المحلى بالسكر، ليروق دمها، وتدعك لها راحات يديها، وقدميها، ليسري الدم فيهما، بعد أن ازرقت وصارت باردة كقطع الثلج، وكانت أم الخير طوال الوقت، قبل ذلك، ترجوها أن تتكلم، وتحكي عن كل ذلك الذي يؤلمها، لأن اختزانه سوف يقودها لا محالة إلى الجنون، ثم إن عليها أن تثق فيها، وتركن إليها، بل وتضعها موضع أمها الحقيقة التي لا يمكن تعويض حنانهـا بحنـان آخر، عند ذلك الحد من كلام أم الخير، انفجرت عايدة فـي بكاء هستيري، فاق كل البكاء الذي قامت به سـيدة البكـاء الأولى أمينة رزق في كل أفلامها التي مثلت فيهـا للسـينما المصرية، لأن أم الخير نكأت بكلماتهـا موضـع الجـرح، ومكمن الألم، حتى أن عايدة ارتمت على صدرها كما ترتمي بنت على صدر أم حقيقية لها – وإن جاء ذلك علـى نحـو مسرحي – وصرخت قائلة إن أمها ضاعت، بل إنها لم يكن لها أم ذات يوم من الأيام أبدا، مما جعـل أم الخيـر تبكـي

بحرقة هي الأخرى، وتحتضنها بشدة، بعد أن ألقت المرأة البائسة بالكرة في مرمى ملعبها.

كانت السجينات يعرفن أن عايدة، جاءت إلى السجن محكومة بالأشغال الشاقة المؤبدة، بسبب قتلها لزوجها، أما تفاصيل ذلك، وأسبابه، فهذا ما لم يعرف، إلا بعد أن ألمت أم الخير بالقصة تماما، وأصبح من العادي أن تقصها عايدة بنفسها، على أية واحدة من السجينات دون حرج، أو خوف، كي لا تتركها مكتومة بداخلها تفترس مشاعرها، وتأكل في روحها التي طالما تعذبت، ومازالت، عذابا لا حد له، بات يشكل ملامحها التي هي شاهد حي على ترحيب أجدادنا القدماء، ترحيبا حارا بحملة قمبيز العسكرية قبل الميلاد بحوالي خمسة قرون، إذ كانت النظرات الحزينة المهزومة لا تنقطع من العينين الداكنتين اللتين يعلوهما حاجبين كثيفتين طويلتين، لعايدة، وكان شعرها الطويل الآري فاحم اللون، يتهدل على وجهها ذي البشرة السمراء المائلة للزرقة، والحافلة بخطوط وتجاعيد مبكرة، بالنسبة لامرأة لم تبلغ الثلاثين من العمر، إضافة للألم الراقد بداخلها، مما يجعلها على وشك الانهيار، وعلى حافة الجنون الحقيقي.

كانت عايدة في الثالثة والعشرين من عمرها، عندما قرر أهلها تزويجها من ابن عم لها، يكبرها بحوالي عشرين سنة على الأقل، وذلك بعد أن جاء عمها، وزوجته التي طالما تفاخرت بأنها من الأشراف، لاحتفاظ أهلهـا بوثيقـة نسـب تتصل بالبيت النبوي الشريف، وبعد أن شربا الشاي مع أمها وأبيها، قرأ الرجلان الفاتحة، ثم أطلقت أمها زغرودة مجلجلة في البيت، تخطت حوائطه، لتصل إلـى مسـامع الجيـران، ولتكون بمثابة إعلان عن حدث سعيد، وبعد ذلك نادت علـى عايدة وقبلتها أمام الجميع في غرفة المسـافرين المفروشـة بطاقم كراس أسيوطي، والمزينة بصور فوتوغرافية كبيـرة تسع، معلقة في إطاراتها على الحـوائط، لأبيهـا وإخوتـه، وبعض الأقارب الذين ماتوا منذ سنوات بعيدة، وبعد أن هنأها الجميع، قال لها أبوها: مبروك يا عايدة، عمك خطبك لابنـه منسي، زغردت الأم مرة أخرى، زغرودة، أطلقـت مثلهـا زوجة العم التي سوف تكون حماتها المقبلة، وبـذلت جهـدا تنفسيا كبيرا لتكون أطول من زغرودة الأم.

لم تكن عايدة تكره منسي، مثلما لم تكن تحبه، لأنهـا في الواقع لم تكن تعرفه عن قرب، فوقت أن كانت ما تـزال

طفلة صغيرة، مسموح لها باللعب مع الأولاد الذكور، كان هو شابا، يأتي لزيارتهم في أحوال قليلة لأسباب تتعلق بأمور عائلية يكلفه بها أبوه، ليوصلها إلى عمه، وعندما كانت تذهب مع أمها وأخيها إلى دارهم في المناسبات، لم يكن يجلس معهم إلا نادرا لأن أخاها كان صغيرا أيضا، بالنسبة له، وفي السنوات الأخيرة قبل الخطبة، أصبحت لا تراه تقريبا، إذ كان يعمل مدرسا في مدينة أخرى بعيدة عن بلدتهم، مما يجعله يغيب لفترات طويلة.

قبل الزواج، كانت قد حصلت على شهادة دبلوم التجارة، وهي الشهادة التي تعتبر الحل الحكومي الماكر لمواجهة الأعداد المتزايدة من الأجيال الراغبة في التأهيل تأهيلاً يمكنها من الحصول على عمل مناسب، وقد سارع عمها بخطبتها فور حصولها على الدبلوم، لتدخل مرحلة الإعداد للزواج الذي باتت أمها بسببه في حالة من السعادة والفرح تشبه حال دجاجة باضت لتوها في العش، لأن العريس، إضافة إلى أنه سوف يرث في المستقبل نصيب الأسد من أرض أبيه باعتباره الذكر الوحيد بين بنتين، انتعشت أحواله المالية انتعاشًا كبيرا، بسبب إقباله على إعطاء

الدروس الخصوصية للتلاميذ، مما جعله يساهم في تجهيز منزل الزوجية المرتقب، بكثير من الأشياء التي لا يلتزم بها العريس عادة، فبالإضافة إلى ما وجب عليه من شراء السجاد، والنجف، وخشب المطبخ، وفقًا للعرف المتبع، قام بتركيب مروحة بسقف صالة الشقة المزمعة الإقامة فيها، وغطى جدرانها بورق حائط منقوش، متنافر مع الصالون المذهب الذي اختارته أمها، وقد اعتبر ورق الجدران هذا من قبل جميع أفراد العائلة، والأصدقاء، تحفة فنية، ثمنت العريس عاليا، وبعد أن استكمل شراء الأدوات الكهربائية اللازمة للبيت من أجور الدروس الخصوصية التي كان يحصلها آخر كل شهر من أهالي تلاميذه، مقابل حصول أبنائهم على جرعات تعليمية من خلال تلك الدروس التي باتت بديلاً للدروس المدرسية التي لا يؤديها المدرسون.

راح العريس، يبتاع كل شيء يجعل الحياة سعيدة رائعة من وجهة نظره، ابتداء من ولاعة الغاز الأوتوماتيكية، وماكينة حلاقة الذقن الكهربائية، وانتهاء بالفيديو الذي كان أول من اشتراه في البلدة، وقد عرض فيلم إسماعيل يس في الجيش ذات يوم مشهود على أمه وأبيه وأختاه، وعدد من

الأقارب والجيران الذين امتلأ بهم بيت أبيه الواسع القـديم، واستهلكوا خلال ذلك علبة شاي ليبتون كبيرة وكيلو سكر.

قبل الزواج، كانت عايدة، تدرك أن زوجها المقبـل مدلل للغاية، لا يرفض له طلب عند أبيه وأمـه، لكنهـا لـم تتصور أبدا، أن له ذلك الطبع الحاد الخشـن الـذي لمسـته بمجرد أن تزوجته وبدأت معاشرتها له، وقد أدركـت بعـد ذلك، لماذا ظل أخوها غير مرحب بالزيجة لفتـرة طويلـة، محاولاً ثني أبيه عن الاستمرار فيها، بحجة أن تمنح شـقيقته الفرصة، لترتبط بمن هو أفضل من ابن العم الـذي جـرى قبوله كزوج لها على وجه السرعة، لكن الأب اعتقد أن رأي الابن بمثابة مساس بكرامته الشخصية، وانتقاص مـن شـأن أخيه وابنه، وأقسم بالطلاق المثلث، أنه سوف يطـرده مـن البيت طردا نهائيا، لا عودة فيه إن هو فاتحه في الأمر مـرة أخرى.

لم تكن علاقة عايدة بشقيقها الوحيد، من ذلك النـوع المعتاد في العلاقات بين الإخوة والأخوات في بلدة صـعيدية بعيدة كبلدتهم، فأخوها رقيق الطباع، هـادئ الشخصـية، لا تحكم سلوكه التباينات الحادة التي تحكم العلاقة بـين الولـد

والبنت، رغم أنهما تربيا في بيئة تعتبر الذكور أفضـل مـن الإناث، وتتيح لهم كل الحقوق، ولا تسمح إلا بالقليـل منهـا للجنس الذي طالما اعتبر أدنى قيمة، ولم يخلق إلا لوظـائف الحمل والإنجاب، ربما كان ذلك بسبب تقاربهما السـني، إذ كان يصغرها بعشرة شهور فقط، وقد انقطع بعد خروجه إلى الدنيا كل أمل في الحصول على مزيد من الأطفال، إذ قامت الأم بعد ذلك باستئصال بيت الولد كاملاً، فكان أبوهما يهـدد دائما بالزواج من أخرى، للحصول على مزيد مـن العيـال، وشعورهما الدائم من الصغر، بالخطر الذي كانت تلقمه لهما أمهما من جراء ذلك، فإن الحميمية التي ربطت بين عايـدة وشقيقها، بلغت حدا لم تشعر معه بالحزن لفراق أبيها أو أمها ليلة زفافها، وانتقالها إلى بيت الزوجية الجديـد، ولا لأنهـا ستنتقل إلى مكان آخر غير بيتها الذي نشأت وتربت فيه، لكن شعورها بالافتقاد كان موجها أساسا تجاه هذا الشقيق الوحيـد الذي هو توءم روحها، ورفيق أيامها منذ كانت طفلة صغيرة، ولعل ذلك الشعور بالحنين إلى أخيها الوحيد هو الذي سـاهم في تصاعد مشاعر الكراهية تجاه زوجها الذي نفرت منـه، ولم تنسجم معه منذ اللحظة الأولى لزواجها، عندما جلسـت

إلى جانبه ليتعشيا سويا، بعـد أن ذهـب أهلهـا، ففوجئـت بشراهته الشديدة للأكل، إذ أجهز على بطة وزوجـين مـن الحمام المحشو بالفريك البلدي، كانت أمها قد أعدتهم لهمـا، تاركًا لها الفتات، أما مداعباته، وغزله معها، فقـد جعلاهـا تشعر وكأنها غازية من غوازي الموالد اللواتي طالما سمعت عن سلوكهن وأفعال الرجال من طـالبي المتعـة السـريعة، مدفوعة الثمن، معهن، فكرهته عندئذ، وكرهت ملامسته لها، بعد أن باتت تحس أنها دنست سجادة صـلاة طـاهرة، وطأها خنزير نجس.

خلال شهرين من الزواج، وقبل أن تحمـل بابنهـا الوحيد، كانت الخلافات بينهما، قد تحولت إلى طقـس مـن طقوس حياتهما اليومية المشتركة، فقد بدأت يده تمتـد إليهـا بالضرب، لأسباب مختلفة، تافهة في العادة، كأن تكـون قـد وضعت علبة المربى في الثلاجة، وهو ما نهاها عنه كثيـرا، لأنه لا يحب المربى صاقعا، أو تكون قد نامت وفص لبـان مر في فمها مما يجعله يغتاظ بسبب المذاق المـر لريقهـا، عندما يقبلها، والحقيقة أن عايدة لم تكن تفعل ذلك من بـاب مضايقته، ولا من باب معاندته، لكنها كانت تفعل ذلك بحكـم

داء النسيان الخفيف الذي بدأت تعاني منه آنذاك، وهو النسيان الذي سوف يبلغ ذروته في السجن، فيجعلها تتوه عن الدنيا.

لطالما اشتكت عايدة من زوجها لأمها، باعتبارها أقرب النساء إليها، ولطالما أرتها الكدمات والخبطات الزرقاء على لحم جسدها، لتشعرها بمدى العنف الذي يقوم به زوجها تجاهها، لكن أمها كانت دائما ترفض التدخل بينهما، وتحرص على ألا تصل مثل هذه الشكاوى إلى مسامع الأب، بل وكانت تقول لابنتها إنها الملومة، لأنها لا تسايسه ولا تلاطفه، ولا تسعى لفهم طبعه كولد وحيد مدلل، وإنها لو كانت ذكية، حذقة، لجعلته مثل خاتم سليمان في يدها، لكنها حمارة، لا تقدر النعمة التي بين يديها، ولا تعرف قيمة الهدية التي أهداها ا لها، لأن زوجها رجل ملء هدومه، طول بعرض، من عائلة مؤصلة، وله وظيفة ممتازة، وطين سيرته، وإن كل بنات البلد يحسدنها لأنها تزوجت بواحد مثله، ثم إنها تتبطر على الخير، رغم أنها سوداء، لا صدر لها ولا عجز، ولولا ذلك الشعر الأسود الناعم الموروث عنها، والعينان الواسعتان، لما نظر رجل في وجهها طول

عمرها، وأن زوجها لو لم يكن أصيلاً راغبا في لـم لحمـه ودمه بالزواج منها، لاستطاع الحصول على واحدة بيضـاء شقراء تفوقها جمالاً وحلاوة لأنه مقتدر ويده تطول كل مـا يريده ويتمناه.

لم تكن عايدة، تقتنع أبدا بكلام أمهـا التـي طالمـا عاملتها بقسوة وبعنف، لم تجد لهمـا مبـررا واحـدا، منـذ طفولتها الأولى، وكانت تتعجب دائما، لأن أمها لا تدافع عنها عندما تكون خالتها في زيارتهم، وتتندر ساخرة مـن لونهـا الأسمر، وجسدها النحيل، وتقول باستهزاء إنها لا تصدق أن بطن أختها يمكن أن يحمل وينجب مثل هذه الابنة التي عثـر عليها، ولابد في كومة من أكوام الفحم فـي دكـان الفحـام، وكانت عايدة البائسة ترى أن أمها تقسو عليها أكثر، عنـدما تصر على حرمانها من البـوح بمشـكلاتها حتـى لأخيهـا الصديق، محذرة إياها من ذلك، لئلا يغضب أخوها ويثـور، فيذهب إلى زوجها ليعاتبه ويناقشه في ذلك، مما قد ينتج عنه خلاف بينهما، قد يصل إلى حد القطيعة ذات يوم من الأيـام الأمر الذي جعلها حريصة على إخفاء كـل مشـكلاتها مـع زوجها عن أخيها، بل وكانت تسعى أن تكون أمامه سـعيدة

للغاية في حياتها الزوجية التي كانت بالنسبة إليها جحيمـا لا يطاق.

وصلت المشكلات بين عايدة وزوجها إلى ذروتهـا، بعد مرور عام كامل على زواجهما، دون أن تحمل وتنجـب له طفلاً يصبح باكورة إنتاجها لعدد من الأطفال، يكون أبـا لهم كما تمنى دائما، وكانت المشكلة من وجهة نظر الـزوج أنه لن يستطيع الزواج من امرأة أخـرى بسـرعة، بسـبب النفقات الباهظة التي تكلفها تأثيث منزل الزوجيـة، وبلـوغ منتهى حلمه ومطلبه في حياة ناعمة ميسورة، لذلك فقد أخـذ يعير زوجته بين الحين والحين، بعقم مفترض، لم يكـن قـد أثبت بعد فقد قال لها طبيبان، من أولئك الأطباء الذين يفتحون عيادات خاصة بعد سنوات قليلة من تخرجهم إنهـا سـليمة تماما، بينما قالت لها طبيبـة مخضـرمة فـي مهنتهـا، إن تبويضها يمكن أن يكون ضعيفًا بعـض الشـيء، وأشـارت عليها أن تجري بعض التحاليل وأن يقوم الزوج، هو الآخر، بفحص طبي للتأكد من حالته، لكنه عندما عادت إلى البيـت من زيارة تلك الطبيبة التي كانت قـد قصـدتها مـع أختـه الكبرى، وكررت عليه ما قالته لها، عنـدما اختليـا سـويا،

لطمها على وجهها لطمة قوية، أدارت رأسها، واتهمها بأنهـا قد وصلت في تطاولها، وعدم احترامها له، إلى حد الانتقاص من رجولته، مؤكدا لها أنه لو كان تزوج من زمن بعيد امرأة غيرها، امرأة حقيقية، تحبل وتلد، لصار لديه الآن دستة مـن العيال، وقد حاول إثبات رجولته في هذه الليلة عدة مـرات، رغم قرفها الشديد منه، ورغبتها التي تجسدت واضحة لأول مرة، خلال ذلك في أن يموت، ويجيئه طاعون يشيله مـن مطرحه وهو قاعد.

فرحت عايدة فرحا شديدا، عندما أبلغتها أمها بعد ذلك بسنتين، أن زوجها قد فاتحها برغبته في التزوج من امـرأة أخرى، فقد رأت في ذلك حلاً سعيدا لمشكلتها، وانزياح لهـم ما تصورت أنه من الممكن أن ينزاح عنها، بهذه السهولة في يوم من الأيام، وقد فوجئت أمها بذلك فشتمتها متهمـة إياهـا بأنها بليدة، وباردة، لا حس أو شعور لديها، لأن أية امـرأة أخرى في مكانها، كانت ستبكي وتندب حظها وخيبة أملهـا؛ وعندما عادت إلى بيتها في ذلك اليوم، بعد زيارتها لأمهـا، وعلمها بما ينوي فعله، لم تخف شعورها بالارتياح، والرضا، وقد بدا هذا واضحا في استقبالها البشوش اللاطيف له، عندما

عاد من دروسه الخصوصية آخر الليل، فوضعت له العشاء، وعرضت عليه أن يأخذ حماما ساخنًا ليريح جسده وأعصابه، وظلت على هذه الحال عدة أيـام، آملـة أن يفاتحهـا فـي موضوع الزواج، لتقول له: سر على بركة ا ؛ وإنها موافقة تماما، شريطة أن يطلقها، وتعود مرة أخرى إلى بيت أبيهـا، لتعيش في دعة وسلام، لكنه جاءها ذات ليلـة مبكـرا عـن الوقت الذي اعتاد أن يأتي فيه إلى البيت، وطلب منها إعـداد كوب من الشاي له، ثم بدأ يتحدث معها حديثًا لطيفًا لم تعتده منه من قبل، فأثنى على تسريحة شعرها التـي مـا كانـت مختلفة بأي حال من الأحوال عنها في كل أيامها السابقة، ثم قال لها إنه فكر كثيرا، وصلى صلاة استخارة توصل بعـدها إلى أنه كان سيخطو خطوة، ربما ندم عليها بعد ذلك طـوال عمره، فقد كان ينوي الزواج من واحدة غيرها، لكنـه ثـاب إلى رشده وأقلع عن هذه الفكرة السيئة، ثم قال لها "إنـك يـا عايدة من لحمي ودمي، وسترك واجب علـي مهمـا كـان الأمر". وأخذ يشيد بأخلاقها التي لا يضمن وجود مثلها لـدى أخرى، وقدرتها على التحمل، والحياة معـه علـى الحلـوة والمرة، واقترح أن تذهب إلى طبيـب مشـهور بالقـاهرة،

تخصص في العقم، مؤكدا أنه مستعد لتحمل نفقات أية عملية يقترحها هذا الطبيب أو غيره، مهما كانت كبيرة، لأنه لم يعد مقتنعا بأطباء البلد محدودي الخبرة، ولا بكل تلـك الوسـائل الشعبية التي اتبعتها بناء على مشورة أمها وأخته الكبرى، ثم ألقى بقنبلة الليلة وهو يرشف بصوت عال الرشفة الأخيـرة من كوب الشاي، فأعلن أنه سوف يذبح عجل جـاموس، إن هي حملت بمشيئة ا ، أمام مقام السيدة أم الغـلام، شـفيعة الأطفال ومن يحبونهم، على أن يوزع لحـم العجـل علـى الفقراء والمحتاجين وعابري السبيل في الحي الذي يوجد بـه مقامها بالقاهرة.

لم يتسن للزوج الآمل في العيال أن يفعل ذلك أبـدا، مثلما لم تتمكن عايدة من استعادة سـكينتها المفقـودة، مـرة أخرى، بسبب تقاعس الزوج عن الـزواج، وهكـذا اشـتعل العنف القديم الممتد بينهما، بعد هذه الهدنة المؤقتة التي كانت مرهونة باحتمال الزواج الجديد، فقد عادت عايـدة محبطـة إحباطًا كبيرا مرة أخرى وعاد الـزوج إلـى إهانتـه لهـا، وضربها بشكل بات يتخذ أشكالاً سادية جديدة، فكان يضربها بحزام بنطاله الجلدي أحيانًا وبعصا مـن الخيـزران، كـان

يسحبها من حقيبته المدرسية، بسرعة، لينزل بهـا علـى أي موضع في جسدها، وهي العصا التـي كانـت مخصصـة لمراهقي المدرسة الثانوية الذين لا يكفـون عـن الشـجار والشغب أثناء الحصص، وفي أحد الأيام، وبينما هو يضربها ضربا شديدا قاسيا، عند المساء، إذ اكتشـف أنهـا غسـلت عشرين جنيها، وبطاقة عضويته في نقابة المعلمين كان قـد نسيها في جيب أحد بناطيله، بعد أن سهى عليها تفتيشه قبـل أن تغسله، وأنبها على ذلك فردت عليه بجفاء ولا مبـالاة، إذ قالت له ببساطة، ودون أي خوف أو شعور بالـذنب، إنهـا نسيت تفتيش الجيوب، فقام بشتمها، ثم تطور الأمر كما كان يحدث عادة إلى ضرب أسال دمها، لكن هذه المرة اختلفـت عن كل المرات السابقة، إذ رن جرس الباب، فجأة، بينما كان يضربها وهي تجري لتختبئ في الحمام، بعد أن أخـذ الـدم يسيل من أنفها ووجهها، فكف عن ضربها ليفتح الباب للقادم الذي لم يكن إلا أخيها حـاملاً معـه كيسـين مـن المـوز والبرتقال، وأمها التي كانت لا تزال عند الدرجة الأخيرة من السلم تحمل بيدها صينية بقلاوة ملفوفة بعناية في ورق ملون،

يحمل اسم محل الحلويات الذي جرى شراؤها منـه كهديـة زيارة بسيطة للزوجين.

لاحظ الأخ، بمجرد أن ولج من الباب، قطرات الـدم المتناثرة في ارضية الشقة، فسأل عن أخته التي جاءت مـن الداخل على صوت الجرس، لتستجير بالقادم من الضـرب، فلما رآها مشوشة الشعر، دامعة العينـين، داميـة الأنـف، مورمة الشفتين، تعلو عينها اليسرى كدمة، لم يتمالك نفسـه من الغضب، فجرى ناحية الزوج، منقضا عليه آخـذًا فـي ضربه، لكن الزوج الذي كان ما يزال مستشـيطًا، ومـنفعلاً انفعالا عصبيا شديدا، دخل المطبخ بسرعة، وعـاد حـاملاً سكينًا كبيرة، طالما استخدمتها عايدة في ذبح الفراخ، وانقض بها على الأخ الذي كانت طاقة عنف هائلة قد اندلعت بداخله، فبدا كالثور الهائج في حلبة السباق، ومـا كـان منـه إلا أن باغت الزوج، ساحبا منه السكين التي أوشك أن يسددها إلـى صدره، وأخذ ينهال عليه بطعنات عديدة منها، سـقط علـى إثرها الزوج كعجل الجاموس الذي كان ينتـوي ذبحـه لأم الغلام.

حاولت عايدة أن تصرخ، لكن فمها الذي فتحته عـن آخره، لم يخرج منه غير زفيرهـا الحـار غيـر المرئـي، وسارعت محاولة انتزاع السكين المنغرسة في ظهر زوجهـا الداخل في احتضاره، لكن أمها التي كانت قد دخلت الشـقة، وأغلقت الباب خلفها، سارعت لتحول بينها وبينه، وتمنعهـا من الاقتراب منه، وكأنها أعدت خطة مسبقة لقتله، إلا أنها – في الحقيقة – كامرأة صعيدية، كانت قد استوعبت على مدى حياتها كل دروس القتل الذي شهدته كثيرا في بلدة معزولـة، يعد الموت عموما، والقتل خصوصا لأجل الثـأر، تفصـيلة عادية من تفاصيل حياتها اليومية، وقالت لابنتها مشيرة إليها بالابتعاد، بصوت هادئ واثق من حكمة صاحبته:

- ابعدي.. الأحسن أن يموت.

كان ابنها ذو الجسد الناحل الشبيه بجسد أختـه، قـد سقط منهارا على أقرب كرسي في المكان، بينما عرق غزير يتصبب من وجهه المصفر صفار وجـوه الموشـكين علـى الموت، لكن الأم الجهنمية هزته بعنف طالبة منه أن يمسـح عرقه ويفيق لنفسه، فلا وقت للانهيار، وأخذت تفكـر فـي الأمر، وتعد لكل شيء كما لو كان برأسها عقل آلي دقيـق،

صنع في اليابان، ثم نادت منبهة ابنتها التي كانت ما تزال مذهولة، فاغرة الفم من عنف الصدمة، وشدة الرعب، وقالت لها بصوت حديدي جامد:

اسمعي المصيبة حصلت، والحمد أنه مات، لأنه لو كان عاش، لأصبح الموضوع حكاية لا يعرف نهايتها إلا ا ، فافهمي يا بنتي، كل كلمة أقولها لك، واعملي بمشورتي من الأول إلى الآخر، وإلا فالبوليس سيعرف الحكاية، وتصير المصيبة مصيبتين.

كانت خطة الأم بسيطة، ولا تحتاج إلى مهارة كبيرة في ترتيب الأحداث، لكنها كانت محكمة إلى حد كبير، فبعد أن مسحت بصمات ابنها المطبوعة على مقبض السكين، أمرت عايدة أن تدس يمناها في شعرها المدهون بزيت الخروع، وتمسك بالسكين، كما لو كانت هي التي قامت بالقتل، بعد أن أقنعتها أن أخاها لا ذنب له فيما جرى، وأن الذنب ذنبها، لأنها لم تسايس أمورها، وتتفاهم مع زوجها، كما كانت تنصحها، وترجوها، لتسير سفينة حياتها معه بأمان، خصوصا وأنها عاقر عقيم، وهو رجل طيب صابر على ما ابتلاه ا به من نصيب، وعلى حرمانه من ابن

يحفظ اسمه على وجه الدنيا كيلا ينقطع ذكره بين الناس، وأن عليها أن تحل المشكلة بنفسها، لئلا تودي أخاها فـي داهيـة وأن تواجه المشكلة حتى النهاية فتعترف بقتله، لأن اعترافها بالقتل أمام البوليس والنيابة، سوف يحسم الأمر، ويوقف نهر الدم الذي يمكن أن يتدفق ويسيل، إلى مدى لا يمكن الـتكهن بنهايته، لو عرف أن القاتل هو أخوها، لأن مسلسل الانتقام، ومسح الدم بالدم بين أسرتهم وأسرة عمها لن ينتهي، فلا بـد أن الأب سوف ينتقم لابنه الوحيد، فيقتل أخاها غير مكتـف بقصاص الحكومة وحكم القضاء الذي لا يعترف به أحد فـي بلادهم، مما سيجعل الأمر في النهاية يؤول إلـى أن يصـفي أبناء العائلة بعضهم بعضا ويفنى الرجال، بسببها، وهي التي لن يقتص منها أحد، ولن تحكم الحكومة عليها إلا بسـنوات سجن قليلة، لأنها لم تقصد القتل، ولم تضمره لزوجها، مـن قبل، وأن عليها أن تصر على أنها قتلتـه بالصـدفة، أثنـاء قيامها بالدفاع عن نفسها.

لم تقل الأم لابنتها بقية ما خططته، وهـو التخطـيط الذي اكتشفته عايدة بعد ذلك، ولم تنقطع عن التفكيـر فيـه، حتى وقت عضها والتهامها لصابونة السجن السـوداء، فقـد

وعدتها أمها، بينما كان البوليس يحملها في سيارته إلى قسـم الشرطة للتحقيق معها، بعد أن انتقل إلى البيت وعاين الحادث الذي هز المدينة الصغيرة، لأنه جاء من بيت لم يكـن أحـد ليتوقع أبدا حدوث مثل هذا النوع من الحوادث فيه، وعـدتها بأن توكل أكبر محام في القاهرة للدفاع عنهـا، وبرعايتهـا تماما حتى صدور الحكم، وبعدم التخلي عنهـا أبـدا طـوال حبسها، لكن ما حدث في الواقع، كان شيئًا مختلفًا تماما، لـم تتوقع عايدة حدوثه بل إنها لم تصدقه أبدا رغم مرور وقـت طويل عليه، إذ أن أمها وأباها أعلنا بمجـرد الحكـم عليهـا بالسجن المؤبد التخلي عنها، والتبرؤ منها حتى يـوم الـدين كمجرمة قاتلة، لم ترع حرمة لقرابة أو دم، بل والأكثر مـن ذلك أنهما اعتبراها ميتة بالنسبة لهما، دون أن يتقبلا العـزاء بها، بالإضافة إلى ما كان أنكى من ذلك وتم لإرضاء أسـرة الزوج المقتول، وهو إجبار شقيقها، ذلك الشـاب الصـغير الرقيق، على الإقدام تحت ضغط الأب والأم، على الـزواج من شقيقة القتيل الكبرى، رغم أنهـا أرملـة تكبـره بتسـع سنوات، ومصابة منذ طفولتها بشلل الأطفال، ورغم أن عايدة حاولت الاتصال بهم بشتى الأشكال، فأرسلت لهم عشـرات

الخطابات، ثم شيعت لهم أخبارها مع سجينة من بلدتها التقتها في السجن، وحصلت على إفراج بعد انتهاء نصف المدة المقررة لها، بسبب سلوكها الحميد، إلا أن الأيام والشهور، كانت تتتابع، دون أدنى كلمة من هؤلاء الأهل القاسية قلوبهم قسوة الصخر، مما جعلها تنهار تماما، وتندم على اللحظة التي وافقت فيها أمها على رأيها وانصاعت لتنفيذ خطة الاعتراف الجهنمية التي رسمتها، ورغم أنها ترددت وقتها وخافت، إلا أن نظرات الأم الصخرية المخترقة لروجها وكيانها، أخافتها أكثر، بالإضافة إلى خشيتها على أخيها الحبيب الذي ما قتل زوجها إلا لفرط تعاطفه معها، وحرصه على كرامتها الضائعة.

بعد أن فقدت عايدة الأمل في استعادة أي خيط يربطها بأسرتها وبعالمها القديم، وقعت فريسة الحزن والأسى وباتت تشتهي الموت، مثلما تشتهى وتتمنى رؤية أخيها الحبيب الذي طالما أرسلت له الرسائل تستعطفه وترجوه أن يرد عليها، وكان أكثر ما يعذبها أن قلبه الحنون الرحيم بها دائما، رضخ لتأثير أمه وأبيه، وطاوعه في التخلي عنها ونسيانها والبخل عليها حتى بكلمات قليلة يرسلها إليها في

خطاب، وهي بهذا المكان الرهيب، بل وكانت لا تتمنى شيئًا في الحياة، قدر تمنيها لرؤيته مرة واحدة لتواجهه وتضع عينيها في عينيه الجميلتين، وتعاتبه على قسوته معها، وهي التي ما قبلت أن تمثل دور القاتلة إلا لأجله، ولأجل الحفاظ عليه سالما من غير سوء.

لكنها ذات يوم، وهو اليوم الذي أكلت فيه الصابون التقت بالصدفة في مطبخ السجن بسباك، تعرف عليها منذ الوهلة الأولى، فقد كان يقطن بالشارع نفسه الذي سكنت فيه في بلدتها البعيدة، لما كانت متزوجة، وعرفت أنه محكوم عليه بالسجن أيضا، ونزيل في سجن الرجال المجاور بتهمة سرقة كابلات التليفونات، فأخذت تسأله عن أحوال أهلها بشغف، فقال لها إن أمها بخير وكذلك أباها وعمها وزوجته، لكنه عندما سألته عن شقيقها الذي كان أمره يهمها، أكثر من هؤلاء جميعا، تلكأ قليلاً ثم قال لها إنه مات، فقد حاولت زوجته أن توقظه من نومه ذات صباح ففوجئت به لا يرد عليها، فلما أعادت المحاولة مرة أخرى، اكتشفت وفاته، وقد شخص طبيب الصحة الوفاة على أنها بسبب سكتة قلبية مفاجئة، داهمته أثناء نومه، لكن البلد كلها تقول إن زوجته

سمته، بسم نادر لا يترك أية آثار على الجسـد، أو فـي أي عضو من أعضائه، عند ذلك تركتـه عايـدة، وخرجـت لا تحملها قدماها إلى فناء السجن وظلت واقفة، فاغرة الفم، كما كانت لحظة أن قتل شقيقها زوجها، لكنها سرعان ما سـارت إلى عنبرها، وجمعت ملابسها القليلـة، وفـرش سـريرها الأبيض، وذهبت لتغسلهم، رغم عدم اتسـاخهم، فقـد كـان الغسيل، ودعك الثياب، والانكباب عليها بهمة ونشـاط، هـو الوسيلة المثلى التي اكتشفتها عايدة لتفريغ همها، والفضفضة عن مشاعرها المكبوتة، كلما ضاقت بها الدنيا، فحارت معها تصرفا، لكنها، رغم أنها غسلت بما يكفي، وأعادت دعك ما ليس بحاجة إلى الدعك، عدة مرات، شعرت أن الغسيل فـي هذه المرة لا يفرج عن همها، ولا يشـفى غليلهـا، بـل ولا يمتص كل طاقة الألم التي بداخلها، لذلك لم تتمالك نفسـها، فراحت تعوي كما الكلبة من فرط الألم الـذي بـات يمـزق روحها، بل ويتجسد في آلام فظيعة ببطنها، كما لو كانت تلد بالفعل، رغم أنها ما جربت يوما آلام الولادة والمخاض، ثـم بدأت في التهام الصابون، لأنها وجدته أفضل مـن التـراب الذي تجلس عليه، وكانت على وشك أن تسفه أيضا، لولا أم

الخير التي جاءت إليها لتضغط على شدقيها بقوة، ومنذ تلـك اللحظة، لم تدر أو تع شيئًا، حتى فتحت عيناها مرة أخـرى، لتجد نفسها على سرير في مستشفى السجن.

كانت عزيزة طوال استماعها لحكاية عايدة، تحملـق في الأرض دون أن ترد إلا بكلمات قليلة لتؤكـد لأم الخيـر أنها مازالت تسمعها وتتابع حكايتها، خصوصا عندما تتوقف أو تحكي في بطء لتشد عزيزة إلى حكايتها عن عايدة التـي جعلت الأخيرة تفكر أثناء متابعة تفاصيلها في كميـة الألـم والحزن اللذين عانت منهما هذه المرأة الصغيرة، بسبب تنكر أهلها لها، وكان ما يدهشها في الحكاية أكثر مـن أي شـيء آخر، قسوة الأم العجيبة وجحودها، وتخليها عن ابنتهـا فـي مثل هذه الظروف الصعبة، كما أدهشتها كثيرا تقاليد الصعيد الجامدة، والإصرار على الأخذ بالثأر، ومواجهة الدم بالـدم، لأنها تعكس جهلاً بأمور الدنيا، وقصورا في فهم القصـاص، فلو كانوا يدركون ويفهمون الحياة مثلما أدركتها وفهمتهـا ، لعرفوا أن ثمة قانون خفي للعدالة، قانون يتجلى فيه القصاص بألف صورة وصورة، ولربما اقتص المجني عليه من الجاني بنفسه، إذ يعيش بداخله ليؤرق ضميره ويعذب روحه.

ثم إن هناك قصاص الزمن الذي يقتص من كل شيء في الحياة، عبر التحول الدائم والتغير لكل ما يبدو وكأنه لـن يتغير أبدا، كمشاعر الأمومة التي تحولت لقسوة بالغة من قبل أم عايدة.

بعد أن انتهت أم الخير من حكايتها عن عايدة، بعـد أن قصتها بدقة، ودونما أدنى تحوير في خطواتها الرئيسـية، استعاذت با من الشيطان الرجيم، ورفعت يديها بالـدعاء، طالبة الخير والصحة والعافية لأولادها العشرة، وأن يوقـف لهم أولاد الحلال لتساك أمورهم في الـدنيا، عندئـذ كانـت عزيزة، بعد أن فكرت وفكرت، قد استقر قرارها على ضـم عايدة أيضا إلى عربتها الذهبية الصاعدة إلى السماء، لكنها لم تقل ذلك مباشرة لأم الخير، إذ فضلت أن تتدلل عليها قلـيلاً قبل ذلك، فطالبتها بصنع مهلبية باللبن المجفف والنشا بيـدها الحلوة الماهرة، ثم قامت فناولتها قليلاً من السكر وضعته في طبق كمساهمة منها في المهلبية ، وهمست لها:

قولي لعايدة بينك وبينها في السر، إنها طالعة معنا إن شاء ا .

ولم تفكر أم الخير للحظة واحدة فيما قالته عزيـزة، لأنها كانت لا تأخذ بكلامها مأخذ الجد لقناعتها بـأن عقلهـا خفيف.

في العربة الذهبية ذلك أفضل جداً

بدا البلاط القديم لعنبر عزيزة الإسكندرانية، نظيفـًا لامعا، رغم لونه الأبيض الكالح الذي عفا عليه الزمن، لكثرة الاستخدام، بعد أن أخلصت البنت جمالات في دعكه بالخيشة، والماء المضاف إليه قليل من سائل الكلور المسموح به دون غيره من سوائل التطهير والتنظيف، ليستخدم كالفنيك الـذي تفضله عزيزة لرائحته القوية النفاذة، لكنه لسوء الحظ كـان ممنوعا، لأنه يعبأ في زجاجات داكنة، وليس فـي عبـوات بلاستيكية، شفافة، لا يخشى من استخدامها في حوادث عنف قد تنشب بين نزيلات السجن.

نظرت عزيزة برضا إلى البلاط المغسول الرطيـب رطوبة محببة في ذلك الوقت الحار من السنة، وإلى الحاشية الرقيقة المركونة إلى جوار الحائط علـى الأرض، بعـد أن تخلت راضية عن سريرها الفردي الحديد، لواحدة سياسـية، من اللواتي تراهن بين مدة وأخـرى، دون أن تجـد سـببا مقبولاً، لإيداعهن السجن، ووضع الحكومة رأسها برءوسهن،

وقد بدت هذه السياسية لطيفة جدا في علاقتهـا بعزيـزة، إذ حيتها ذات مرة أثناء عبورها بالدهليز، وهـي واقفـة مـع عظيمة الطويلة، فتشجعت عزيزة، واقتربت منهـا لتعـرف حكايتها، بعد أن ابتسمت السياسية ابتسامة واسـعة مرحبـة، وقد خمنت أنها ربما كانت شيوعية، أو من الإخوان، لأنهمـا النوعين الوحيدين من السياسيات اللـواتي التقـت عزيـزة ببعضهن، طوال فترة وجودها في السجن.

فكرت بسرعة أن السياسية لا بد أن تكون شـيوعية، لأنها غير محجبة، وبدا عليها المرح والبساطة بعض الشيء، فلامت عزيزة نفسها، لأنها لم تعد كما كانت في السابق تفهم الأمور وهي طائرة، لأن عقلها صاح، وتفكيرها نشيط، فلما تحدثت معها، قالت البنت الكلام الذي كانت عزيزة قد سمعته من الشيوعيات اللواتي التقتهن في السجن مـرات ومـرات، دون أن تفهم منه شيئًا، أو تدرك سببا لكـل وجـع الـدماغ والقلب اللذين تجلبهما نساء على شاكلة هذه الفتاة لأنفسهن، إذ أن معظم اللواتي التقتهن عزيزة كن متعلمـات محترمـات، يشغلن وظائف لا بأس بها، ويعشن في ظـروف ميسـورة، أحسن من ناس كثيرين، فقد رأت دائما الزيارات المفتخـرة

الداخلة لهن كل يوم والثاني، والسجائر الواصلة بالخرطوشة لمعظمهن.

لذلك تنهدت عزيزة وتصعبت بعد أن استمعت إلـى حكاية البنت التي لم يكن فيها أي جديد بالنسبة لها، إذ طالما سمعت مثلها من كثيرات قبلها، وظل رأيها فيها دائما، أنهـا حكايات لا تهش ولا تنش، ولا رجاء فيها، لأن النـاس فـي دنيا، وهؤلاء السياسيات في دنيا ثانية بحق وحقيق، لأنهن لا يعرفن شيئًا عن حياة الناس الفقراء الذين يتحدثن عنهم دائما، ثم إنها أطلت برأسها إلى زنزانة السياسية فلـم تجـد بهـا سريرا، ورأت مرتبتها الإسفنجية موضـوعة علـى الأرض فلما سألتها السياسية عن قصتها، حكت عزيزة جانبـا منهـا باختصار، فابتسمت تلك الفتاة مرة أخرى، وطيبـت خـاطر عزيزة مقدمة لها، على سبيل الهدية، علبة سجائر مارلبورو كاملة، مما جعل عزيزة تمتن جدا لذلك الكرم الشديد، وتحار في الكيفية التي ترده بها، وبينما هي راجعة إلـى غرفتهـا قررت أن تعطيها سريرها الحديد، لأن عزيزة لا فرق عندها في النوم على سرير يرتفع عن الأرض، أو علـى فـراش موضوع على البلاط مباشرة، فالجو وقتها كان صيفيا حارا،

ثم إنها فكرت كذلك في أن تصحبها إلى السماء عند ساعة الصفر التي ستصعد فيها العربة الذهبية ذات الأفراس المجنحة، وقد حققت عزيزة بالفعل فكرتها الأولى، إذ طلبت من البنت جمالات، وعظيمة الندابة، أن تحملا السرير وتضعاه في عنبر السياسية، أما فكرتها الثانية، فقد أجهضتها الحكومة، إذ أفرجت عن البنت بعد انقضاء شهر واحد على حبسها، مما جعل عزيزة، تندم ندما شديدا في البداية، لأنها لم تخبرها بأمر بالصعود السماوي قبل أن تحصل على أمر الإفراج عنها، فالبنت السياسية، كانت ولابد سوف تتحايل على الأمر، حتى لا تغادر السجن وتنضم إلى راكبات العربة الصاعدة إلى العالم السماوي الجميل الذي لا مثيل له على الأرض أبدا.

لكن عزيزة، بعد قليل من التفكير، حمدت ا على خروج البنت من السجن، لأنها لو انضمت للعربة بالفعل فإنها لن تكف بالتأكيد عن الكلام في السياسة، وتحريض كل من فيها ضد الأوضاع المزرية التي عشنها في السجن، مما يجعل الحكومة تقال عقلها، فتقبض عليها، حتى لو كانت العربة قد ارتفعت فعلاً في عنان السماء لأن لدى الحكومة

طائرات كثيرة يمكن أن ترسل إحداها للقـبض علـى هـذه البنت، مما يعرقل أو يفشل عملية الصعود.

تأملت عزيزة الحجرة الواسعة جيدا وبعد أن تأكـدت من ترتيب الأشياء القليلة الموجودة بها، وهي ثيابها القديمة، ومشطها ودبابيس للشـعر، وبعـض الأطبـاق والأكـواب البلاستيكية، وأيقنت أن كل شيء فيها صار نظيفًا مرتبا، على ما يرام، نظرت برضا إلى جمالات التي جعلت ذلك كله على ما يرام وقالت لها:

- إن شاء ا   تسلمي يـا جمـالات.. وا   روحـي ردت.

ابتسمت جمالات ابتسامتها الطيبة التي تجعل وجهها المستدير، ملائما للطبع على مغلف مـن مغلفـات حلـوى الأطفال، وردت على عزيزة قائلة :

- يعني أنت راض ومبسوط يا قمر؟

جالت عزيزة ببصرها في أرجاء الغرفة مرة أخرى، بنوع من الترفع المفتعل الذي تظهره عادة في حضور مـن هم أدنى منها، منذ زمانها القديم، ثم صمتت قليلاً، وقالت:

- طيب.. اغسلي الصفيحة وحياتك، وحطيهـا فـي مكانها، وتعالى كلي لقمة تسند بطنك.

خرجت جمالات لتغسل صفيحة الفضلات التي كانت قد تركتها بالحمام الجماعي الموجود في نهاية الدهليز المطلة عليه العنابر، فأخذت عزيزة تعد لها رغيفًا وقطعة من الجبن الأبيض الذي كانت عظيمة الندابة، قد أعطتها بعضـا منـه، إضافة إلى سيجارة كليوباترا مـن النـوع المحلـي، غيـر المخصص للتصدير، لغنى توليفته بنشارة الخشـب، ربمـا بسبب الحرص على صحة المدخنين، بالإضافة إلـى ثمـرة جوافة من أصل أربعة، أعطتهم لها صـفية هيـروين التـي وزعت قفص جوافة على صديقاتها، ومحباتها، كان ولداها قد جاءاها به في الزيارة، فلم تحتفظ به، خشية أن تفسد الجوافة، إن هي ظلت لديها عدة أيام، خلال ذلك راحت عزيزة تفكـر في أحوال البنت جمالات.

عادت جمالات ووضعت الصفيحة النظيفة في ركـن الغرفة البعيد عن الفرش والملابـس، ثـم جـاءت لـتجلس القرفصاء، على الأرض الممسوحة، قبالة عزيزة، وأخـذت

تغمس الخبز بالجبن، بعد أن وضعته على سطح الرغيف، ثم قالت وهي تمضغ:

- عاوزة رأيك في موضوع يا خالة عزيزة.

- خير !؟.

ردت عزيزة بتساؤل، وقد جحظت عيناهـا اللتـان ركزتا بصرهما على وجه جمالات الملائكي السمات، قليلاً، لأنها ظنت أن جمالات سوف تفاتحها في موضـوع العربـة الذهبية المجنحة، ورغبتها في الانضمام إليها عند صـعودها إلى السماء.

دفعت جمالات ما تبقى من الخبز فـي فمهـا مـرة واحدة، بعد أن نفد الجبن، وأردفت بينما هي تـدفع بلسـانها حصوة صغيرة، عثرت عليها في لقمتها الأخيرة، لتلفظها من فمها:

- تعرفي.. لما أخرج من هنا إن شاء ا ، بعد نهاية مدة الحبس، فكرت أغير شغلي لأن السرقة أصبحت مشاكلها صعبة، وكلها جري ورمح ونط هنا وهناك، وفي آخر اليوم،

لا حاجة تجيب همها، أنا فكرت أشتغل شغل البنات الأصلي، وكفاني وجع نافوخ.

اتسعت عينا جمالات الواسعتان أكثر، وهما تنظران إلى عزيزة ببراءة ، بينما كانت تفضي إليها بهذا التصـريح الخطير الذي لم تقله لأحد غيرها من قبل، أبدا، لأنها تثق بها وتشعر معها بالراحة والأمان، رغم كل ما يشاع عن جنونها في السجن، لذلك فضلت خـدمتها علـى خدمـة زعيمـات المخدرات اللواتي يغدقن بلا حساب على كل مـن يتعـاملن معهن ويقمن بخدمتهن، واللاتي يشترين كل شيء في السجن بفلوسهن الكثيرة، بما في ذلـك السـجانات أنفسـهن، لكـن جمالات رغم شعورها بجنون عزيزة، بعض الشيء، لأنهـا تنظر إليها نظرات مخيفة أحيانًا، وتبتسم دونما مناسـبة فـي أحيان أخرى، أثناء أحاديثهما، إلا أنها تعتبرها إنسانة طيبـة حنون، وما بيدها لغيرها دائما، فما قصدتها جمالات يوما في طلب شيء إلا وقدمته لها إذا كان بمستطاعها، لذلك لم تأخذ جمالات أبدا، بكل التحذيرات التـي طالمـا سـمعتها مـن بعضهن، بخصوص عزيزة، وقولهن إنها قـد تضـربها أو تعتدي عليها، إذا ما غضبت أو ثارت، ثم إن جمالات لم تجد

من هي أفضل من عزيزة في السجن لتخدمها وتؤاخيها، كما يجب أن تكون المؤاخاة بين السجينة والسجينة، إذ تصـيران كالأختين المخلوقتين من رحم واحد، تتراحمان وتتعاطفـان، وتربط بينهما محنة العزل، وعقوبة الحبس داخل الجـدران، وها هي تبوح لها بسرها، وتستشيرها فيما هي ناوية علـى فعله، إن قدر لها أن تعيش وتخرج بعيدا عن هذا المكان، لأن عزيزة كبيرة، وفاهمة الدنيا أكثر منها، ولها نظرة في الناس حكيمة، طالما أثبتت الأيام صحتها.

أطرقت عزيزة برأسها في الأرض، مفكـرة، ولمـا طال إطراقها وسكوتها على جمالات، واصلت الفتاة كلامهـا لتوضح وجهة نظرها فقالت:

- الدعارة سهلة ومأمونة، وأحكامهـا خفيفـة، لـو حصل أن البوليس عمل كبسة، ولو ركزت فيها سـنة وراء الثانية، عملت لي قرشين منها، وبعدها، أبعد عن الهم كلـه، وأفتح لي دكانًا وأتاجر في أي شيء، يطلع لي لقمـة عـيش والسلام.

لم ترد عزيزة كذلك، لأنها كانت مشـغولة بمتابعـة نملة فارسية كبيرة، راحت تجرجر فتيتة خبز صغيرة سقطت

من جمالات على الأرض، بينما كانت تأكـل، منـذ قليـل، تعقبتها عزيزة ببصرها حتى أوشكت على الدخول في مكمنها بخرم أسفل إفريز باب الزنزانة القديم الذي تقشر طلاؤه حتى بان لون خشبه داكنًا مسودا، لكثرة الاستعمال، عندئذ قالـت لها:

- تعالي لفوق أريح اك.

ردت النملة بأن اختفت في الخرم تماما، أما جمالات التي لم تفهم ما تقصده عزيزة بكلامها، فقد تشاغلت بإبعـاد خصلات شعرها البنية الناعمة التي تساقطت على وجنتيهـا وقالت:

- تعرفي.. إحتمال أن يجيبوا لنا لحما بكرة، نفسـي ألاقي فيه هبرة سمينة، أسلقها، وأعمل بمرقتها فتـة بالخـل والثوم، ونقعد، نتغدى أنا وأنت هنا.

رفعت عزيزة رأسها عـن الأرض، وطلبـت مـن جمالات أن تقوم، فتعمل لهما كوبين من الشاي، فلما وقفـت، ظلت عزيزة تتابع جسدها الممتلئ قليلاً، وسـاقيها البضـتين البيضاوين، بينما أخذت تفكر فيما قالته لها، فهذا الكلام جديد

عليها، لم تقله من قبل أبدا، رغم الشهور الطويلة التي مرت على علاقتهما وتآخيهما في هذا السـجن، ورغـم معرفتهـا الدقيقة بالبنت وقصتها التي أدت إلى حبسها في السجن.

كانت عزيزة تعرف أن جمالات تنتمي لأسـرة مـن الغجر السراقين المحترفين للنشل والسرقة، أبا عن جد، وأن رجال العائلة، يمارسون نشاطهم في السعودية والخليج، خلال موسم الحج بشكل خاص، حيث يكون الازدحـام البشـري، وتنوعه حقلاً ممتازا لعملهم، أما جمالات وأختها اليتيمتا الأم فقد عاشتا حيث احترفت جمالات نشاطها اللصوصـي فـي مدينة طنطا على وجه التحديد، خصوصا أيام مولـد السـيد البدوي، حيث يكون زحام الناس على أشده، وانصرافهم إلى مباهج المولد في ذروته، مما يتيح الفرصة للسرقة بسـهولة ويسر.

لكن جمالات، جرى توقيفها لسبب آخر غير السرقة، والمسألة أن أختها التي تصغرها بحـوالي ثـلاث سـنوات، والتي تفوقها جمالاً، كذلك، تعاني من تخلف عقلي ونقص في الذكاء، بسبب تعطل بعض وظـائف المـخ أثنـاء ولادتهـا المتعسرة التي توفيت أمها على إثرها، وقد تعرضـت هـذه

الأخت التي تمتلك شعرا أكثر نعومة من شعر أختها، وعينين عسليتين جذابتين، لملاحقة شاب لها، حاول توريطهـا فـي علاقة معه، بعد أن لاحظ أنهما تسكنان بمفردهما فـي شـقة مفروشة، وهو الشيء غير المستحب اجتماعيـا بسـبب مـا كرسته السينما المصرية عن سكان هذه الشقق، مـن أفكـار تسمهم بعدم الاستقامة الأخلاقية عادة، وبسبب ارتباطها بعالم النفط الذي انتعشت بسببه عمليات تأجيرها، وما ترتب علـى ذلك من أفعال لا يرضى بها شرع ولا ديـن، والمشـكلة أن الأخت العبيطة، موفورة الجسد، كانت تهتم باللبان والحـلاوة الفولية، أكثر من اهتمامها بذلك الشاب الذي لم تكـن تشـعر بوجوده وملاحقته لها، مثلما لم يكتشف هو تخلفها أبدا، لكـن جمالات خافت أن يتهور هذا الشخص يوما، ويفعل مع أختها ما لا تحمد عقباه فتصير المشكلة التـي تواجههـا جمـالات مشكلتين، إن ترتب على ذلك، مع الأخـت، مخلـوق ثالـث صغير، تضطر لإعالته كما تعول الأخت – الصليب الـذي تحمله على ظهرها دوما، وينغص حياتها ليلاً ونهارا، فهـي تصحبها دائما عند الخروج، وإن تركتها، كان عليها إحكـام إغلاق النوافذ جيدا، ولف مفتاح باب الشقة من الخارج عـدة

لفات، خشية أن تفتحه العبيطة، أو يتمكن أحد من فتحه مـن الخارج، ورغم كل ذلك تظل جمالات، وهي بعيـدة عنهـا، واقعة تحت هاجس تعرضها للخطر في غيابها، كأن تعبـث بأداة حادة، أو تشعل النار في البيت دون إرادة منها.

حاولت جمالات – في الحقيقة – أن تجعـل أختهـا تساهم في إعالة نفسها، فجربت أن تعلمها مبـادئ السـرقة، وأساليب نشل خفيفة، لكن هذه الأخت كادت أن تحدث مشكلة لجمالات، إذ طلبت من رجل عجوز يسـير فـي الطريـق، صراحة أن يعطيها ما بجيبه من نقود، بعد أن سـددت إلـى صدره كوز ذرة كان بيدها تأكل منه، ولـولا أن العجـوز، اعتبرها مداعبة لطيفة من شابة صغيرة لا تخلو من شـقاوة، لكانت المسألة قد كبرت إلى حد لا يعرف مداه إلا ا .

كانت جمالات، قد نصحت الشاب الذي يعمل كصبي حلاق نسائي في محل أسفل العمارة التي تسـكن بهـا مـع أختها، بألا يتعرض لهذه الأخت وإلا فإنها سـوف تضـربه علقة تجعله فرجة، لكل من يتفـرج ولا يشـتري، وطالبتـه بالابتعاد عنها، وتركهما لشأنهما، لكنها فوجئـت ذات يـوم بالشاب يدق باب البيت، فلما فتحت له لتنهره وتقول له إنـه

يجب ألا تتصل به الأمور السخيفة التي يقوم بها معهما إلى حد الملاحقة حتى باب الشقة، دفعها بشدة، بدلاً من التراجع والاعتذار، محاولاً الولوج إلى الداخل، فما كان منها إلا أن جرت، فحملت المكواة الساخنة التي كانت تكوي بها حينئذ بلوزة حريرية، حمراء، سرقتها من محل شهير بالمدينة، وقذفته بها بعد أن خلعت سلكها الموصل للكهرباء، فأصيب الشاب على الفور بارتجاج في المخ، حسب تشخيص أطباء المستشفى العمومي، لأن المكواة سقطت على رأسه مباشرة.

فكرت عزيزة في أن لولا الكوافيرة، يمكن أن تكون هي التي حاولت إغواء جمالات، لأن لولا قوادة محترفة، ترددت على السجن عدة مرات بسبب إدارتها لشبكات دعارة متعددة، وكان من بين ضحاياها طالبات جامعيات، وموظفات، ونساء لهن وضعهن الاجتماعي، لكن عزيزة تراجعت عن فكرتها هذه، لأن جمالات تكره لولا كراهية لا حد لها، وهي دائمة السخرية منها بسبب اكتشافها لشذوذها، فقد كانت لولا تلتصق بجمالات، دونما مبرر معقول، كلما رأتها واقفة في فناء السجن، وتحرص على ملامستها بطريقة غير طبيعية، وظلت جمالات في بداية الأمر، تفسر ذلك على

أنه نوع من الحب والحنان، وتسعد به كثيرا، لأنه ما من أحد يحنو عليها، أو يحوطها برعايته، لكنها في أحد الأيام، كانت تستحم في حمام السجن، والماء يتساقط من الصنبور ضعيفًا، لأن محبس الماسورة العامة الموصلة للمياه كان مكسورا منذ حوالي شهر، والماء يتسرب منه، فلا يصل بالقدر الكافي إلى صنبور الحمام، فطلبت من لولا أن تحضر لها وعاء ممتلئًـا بالماء ولما أدخلتها لتضع الماء اقترحت عليها أن تدلك لهـا ظهرها بالليف والصابون، وقد اكتشفت جمالات أثناء ذلك أن لولا ترغب في أداء دور أبعد من عملية تنظيف المواضـع التي لا تصل إليها يد جمالات، وكانت أنفاسها تتلاحق وهـي تتغزل في تفاصيل جسدها الذي كان جميلاً بالفعل، رغم ميله للامتلاء قليلاً، ورغم أن جمالات سارعت بطردها، لأنها لم تكن بحاجة إلى المزيد من الدلائل، للتأكيد علـى فجورهـا ووقاحتها، إلا أنها لم تكتف بذلك، بل شهرت بها أمام كل من هب ودب في السجن، وخصوصا أولئـك اللـواتي يحبـبن الثرثرة في الأمور التي من هذا النوع، كحيزبونـات عنبـر العجزة، وأم رجب باعتبارها عين الإدارة على السـجينات. صحيح أن التشهير أفاد لولا في جانب منه، لأن سنية مطار،

وهي أشهر تاجرة مخدرات في السجن، محكومـة بالمؤبـد بسبب جلبها المخدرات من خارج البلاد بالطـائرة، تلقفـت الخبر بسعادة بالغة وضمت لولا إلى قائمة عشـيقاتها، إلا أن السخرية المرة التي كانت جمالات لا تفتأ تمنح جرعات منها للولا، كلما التقتها، ساهمت في تسميم عيشتها، وجعلتها فـي حالة ضيق دون أن تقوى على الرد، لا بسبب أدبهـا وعفـة لسانها الذي لم يعرف العفة في يوم من الأيام، مثله مثل بقية جسدها، ولكن لأنها كانت، ورغم الإهانات، ورغم الجفـاء، واقعة فعلاً في غرام الفتاة الصغيرة التي باتت تؤرق لياليها.

لم تعرف عزيزة أبدا، من التي تقـف وراء فكـرة تغيير جمالات لنشاطها، وكيف تسنى لها إقناعها بـذلك، لأن عزيزة لم تتعرف بعد على هدى، أحـدث نـزيلات عنبـر الجرب التي وصلت السجن منذ أسبوع واحد فقـط، ورغـم كونها أصغر امرأة – زوجة في السجن كله، إذ أن عمرهـا تجاوز السادسة عشر عامـا، وهـي أم لطفلـين، إلا أنهـا استطاعت إقناع جمالات بتغيير نشاطها، إلى ما هـو أنجـح وأكثر عملية، من وجهة نظرها، بحكم تجربتهـا القصـيرة العميقة في الحياة.

جاءت هدى إلى سكة الرذيلة عبر دروب ملتوية، لم تكن تتصورها أبدا كانت البداية قبل سنوات، عندما دخلت، لأول مرة، مع أمها قسم الشرطة، لا كمتهمة مدانة من قبل الحكومة، ولكن للإبلاغ عن قتل دجاجة، كانت الأم تملكها بالإضافة إلى أربعة عشر دجاجة أخرى، أشرفت على تربيتها منذ لحظة خروجها من البيض وحتى صارت دجاجات بياضة، وقد وجهت أم هدى اتهامها ضد جارة تعيش في عشة مجاورة لعشتهما في أحد أطراف المدينة التي تكاثرت في غضون سنوات معدودة وتمدد جسدها، لتصبح كما لو كانت عدة مدن ريفية كبيرة؛ قبل ذلك كانت الأم قد ذهبت إلى المستشفى الحكومي، ليس بسبب عينها التي فقدتها في المشاجرة مع الجارة الجبارة التي أصابتها بضربة مباشرة في العين، مستخدمة في ذلك طوبة كبيرة، كانت كافية لأن تفقأها، بل لإقناع الطبيب المناوب الذي لم يقتنع بالطبع بتحرير شهادة وفاة للدجاجة القتيلة، تثبت أنها قتلت خنقًا، حتى تتمكن من تقديمها للبوليس، ليتخذ الإجراءات اللازمة ضد الجارة.

لما فشل الطبيب في إفهام أم هـدى أنـه لا يحـرر شهادات طبية للدجاج، لكنه يمكنه تحرير شهادة يثبت فيهـا حالة الضرر الجسيم الذي ألم بعينها المفقوءة؛ تركتـه علـى أساس أنه من الحكومة التي لا تفهم أبدا جـوهر المشـكلة، وحقيقة الأمور وتوجهت إلى قسم الشرطة الذي التقت علـى بابه بشاويش مخضرم لم يهـتم بعـين الأم الضـائعة، ولا بالدجاجة المغدورة التي كانت ترقد بلا حراك ملفوفة بطرف الطرحة السوداء الطويلة للمرأة قدر اهتمامه بالجسد الأبيض البض للبنت الصغيرة التي كانت تقف، آنذاك، ملتصقة فـي خوف بأمها، ترقب ما يدور أمامها بحذر، فقدم لهما مشروبا صاقعا على حسابه، وهذا ما لا يحدث في أقسـام الشـرطة، عادة، وطمأن الأم أنه لا بد منتقم مـن عـدوتها المجرمـة، وسألها عن البنت وأحوالها، ولم تمر ربع ساعة أخـرى، إلا وكان قد عرض على الأم الزواج من تلك الصغيرة الواقفـة إلى جوارها.

نسيت الأم العين المفقـودة، والدجاجـة المغـدورة، والجارة القاسية، بفعل المفاجأة الخطيرة، فهي لم تحلم في يوم من الأيام، أن تجمعها صلة، بأي شكل من الأشكال، بشخص

له علاقة بالحكومة، بل ويحتل بها موقعا مرموقًا إلـى هـذا الحد، لذلك لم تضع وقتًا طويلاً في التفكير، ووافقـت علـى تزويجه ابنتها فورا، بينما كانت تتأمل بإعجـاب الأشـرطة الملونة المثبتة على ذراعه مما يدل على أنه شـاويش فعـلاً وليس جنديا عاديا بلا أشرطة في الشـرطة، واعتبـرت أن الأقدار قد قذفت به في طريقها، لتنتشلها من حياتها التي هي في أسفل السافلين، وتخرجها إلى وجه الدنيا، وقد كان الرجل سخيا، جادا في عرضه، إذ وعدها بثلاثـين جنيهـا كمقـدم صداق، ومثلهم لتجهيز هدوم ولوازم العـروس الصـغيرة، كما أعلن عن نيته في تقديم سوار ذهبي لها مـن محـلات الجمل المتخصصة ببيع الحلي النحاسية المطليـة بالـذهب، والمضمونة ضمانًا قانونيا بدمغة مصلحة سك العملة، وهـو النوع الذي يروق لفقراء الفلاحين كثيرا، ولا يقـوون عـادة على شراء غيره.

خلال شهرين، استطاع الشاويش أن يصـبح زوجـا للفتاة التي لم تبلغ، من عمرها، إلا ثلاثة عشر عامـا، فقـد تمكن من تجاوز عقبة السن القانونية للزواج الـذي قررتـه الدولة، بعد أن اشترى بجنيهين شهادة تسنين، مـن طبيـب

خاص تخصص في أنشطة طبية غير مشروعة، كالإجهاض، وترقيع البكارة المفتقدة لدى بنات مقـبلات علـى الـزواج، وتحرير شهادات لتسنين صبايا دون السن القانونية للـزواج، مما سمح للمأذون الشرعي بتحرير العقود من جانب الحكومة أن يحرر عقد الزواج للشاويش، رغم تيقنه من صغر عمـر الفتاة، لأنه كان يمتلك ورقة قانونية، ضمها إلى أوراق التعاقد على الزيجة، لا تجعله فـي موضـع المسـاءلة والشـبهات القضائية.

بعد مرور عام واحد فقط، كانت هدى قد أنجبت من شاويشها المعتبر، ولدا جميلاً، جاء مطابقًا لصورتها تقريبـا، وعندما مر عام آخر، كانت إلى جانبه أخت رضيعة، دائمـة البكاء والقلق، بسبب اعتيادها على المخدر، مثل أمها التـي أصبحت مدمنة بالفعل، لأن رجلها منذ بداية زواجهما، لم يعد إليها ليلة بجيب خاو من قطع الأفيون، والحشيش المصـادر عادة في حملات تشن على أوكار بيع المخدرات، أو الـذي ينفحه به موزعو المخدرات في الحي، ليأمنوا شره، ويشتروا سكوته عنهم، وعندما قل مجيء الزوج للبيت، وهجر أسرته الصغيرة، بسبب امرأة أخرى، ظهرت له أثناء عمله المثيـر

الذي تدفع الأيام بعشرات من النوعيات المتباينة من البشـر إليه بهم، كان على هدى مواجهة حياتها بنفسها، والبحث عن مصدر رزق لها ولأولادها، وقبل ذلك البحث عـن مصـدر بديل لمواجهة متطلبات جهازها العصبي الذي اعتاد المخـدر يوميا، وبالطبع قادتها الأيام إلى ألف باء الأشياء، فاحترفـت أقدم وأسهل مهنة احترفتها المرأة في التاريخ.

لم تكن جمالات نزيلة عنبر الجرب مثل هدى، لكنها أصبحت تقضي جل وقتها هناك بسبب صداقتها لها، رغم أن معظم النزيلات في السجن، كن يتجنبن التعامـل مـع تلكـم اللواتي يعشن في ذلك العنبر، خوفًا من العدوى التي يمكن أن تصيبهن من أولئك اللواتي انضممن إلى نادي الجرب بسبب ضيق ذات اليد، وفقرهن الذي يصل إلى عدم قدرتهن علـى شراء قطع رخيصة من الصابون، تفي بمتطلبات الاسـتحمام والنظافة وغسل الثياب، إلى جانـب تلـك القطـع القليلـة المصروفة لهن من إدارة السجن، لأن الحصة الحقيقية التـي يجب أن يحصلن عليها، تضيع في جيوب المتعهدين وصغار موظفي السجن، مما جعل الأجساد الفتية لمعظـم نـزيلات العنبر، مرتعا ملائما تقطن فيه على نحو مـزمن حشـرات

الجرب الميكروسكوبية الدقيقة، وقد كان الميل الصاخب للحياة عند هدى وخفة دمها، وقدرتها الدائمة على إطلاق النكات، هو ما يجذب جمالات إليها بالإضافة إلى حفلات الرقص والغناء التي تشاركان فيها مع بقية بنات العنبر، وقد كانت هدى تحاول جاهدة تقليد صوت فريد الأطرش الذي تحبه كثيرا، دون جدوى، لكنها كانت على أية حال نجمة حفلات عنبر الجرب بلا منازع، وزعيمته المتسيدة، رغم صغر سنها، فكان يتوجب على جميع من فيه الامتثال لأوامرها، خصوصا فيما يتعلق بتحديد مواقع النوم فيه، وتوزيع مهمات النظافة التي كانت تتم في أضيق الحدود بسبب انعدام المواد المنظمة تقريبا، ثم جمع الورق والخرق القديمة أثناء النهار من فناء السجن لإشعالها ليلاً في محاولات فاشلة تتم عادة لطرد البعوض الوحشي الذي كان يشارك حشرات الجرب في التهام دماء السجينات، ولم يكن الدخان المتصاعد، من حرق هذه النفايات، كافيا لإبعاد الناموس، بقدر ما كان مسببا لأمراض صدرية.

أشعلت عزيزة لنفسها سيجارة، وفكرت بحزن: كم رجل سيمتص رحيق هذا الجسد الرخص الجالس أمامها، إذا

ما تحولت جمالات إلى واحدة مـن أولئـك اللاـواتي يـبعن أجسادهن، لكل من يدفع من الرجال؟ فكـرت عزيـزة فـي الرجال العجائز، والرجال الطوال، والرجال القصار، وأولئك ذوي الكروش الضخمة، وأصحاب الأسنان الداكنة المتسـخة بسبب تعاطي المخدرات الـذين سـوف يعتصـرون جسـد جمالات حتى آخر قطرة نضارة فيه، ويدمرون روحها شيئًا فشيئًا، لتصبح في النهاية مسـخًا بشـريا بلـي مـن كثـرة الاستخدام، وتساءلت، لماذا قدر لصبية صغيرة جميلة مثلها، أن تتحمل كل هذه البشاعة، وأن تمضي حياتها التي لم تبـدأ بعد، على هذا النحو الذي لا يمكن أن ينتهي إلا إلى طريـق مسدود، ثم فكرت في أنه لماذا لا يكون لجمالات رجل طيب جميل مثلها، تمنحه قلبها وجسدها، ويمنحها كل ما يمكـن أن يمنحه رجل لامرأة، وامتد تفكيرها إلى حد تصورت معه أن جمالات لو سارت في الطريق الذي باتت تفكر أن تسير فيه، وتحولت في النهاية إلى داعرة محترفة، تبيع الهوى لكل قادر على شرائه، فإنها ستتحول ولابد في يوم من الأيام، إلى لولا أخرى، قوادة محنكة لا تكتفي بالمتاجرة بجسدها بل وتسـعى لبيع أجساد الأخريات أيضا.

عند هذا الحد من التفكير، تحول حزن عزيزة، إلـى غضب جامح شديد، فرفعت رأسها، وثبتـت عينيهـا علـى قضبان الشباك الحديدية، وصدر صوتها بالاحتجاج الموجـه إلى قوة علوية غامضة، اعتبرتها مسئولة عن كل ما جرى، وما سوف يجرى في المستقبل لهذه الفتاة الجميلـة الطيبـة، ذات النفس الصافية البريئة براءة نفوس الأطفال، وبينما هي تحدق في القطعة السماوية المكسوة بغيوم رمادية داكنة. قالت في حزن وضيق:

- سامع؟! شايف؟! الحكاية زادت عن حدها خالص، ولا يمكن السكوت عليها، بأي حال من الأحوال.

ثم استطردت قائلة بعد أن رفعت صوتها بتحد:

- طيب، وتربة أمي الغالية البنت طالعـة معانـا إن شاء ا ، ورجلها على رجلي، المسألة محتاجة في الأول، أن تستحم حماما ساخنا بصابونة فينيك، لضمان عدم العـدوى، وتصبح جاهزة إن شاء ا ، وفي منتهى الجمال، وفل الفل.

عندئذ، تنبهت جمالات التي كانت مشغولة بهرش ما بين أصابع يديها إلى أن عزيزة تتكلم، فاستدارت، حيث كانت

تقف في ركـن الحجـرة، لتصـب الشـاي فـي الكـوبين الموضوعين على الصينية، وكانت قد تأخرت في صبه، حتى يصير لونه أحمر رائقًا كلون الياقوت، ثم قالت فـي دهشـة وهي تدلل عزيزة، وتناديها باسم التحبب الذي أطلقته عليها، واعتادت أن تناديها به في لحظات صفائها بحروفه الثلاث:

- ا .. أنت كلمتني يا قمر؟.

الرحمة فوق العدل

رفعت محروسة السجانة وجهها المغموس في طبـق عسل النحل، فراحت صفية هيروين تدلكه بيـديها، وتحـول دون تساقط القطر منه، وهي تثني بحماس على مـا سـوف يكون عليه وجه محروسة من نعومة وإشراق، عندما تغسـله بالماء الحاف، دون صابون، بعد ذلك، إذ كانـت قـد نتفتـه وحفته بفتلة خيط، مزيلة عنه كل الزغب الخفيف النابت حول الذقن والوجنتين وأسفل الأنف، والحائل دون ضياء الوجـه وتلألؤه.

انبسطت أسارير محروسة، لما تخيلت مـا سـوف يكون عليه وجهها بعد ذلك، مما جعلها تغني بصوتها الأجش الخشن مقطعا من أغنية بهيجة للأفراح، شاعت أيام شـبابها منذ ثلاثين عاما، ثم قالت وهي تتنهد في حسرة:

- عارفة يا بنت يا صفية؟! أنا لما كنت في عـزي، كانت بشرتي جميلة صافية يلقط العصفور الحب من عليهـا، وهو مغمض عينيه.

- يا سلام!

ردت صفية، ثم أضافت قائلة: الهم والحزن، يدهموا أي واحدة في الدنيا، حتى لو كانت بدر البدور، وأنـت يـا محروسة الأيام شالت وحطت بك ياما، ربنا يكون في عونك.

تصعبت محروسة، وزاد احتقان وجههـا المحـتقن بسبب نتف الشعر، أكثر من قبل، ثم زفرت بحرارة وعاودت الغناء، بأغنية دارجة حزينة لا تخلو من الفجاجة فقالت:

- كتاب حياتي يا عين... لا لا لا .

قطعت اللحن الموسـيقى الـذي عزفتـه بلسـانها، وتحمست للكلام وهي تقول:

- أنت عارفة..؟! لو واحدة غيري، جرى لهـا مـا جرى لي، وشافت ما شفته في الدنيا، كان المحتمل أن تقتـل روحها، أو تعمل في نفسها أي مصيبة، تجعلها تموت كافرة، ووا الحق يبقى بيدها، لكن أنا.. ألف حمـد وشـكر لـك يا رب، قلبي أبيض من الطرحة البيضاء المحطوطـة علـى رأسك يا صفية، وعمري ما تمنيت إلا كـل خيـر للنـاس، ويا ا ... ربنا يجازي كل إنسان على قد أفعاله.

- صدقت... ربنا يعطيك على قد نيتك.

أمنت صفية على كلامها، وذكرتها بحادثة البنت سميحة القتالة التي اكتشفت محروسة بالصدفة أنها تخبئ ضمن أشيائها كسرة من زجاجة فينيك فارغة، سرقتها من مستشفى السجن لتستخدمها كسلاح هجومي أثناء معاركها الدائمة مع السجينات الأخريات، مثنية على طيبة قلبها، لأن هذه الحادثة لو جرت مع سجانة أخرى، لجعلت البنت سميحة تروح في ستين داهية، ولعاقبتها إدارة السجن أشد العقاب، فمن الممكن أن تحصل مصيبة إذا ما استخدمت سميحة تلك الأداة الجارحة، وتتحمل الإدارة مسئولية كبيرة، وقتئذ، لكن محروسة اكتفت بأن لطمتها بكفين على وجهها الذي تقطع رؤيته الخميرة من البيت، لقبحه ودمامته، وحلفت بتربة أمها الغالية، أن تؤدب سميحة بطريقتها الخاصة الجهنمية، إن هي عاودت ارتكاب أية أفعال مخالفة لقواعد السلوك، وتعليمات الإدارة، أما هذه الطريقة الخاصة، فلم تكن إلا بقرص سميحة بنوايتي بلح جافتين من اللباليب، أي من تلك المنطقة الطرية الناعمة المنتهي بها كل فخذ من الفخذين، وذلك بعد تكتيفها، وكانت هذه الطريقة التي تسبب آلاما رهيبة لا تطاق،

وتتخاف عنها زرقة داكنة في الجلد الرقيق الحساس لمنطقـة من مناطقه الأنسية، هي الأسلوب الرادع ذاته الـذي طالمـا أدبت محروسة بناتها به، عند ارتكاب إحداهن كبيـرة مـن الكبائر، لا يكفي معها الشتم والضرب العادي، واللطم كوسيلة للعقاب والجزاء.

لم يكن قلب محروسـة أبـيض، كطرحـة السـجن البيضاء التي على رأس صفية، لكنه كان أسود، كليلة شتوية باردة ملبدة بالغيوم دون نجمة مضيئة واحدة، تخفـف مـن ظلامها المدلهم، فلم يأت فجر مشـرق واحـد إلـى قلـب محروسة، ليمحو كل ذلك الحقد الأسود الذي رسـبته الأيـام بداخله، ضد الناس والحياة والزمن، وزوجها قبل كل شـيء، لأنه قتلها وهي في عز الحياة على ظهـر الـدنيا، وتركهـا وحيدة تواجه الأيام بكومة من اللحم الطري معلقة في رقبتها، بعد أن استباح وسرق منها كل شيء، ابتـداء مـن ذهبهـا ومصاغها الذي لم يكن إلا خاتما ذهبيا عيار ١٨، بفص مـن العقيق الصناعي التافه، وعفش بيتها الذي اقتنته قطعة قطعة بعرقها ودمها، حيث كانت تعمل خادمة في البيوت منذ طلوع الشمس، حتى ما بعد مغيبها، لتوفير الحياة له ولأولادهمـا،

وانتهاء بقلبها الذي حطمه ولم يكن رحيما به في أي يوم من الأيام، حتى أنه صارحها، ذات مرة، أنه يكرها لأنها قبيحـة ودميمة، بل هي أقبح امرأة خلقها ا علـى وجـه الأرض، وقعت عيناه عليها.

لم تكن محروسة المعذبة جاهلة بتلك الحقيقـة التـي واجهها بها زوجها الهارب، فهي تعرف كونها دميمة فعـلاً بذاك الوجه العريض، والأنف الأفطس، والعينين الضفدعتين الجاحظتين، جحوظًا كئيبا، يزيد في كآبته بشرتها ذات اللون الداكن الكابي المائل للزرقة، والفم الواسع المعتلـي لـ ذقنها المكورة الضخمة، لكن أن تعي هي هذه الحقيقة شـيء، وأن يقولها لها أقرب إنسان مفترض إلى قلبها، وروحهـا وهـو زوجها وأبو عيالها شيء آخر، فقد شعرت وقتها بألم نـادر، يخترق الروح، ويكسر النفس، ولا سبيل لدفعه أو الـتخلص منه، لأنه قضاء وقدر، وقسمة قسمتها الطبيعة لها، علما بأنها ما توانت لحظة عن تحسين شروط خلقتها التي تعرف أنهـا لن تكون جميلة أبدا، لتبدو مقبولة الشكل على الأقل، بوجـه عادي لا يختلف كثيرا عن وجوه سائر البشر والناس، فهي لم تكف عن تلوين شعرها باهت اللون بالحناء، بل هي تتفنن في

ذلك، فمرة، تعجن مسحوق الحناء بماء مغلـي مـع قشـور الباذنجان الأسود الرومي وقشور البصل البلـدي الحمـراء الذهبية، ومرة أخرى تستخدم معه البابونج، والشاي الأسـود المقطوع قلبه من الغليان، كما أنها كانت حريصة علـى أن تكون ناعمة، ملساء الجسد، وعلى استخدام ما ملكت يـداها من مساحيق تجميل تشتريها أحيانًا، وتجود عليها ببعض منها أحيانًا أخرى السيدات اللواتي تعمل لديهن في تنظيف بيوتهن، وكانت المشكلة التجميلية التي طالما أرقتهـا، هـي طـلاء الأظافر المعادي تماما لطبيعة عملها التي تضطرها لوضـع يديها في الماء وبلها معظم الوقت، مما يـؤدي لتلـف هـذا الطلاء، وتقشر أجزاء منه.

ما كان يزيد في ألم محروسة من زوجها، هو أنه لم يقدر أبدا مجهوداتها الخارقة لتكون على نحو أجمل، مثلما لم يشكرها مرة من المرات على مساهمتها في جلب الفلـوس، رغم أنه لم يكف عن مضاجعتها في كل ليلة مـن الليـالي، مهما كانت حالتها الجسدية المتعبة، تلـك المضـاجعة التـي تمخضت عنها نصف دستة من العيال، هـم أربعـة إنـاث وذكرين، ولم تذق منه ريقًا حلوا في أية لحظة، علمـا بأنـه

كان مصابا بداء الرئة، ومع ذلك فهي لم تأنف من مخالطتـه أبدا ولم تتوان عن خدمته لحظة واحدة، لأنها كانت تؤمن بأن المرض والصحة لا يأتيان، إلا من عند ا ، ووفقًا لمشـيئته، لأنه المبتلي، وهو الرزاق الذي يوزع الرزق لمـن يشـاء، ويقدر، ثم إنها لم تكف عن طاعة ذلك الـزوج الجحـود، لا لشيء إلا لأن طاعته واجبة، ومن طاعة ا ، مثلما لم تتوقف عن رعايته، وتوفير نصف كيلو من الحليب خصيصـا لـه يوميا، ومده بأفضل ما تطاله يدها من طعام يقدم لهـا فـي البيوت التي تدور للعمل فيها، حارمة نفسها في أحيان كثيرة، من أطايب الأكلات التي لا يمكن أن تصنعها أبـدا لارتفـاع تكلفتها، وحتى بعد أن توقف عن الشغل كصـبي منجـد لأن الغبار المتصاعد من قطن الحاشيات والمراتب القديمة، بـات يؤذي صدره، ويزيد حالته سوءا، ولما أصبح ضعيفًا مهدودا من شدة المرض، قابعا في البيت، كركام من اللحم الحي، لا شغلة له ولا مشغلة، فإن محروسة لم تتوقف عـن الإنفـاق عليه، ومده بالمصروف، ليجلس على المقهى، كـأي رجـل آخر لم يقعده المرض عن الجري لرزقه، وكسب الفلـوس، حتى لا تتعب نفسيته، ويشعر بأنه عاجز مكسـور الجنـاح،

بسبب المرض الذي هده وحرمه من أن يكون رجلاً يجري على بيته وعياله.

لكن الزوج، كان يقابل الجميل بالنكران، والمعروف بالقسوة والجفاء والجحود، إذ أنه لم يكف عن توبيخها وبعثرة كرامتها في الأرض لأتفه الأسباب، ولأقل الأخطاء والهفوات التي تكون عادة خارجة عن إرادتها بسبب ضيق وقتها أو تعبها الجسدي، فمرة قطع اللبن وتخثر، بعد أن نسيت غليه قبل النوم، لأنها كانت متعبة جدا، وفي عرض لحظة ترمي فيها جسمها في أي مطرح وتنام، فما كان منه عندما اكتشف فساد اللبن، إلا أن شتمها وسبها بأفظع الألفاظ التي طالت جدودها بعد أبويها، لكنها لم تتأثر من ذلك قدر تأثرها، لنعته لها بأنها رمة رميت عليه، لا تساوي ربع أبيض في سوق النساء. بعد ذلك أخذ في ضربها وضرب العيال، عند صدور أقل هفوة منهم، وتطور الأمر، إلى حد اتهامها في عفتها، بسبب تأخرها في البيوت التي يعلم ا وحده، أنها ما كانت تتأخر فيها إلا لإتقانها عملها، وحرصها على أن يخرج بأفضل وجه، لتحوز رضا مخدوماتها من النساء، فلا يطردنها من العمل، بل ويمنحنها مزيدا من النقود والطعام،

ورغم صبرها على كل ذلك، وحرصها أن تمضي بها سفينة الحياة بالستر والأمان، فالاستناد إلى ظل رجل أفضـل مـن الركون إلى ظل حيطة، إلا أنه صعد من معاناتهـا كثيـرا، عندما بدأ في تطوير عدائه لها، وأخذ في سرقتها، ففـي ذات أمسية من الأمسيات، اكتشفت بعد عودتها من ساعات عمـل شاقة ومنهكة، إذ كانت قد قامت بتنظيف شقة تـاجر كبيـر مكونة من ستة حجرات ومطبخ واسـع، ملـيء بـالأجهزة والأدوات، وثلاث حمامات، نظفت السيراميك فيها ولمعتـه قطعة قطعة، اكتشفت أنه أخذ التلفزيون وباعه، بثمن بخـس، ولما كان التلفزيون هو متعتها الوحيدة في الحياة الذي تلـتم أمامه مع عيالها في أوقات سعادة نادرة، أثناء تناول العشاء، للفرجة على التمثيليات والأفلام، حتى يغالبها النعاس، فتنـام على الكنبة أمامه، وتحلم أنهـا بيضـاء، شـقراء، كفتيـات الإعلانات، ترتدي أجمل الثياب، ويتهافت عليها الرجال ، فقد حزنت حزنًا شديدا وصل إلى حد سدت معـه نفسـها عـن الأكل، لأنها اشترت التلفزيون الذي طالما حلمت بوجوده في بيتها، من سيدة طيبة عاد زوجها من بلاد الرسول بتلفزيـون كبير، فباعت القديم لمحروسة التي اعتبرته لقطة وفرصة لا

تعوض بالنسبة لها، لأنها اشـترته منهـا بسـعر رخـيص وبتقسيط الفلوس.

بعد التلفزيون المسلوب، وقعـت الطامـة الكبـرى لمحروسة، فقد اختفت الغسالة في يوم أسود لم تطلع شمسـه بالنسبة لها، ويمكن تصور حجم فجيعتها، إذا ما قلنـا إنهـا كانت تعتبر الغسالة أعظم إنجاز للبشر، جرى علـى وجـه الأرض، منذ بداية الخليقة، لأنها الجهاز الذي انتشـلها مـن عبودية الغسيل لستة أولاد، بالإضافة إليها وزوجهـا، وقـد تجلى تقديرها للغسالة وتكريمها الدائم لها في حرصها علـى تجفيفها بعد كل مرة تغسل فيها، وتغطيتها بمفرش جميل، لم يكن إلا أحد أغطية الرأس الملونة التي تحصل عليها ضـمن ما تجود به عليها مخدوماتها أحيانًا من مخلفاتهن من الملابس والأشياء القديمة.

لكنها في ذلك اليوم العصيب، لم تسكت، مثلما سكتت يوم باع زوجها التلفزيون، فقد تشـاجرت معـه، وواجهتـه بحقيقة علمها أنه يلعب الواحد والثلاثين علـى القهـوة مـع بلطجية الحي، ويقامر دائما، ثم إنها بكت بكاء مـرا ناعيـة الغسالة العزيزة، مثلما ينعى أي فلاح فقير جاموسته جلابـة

الخير، وندبت حظها العاثر، كما نادت على أمها الراقدة فـي مقابر الصدقة منذ سنوات طويلة، لتأتي إليها وتشوف حالهـا المنيل بالنيلة الزرقاء، والمهبب بالهباب الأسود، لأن الغسالة كانت من الحوادث السعيدة التي آمنت محروسة بأنهـا لـن تتكرر في حياتها مرة أخرى، بعد أن اشـترتها مـن بـائع روبابيكيا متجول ذات يوم، بثلاثين جنيها، ادخرتها بصعوبة من دخلها، وذلك بعد مساومة طويلة معه، وأخذ وعطاء فـي الكلام، عن قيمة الغسالة ونوعها وما تستحقه من سعر، لأنها خمنت، أن الغسالة لا بد أن تكون مسروقة مـن مكـان مـا بسبب حالتها الجيدة التي تبدو معها وكأنها جديدة.

بعد سنوات طويلة مـن العـذاب، تركهـا الـزوج المريض المقامر المعذب، واختفى، حدث ذلك بعد أن جردها من قطعة الذهب الوحيدة التي اعتبرتها كنزا من كنوز الملك سليمان، طالما حافظت عليه كمدخر لعوادي الزمان، وذلـك بينما كانت نائمة في عز الليل كجثة مؤقتة تنتظر يوم عمـل شاق ومرهق عند طلوع الصبح، إذ سـحب مـن بنصـرها الخاتم ذا العقيق الزائف الذي كانت قد وجدته بصدفة نـادرة في الجيب الداخلي لمعطف قديم منحتها إياه سـيدة يونانيـة

عملت عندها لفترة من الوقت واضطرت للمغادرة السريعة، وقت إجلاء الأجانب عن البلاد في العام ١٩٥٦.

أثناء غيابه، وبعد أن يئست محروسة من عودة زوجها الهارب، اضطرت للتقلب في أعمال كثيرة، بعد أن أصبحت خدمة المنازل لا تدر عليها دخلاً معقولاً، لأن الناس باتوا يستغنون عن الخدم، بسبب انتشار الأجهزة الكهربائية، والميل العملي في اختيار الأثاث، بحيث أصبح بسيطًا، يلبي الحاجات الضرورية، إضافة إلى الارتفاع الدائم في الأسعار الذي هوى بالطبقة الوسطى، إلى أسفل سافلين وهي الطبقة التي تعمل لديها محروسة وأمثالها عادة.

في البداية، أخذت تطبخ الكشري وتبيعه على الرصيف، وما إن انتعشت أحوالها، وجرى القرش في يدها قليلاً، حتى طاردها موظفو البلدية، بالإتاوات والفرض التي فرضوها عليها، حتى يتركونها في حالها، تزاول تجارتها دون طردها من الرصيف الذي هو ملك للحكومة، تمنحه لمن تشاء وتطرد منه من تشاء، وقد كفت محروسة عن بيع الكشري، بعد أن اكتشفت أن الجدوى الاقتصادية لذلك منتفية، لأنها باتت تدفع فرضا ورشاوى، أكثر من عائد البيع الذي لا

يتبقى منه في نهاية الأمر، أي فائض ربـح، بعـد أن تـدفع للعلاف ثمن المكرونة، والعدس بجبة، والأرز الذين تشتريهم منه بالأجل.

بعد ذلك دخلت المجال الصـناعي، ربمـا لتواكـب سياسة الانفتاح الاقتصادي التي كانـت قـد بـدأت تظهـر مشاريعها الصناعية، دون أن تقدم بعد ذلك، صناعات تختلف في أهميتها كثيرا عما كانت تقوم به محروسة آنذاك، إذ أنها كانت تجمع ما تيسر في الطرقات، من ورق متخلـف عمـا يبيعه التجار من سلع ومواد، وتصنع منه طراطير، ومراوح ورقية، تشبكها في عصى من جريد الأقفاص القديمة الملقـاة على مزابل السوق، ثم إنها كانت تلصق الطراطير والمراوح بنشاء الأرز المطبوخ، وتلونها بعد ذلك بألوان زاهية محببـة للأطفال، تصنعها عادة من بقايا الخضروات، والمواد التالفة الملقاة كنفايات، ثم تروح تبيع ذلك فـي الأسـواق، وأيـام الموالد، بقروش قليلة تدفع بها غائلة الأيام.

خلال هذه الفترة العصيبة من حياتها، أغراها جـار لها، بالعمل معه في مسرحه الجوال للأراجوز، كممثلة تؤدي بصوتها الأجش، من خلف السـتار، دور الحمـاة المثيـرة

للشغب والخلافات بين ابنتها وزوجها المغلوب على أمـره، وتنشد معه بعض الأغنيـات القصـيرة المثيـرة للضـحك والسخرية، وقد سعدت محروسة بهذا النوع من العمل الـذي اعتبرته عملاً بسيطًا لا يهد حيلها، أو ينهك صـحتها التـي باتت تسوء بسبب تغلغل الروماتزم المستمر فـي مفاصـلها، رغم ما تضمنه من خدمة صاحبه خدمات يسـيرة، إذ كـان عليها أن تطهو له طعامه وتغسل هدومه بين الحين والحين.

ثم إنها أحبت شغل الأراجوز إلى حد الشغف به لأنها شعرت معه، بحب الناس لها، وخصوصا الأطفال منهم الذين كانوا يضحكون ويصفقون كثيرا لها، عندما كانت تشـخص وتغني، مما أشعرها بأنها خفيفة الدم، مقبولة من الآخـرين، وهو الشعور الذي طالما عانت من عدم حدوثه لها قبل ذلك، والشيء الذي جذبها إلى العمل مع الأراجوز، أكثر مـن أي شيء آخر، كان الدخل المعقول الذي تحصل عليه كل يـوم من هذا الشغل الذي لم يخل كذلك من مفاجآت سـارة، مثـل المفاجأة التي حدثت ذات يوم، إذ دعا صاحب مقهـى كبيـر بالخيامية الأراجوز، للمشاركة في حفل ختان ابن لذاك الرجل الميسور، تم إنجابه، بعد سبع إناث من ثلاث زوجـات لـم

توفق إلا الأخيرة منهن في تحقيق حلمه بخروج صبي من صلبه، يخلفه في الدنيا ويحافظ على اسمه من بعده فيها.

وقد استطاعت محروسة، أن تثبت جدارتها في العمل، بل أن تمده بأفكار جديدة من عندياتها، إذ أنها باتت تقوم بإلقاء الفوازير اللذيذة على المتفرجين بين كل وصلة تمثيلية وأخرى، بهدف إطالة وقت العرض مما يجذب مزيدا من الجمهور، فتسأل عن ذلك الذي يعدي البحر دون أن يغرق، وهي تقصد بالبحر – ويفهم الناس قصدها بالطبع – نهر النيل الذي اعتاد الناس وصفه بالبحر من باب التقدير والاعتزاز، فيجيبها واحد نبيه من الحاضرين، بأن ذلك الذي لا يبتل هو العجل في بطن أمه التي هي الجاموسة، لأنها تستطيع العوم في النيل بسلاسة ويسر حتى لو كانت حاملاً في عجل صغير، عندئذ تطالب محروسة بالتصفيق لذلك اللبيب، بينما يعزف له الأراجوز لحنًا من ألحان حسب ا الذائع الصيت، وذلك على سبيل التحية، وبعد ذلك تلقي بالفزورة الثانية من فوازيرها الأربع التي لا تعرف سواها، فتسأل عن شيء يدور في طبق بنور، وعندما تصل إلى الثالثة التي تعتبر من أصعب فوازيرها، والتي نصها طاسة

من جوه طاسة في البحر غطاسة، داخلها لؤلـؤ، وخارجهـا نحاسة، عندما تصل إلى ذلك يحار الحضور في الإجابة، لكن محروسة تمهلهم وقتًا للتفكير، تكون أثناءه قـد دارت علـى المشاهدين لتجمع فلوس الفرجة منهم، وعنـدما تعـود إلـى مكانها بجوار الأراجوز مرة أخرى، تقول لهم حل الفزورة، وهو الرمانة، ثم تلقي بآخر واحدة، وهي: شيء برق بـرق، واختبأ بين الورق وتعاود مشاركة الأراجوز فـي الوصـلة التمثيلية التالية لذلك. لكن محروسة، سرعان ما تخلت عـن عملها الممتع هذا، لأنها فوجئت بأن الرجل – الأراجـوز، لا يريد مضاجعتها فقط، بل ويريدها أن تفعل ذلك مـع رجـال آخرين، مصرا أن تنصاع لطلبه وتحترف الرذيلـة ليقتسـم معها دخلها منها، لأنه سيحميها، ويورد لها الرجال.

بعد تركها فرقة الأراجوز الجوال، عاشت محروسة مع عيالها أياما لونها أسود من قرن الخروب، حيث سـارت في الطرقات تستجدي، لتسد جوع ستة أفواه صغيرة، مفتوحة لها، تطالبها بالطعام، وشالت الطوب عندما وجدت عملاً، مع عمال التراحيل، حتى انقسم ظهرها وأصيبت بالتهاب حاد في فقراتها القطنية، لم يحل دون اغتصابها ذات ليلة، بينما هـي

عائدة من الشغل في عمارة بمنطقة نائية تقع ضمن حي جديد منشأ على أطراف مصر الجديدة، إذ تناوبها ثلاثة جنود مـن الجيش، لا تزيد أعمار كل منهم عن عمر ابنتها البكرية، بعد أن كمموها، وقيدوها بأحزمتهم العسكرية، وعندما تركوهـا، كانت في حالة بائسة، حتى أنها عرفت بصعوبة، كيف تسلك الطريق عائدة إلى بيتها مرة أخرى، وفي أيام تاليـة لـذلك، نبشت محروسة وفتشت بشغف في صناديق الزبالة عـن أي شيء صالح للأكل، وحصلت من صـفائح فضـلات باعـة الطيور المذبوحة، على نباشات الفراخ، والمصارين المتخلفة عن الذبح، لتسلقها، وتقدمها إداما لعيالها إلى جانب الخبـز، لكن يشاء العليم القدير أن ينظر إلى المسكينة بعين الرحمـة والعطف، إذ طب عليها ذات يوم سعيد قريب لزوجها، كـان يعمل شاويشًا في السجون، ولما علـم بحالتهـا، وبهـروب قريبه، وشاف بأم عينه بؤسها وحاجة عيالها، خرج واشترى علبة حلاوة طحينية للعيال، وأرغفة من الفينو الأبيض وعلبة شاي، وجلس بينهم يأكل معهم، ثم إنه طمأن محروسة بعد أن دس في يدها ثلاثة جنيهات، كانت ثلاثة أرباع ما تبقى مـن فلوس في جيبه، واعدا إياها بالبحث عن عمل، يـدر عليهـا

دخلاً منتظما، يكفيها شر الحاجة ومد اليد للناس، ولـم يمـر شهر واحد على ذلك الوعد، إلا وكانت محروسـة ترتـدي معطف السجانات ذي اللون الأزرق المائل للرمادي، إذ قبلت كسجانة في سجن النسـاء، لضـخامة حجمهـا، ولسـحنتها الصارمة، ذات النظرات الرادعة، وهذا منتهى الطلب بالنسبة لمصلحة السجون في تعيين سجانيها.

خلال عملها، تكشف لمحروسة عالم جديـد مـدهش بعلاقاته، لم تصادفه في حياتها قبل ذلك، رغم ما صادفته من غرائب وآلام، وكانت المآسي العديدة المتنوعة، والمتجـددة دوما، بتجدد النزيلات، تكشف لها عن حقيقة، باتت تترسـخ لديها بمرور الوقت، كانت بمثابة العزاء لها، وهي أنها ليست الوحيدة المظلومة في الدنيا كما تظن، وليست الوحيدة المبتلاة بالمصائب دون سائر البشر كما تتصور، فثمت كثيرات مـن النساء غيرها، جار عليهن الزمان وضن بالرحمة والسعادة، وبحكم طبيعة المهنة التي تستلزم أن تكون حازمـة، ناهيـة، آمرة، اكتسبت محروسة بمرور الوقت، ثقة بالنفس، وصلابة في الشخصية، لكن ذلك لم يمح سواد قلبها أبدا، ولـم يبعـد مرارة السنين عن روحهـا، وشـعورها المسـتمر بالخيبـة

والفشل، والقنوط من وجود عدالة في الدنيا، مما جعلها تلتمس الرحمة والغفران في تعاملها مع المسجونات، ويرق قلبها لحالتهن، فقد كانت ترى أن الرحمة يجب أن تكون فوق العدل دوما، ولا ملاذ للبشر إلا في الرحمة التي لو سادت وأخذ الناس بها في معاملاتهم، لأصبحت الدنيا أقل تعاسة وشقاء، لذلك فهي لا تفتري على المسجونات في عملها، ولا تظلمهن أو تبتزهن، ولا تفرض عليهن أية إتاوات كما تفعل بعض السجانات الأخريات، كما أنها لا تطالبهن بتقديم خدمات لها دون مقابل، فحتى عندما صنعت لها صفية هيروين شالاً من الكيروشية، قدمت لها مقابله فرخة كاملة سلقتها بنفسها في البيت وأحضرتها لها معها، غير أن ذلك لا ينفي كونها تقبل برضا بعض الهدايا من السجينات، شريطة أن تقدم لها عن طيب خاطر، دون انتظار أية معاملة خاصة بهن من جانبها، وعلى هذا الأساس، قبلت عسل النحل الذي كانت تغمس وجهها في الطبق المملوء به منذ قليل، كهبة من سجينة يمتلك أهلها مناحل عديدة في قريتهم بالريف، وعموما فإن حصولها على أي شيء من السجينات، كانت تضعه أولاً في ميزان العدل والقسطاس، وتقبله من باب الود والرحمة،

والتعاطف الذي يجب أن يكون متبادلاً فـي دنيـا السـجن الموحشة، قبل أن تمتد يدها لتأخذه.

ما يربط محروسة السجانة، بصفية التي يطلق عليها جميع من في السجن صفية هيروين لاتجارها في ذلك النوع من المخدرات، يختلف عن كـل مـا يربطهـا بالسـجينات الأخريات، وقد لعب الزمن قبل كل شيء، دورا فـي هـذه العلاقة، لأن صفية من أقدم نزيلات سجن النساء، بالأحرى، هي سجينة مخضرمة، خبيرة بذلك السجن، لأنها قضت فيـه معظم سنوات عمرها إذا صح التعبير، منذ أن دخلتـه لأول مرة في السادسة عشرة من عمرها، فأمضت فيه سنة بتهمـة السرقة، وفي التاسعة عشـرة، انضـمت لعصـابة سـرقة بالإكراه، فحكم عليها بست سنوات مع الشغل، فلما خرجت، تزوجت من قريب لها عاطل عن العمل، لكنـه لديـه شـقة مكونة من حجرتين وصالة، ورثها عن أمه، وجدتها مـلاذًا ومثوى لها، ثم إنها باعت ساعة ذهبية، كانت قد احتفظت بها لنفسها، ولم تعترف بسرقتها وقت القبض عليهـا، اشـترت بثمنها قماشًا رخيصا، من تجار النسـيج بشـارع الأزهـر، وأخفافًا منزلية بلاستيكية، زهيدة الثمن، وعقـودا وأسـاور

وأقراطًا صناعية، أبتدأت بهـا مجتمعـة، تجـارة بسـيطة، محدودة، كانت تدور بها على الشقق والبيوت لتبيعها للنساء، وشيئًا فشيئًا، انتعشت تجارتها، بفضـل شـطارتها وحـلاوة لسانها، ومرونتها في التعامل مع الزبونات اللواتي وثقن بها، خصوصا أنها أضافت لنشاطها نشاطات أخرى، فكانت تعمل لبعضهن حلاوة بالسكر والليمون، لنتف الشعر من الجسـد، وتشتغل مفارش وأغطية رأس من خيطان الصـوف بـإبرة الكيروشيه، بالإضافة إلى تحضيرها لبعض أنواع من الدهون للجلد، وزيوت للشعر، بعد جلب موادها الخام ووصفاتها من العطارين وتركيبها، ثم توسع نشاطها فراحت تتولى تـزيين العرائس المقبلات على الزفاف، فصارت مطلوبة من النساء لخدماتها المتنوعة التي كانت تقوم بها على الوجه الأكمـل، وباتت لها زبوناتها العديدات اللواتي لم يعرفن قط بماضـيها اللصوصي، فانتعشت أحوالها كثيرا، وعاشت عيشة راضية، وما حلمت بها يوما طوال حياتها قبل ذلك.

بعد مرور خمس سنوات على زواجها، أنجبت صفية ولدين توأمين جنت بهما، رغم نحالتهما الشديدة، والانبعـاج البين في رأسيهما إلى الخاف، واعتبرتهما أعظم ما وصـل

إليه النوع البشري على مستوى الخلق، حينئذ، شعرت لأول مرة بالانتماء، وأن لها أسرة وأهل، وهي اليتيمة التي عاشت طفولة تعسة مع زوج أمها بعد أن مات أبوها، مما اضطرها إلى الهروب من البيت، عندما بلغت الرابعة عشر من عمرها، وسافرت إلى القاهرة، بعد أن تركت بلدتها الريفية بالدلتا، لتهيم على وجهها أياما في الشوارع تتسول لقمتها، حتى التقطها صاحب مسمط، لاحظ مكوثها كثيرا بالقرب من دكانه في السوق، فأخذها لتعمل عنده في تنظيف كروش البقر والغنم، وكذلك سيقانها من الأوساخ، بعد غمسها في الماء المغلي، ثم تنظيف أكواب وأطباق الألمونيوم التي كان يقدم فيها الثريد والحساء لزبائنه، عندما تفرغ من مهمتها الأولى، وقد حصلت صفية مقابل ذلك العمل على شرف المبيت بمطبخ المحل في نهاية الليل، وتناول بعض الطعام.

والحقيقة أن صفية لم تتعرض، لما تتعرض له أية فتاة صغيرة، هاربة، أو ضائعة في مدينة جهنمية كالقاهرة في العادة، إذا كانت في الرابعة عشرة من عمرها أو قريبة من ذلك، ولم يكن هذا بسبب معجزة سماوية، أو قلة ذئاب المدينة المستعدين لافتراس أية أنثى تعبر الطريق، إذا ما

سنحت لهم الفرصة، ولكن بسبب حصانة طبيعية لا راد لها، وهي أن صفية كانت تمتلك عينًا واحدة، فالأخرى ضـاعت في زمن مبكر على إثر علقة ساخنة تلقتها مـن زوج أمهـا لكسرها قارورة النرجيلة الزجاجية، بينما كانت تحملهـا لـه ليدخن بعد الغداء، فولت هاربة منه لتلوذ بأمها التـي كانـت وقتها جالسة تشتغل له طاقية مـن الصـوف، ذات خطـوط متعرجة تمثل بعض ما تبقى في الذاكرة الشعبية من أسـاليب الفن المصري القديم، حيث كانت ترسم مياه النيل على النحو نفسه، لكن الطفلة المسكينة، وهي تسارع بالاختباء في حجر أمها، خوفًا من زوجها الهائج، انكفأت بوجهها على الإبـرة الحديدية، فانغرست في عينها وفقأتها، لتصبح بعد ذلك بعين واحدة تنظر، وأخرى زجاجية قدمها لها زوج أمها الذي كان طيبا إلى حد استيقاظ الضمير، فاعتبر نفسه مسئولاً عما ألـم بالبنت الصغيرة التي كان يكرهها بالفعل، ويسيء معاملتهـا، لكنه لم ينتو أبدا إلحاق ضرر جسدي بهـا يصـل لدرجـة حرمانها من نور عينها ليست العين الزجاجية هـي سـبب الحصانة الطبيعية ضد الاغتصاب، فقط، ولكن نحـول قـد صفية الشديد، وضآلة حجمها لعبا دورا لا بـأس بـه فـي

التضليل، وعدم الإفصاح عن مكامن الأنوثة فيهـا، فعنـدما كانت في الرابعة عشرة، كانت تبدو في الثامنة فقـط، فهـي قصيرة، ممسوحة الصدر تقريبا، ذات رأس صغير، ورقبة لا تبعد كثيرا عن أكتافها، ولعل ذلك هو الذي جعـل محصـل التذاكر في القطار الذي أقلها من الدلتا إلى القاهرة، لا يجـد ضرورة في تحصيل بطاقة ركوب منها، خصوصا أنها كانت تجلس هادئة إلى جوار فلاح عجوز، تتطلع بعينها الوحيـدة إلى البلاد والقرى، وزراعات القطن والخضار التـي كـان يعبرها القطار عبورا سريعا، وحتى المحاولة الأولية البسيطة التي يمكن وصفها وصـفًا سـطحيا، بالاغتصـاب، والتـي تعرضت لها صفية، جاءت من صبي صغير لم يبلـغ بعـد، يصغرها بسنوات، وكانت يوم أن ذهبت في ظهيـرة عيـد الفطر إلى السينما، بعد أن اشترى لها صاحب المسمط جلبابا من الكستور القطيفة، طبع عليه أرانب وإوز وديوك بـألوان زاهية متباينة، وحذاء قماش بنعل زحافي مطاطي ورباط في مقدمته، اختاره الرجل بني اللون ليتحمل الأوساخ، من النوع الذي عممته مصانع باتا الإيطالية في جميع أنحـاء الـبلاد، وهي المصانع التي أممت، وتحولت إلى قطاع عام، ثم إنـه

نفحها عشرة قروش كاملة، كعيدية لن تأخذ خلافها على مدى أيام العيد الثلاثة، فامتنت له امتنانًا شديدا، وحبت على يـده اليمنى السمينة، كمثيلتها اليسرى، وقبلتها عدة قبلات، ثم إنها ابتاعت شقة بطعمية، وأخرى بفول مضاف إليه قليـل مـن سلطة الطحينة، مما كان بمثابة تنويع على لحن واحد، وبينما هي تأكل سائرة، وتتفرج على المحلات والدكاكين، وقعت في غرام قرط بلاستيكي أحمر اللون، فاشترته بقرشين، ثم دخلت السينما التي كانت تعرض وقتهـا فيلمـا لشـادية، وتحيـة كاريوكا، وبينما كانت الأخيرة ترقص هازة بطنها وصدرها ومؤخرتها في حركات بارعة سريعة، تتطلب ممن يؤديها أن يزيل أولاً مصرانه الأعور، أحست صفية يـدا تمتـد إلـى صدرها، وتداعب ثدييها مداعبـة وصـلت إلـى أطـراف حلمتيهما الصغيرتين مما جعلها تشعر بلذة ألجمتها وجعلتهـا تبدو وهي تتابع الفيلم، بعينها الوحيدة، وكأنها أليس في بـلاد العجائب فما كان من اليد الطويلة الواصلة إليها من المقعـد المجاور، إلا أن واصلت تسللها، وزحفت إلى مناطق أخرى من الجسد الصغير، مانحة إياه المزيد من اللـذة والإثـارة، والشعور البكر بالانتشاء.

الموقف انتهى بعد قليل، إذ أضيئت الأنوار فجأة، إيذانًا باستراحة قصيرة، باعثها الحقيقي، رغبة إدارة السينما في تنشيط بيع المشروبات الغازية واللب الأسمر والفول السوداني من الباعة الذين يعملون لديها، وعندما تنبهت صفية، لم تجد أي كائن يجلس على المقعد المجاور لها، إذ أن الولد اختفى بسرعة، ربما بسبب خجله الناتج عن مباغتة الضوء له، وربما لأنه تأمل ملامحها سريعا ولاحظ العين الزجاجية، ولما يئست من عودته، اشترت لنفسها زجاجة بيبسي كولا، لأنها شعرت بظمأ شديد.

بمرور الوقت تحولت صفية إلى فتاة قاهرية، وبدأت عينها تتفتح على مباهج الدنيا في مدينة عامرة بالحياة، هي بمثابة عدة مدن مجتمعة، فكانت تختلس الوقت من المسمط، عندما يرسلها صاحبه لشراء شيء ما، أو لأداء مهمة تخصه أو تخص المحل مع التجار الآخرين في السوق، وتجوب الشوارع متلكئة، تتأمل معروضات المحلات الكبرى، ونساء الطبقات العليا المترفات اللواتي يقضين معظم أوقاتهن الصباحية في التبضع والشراء، قتلاً للمال، ونهما للاستهلاك، وخلال هذه الأيام، كان منتهى حلم صفية الحصول على حذاء

أحمر بكعب عال، وقد تحقق حلمها بعد ذلك بشهرين، لـيس بالصدفة وحدها، ولكن بقوة ملاحظتها وخفة يدها، إذ بينمـا هي تمر على محل لتصليح الأحذية، لاحظت فردتي حـذاء أحمر صغيرتين، ترقدان فوق بعضهما إلى جانب كومة مـن الأحذية المخصصة للتصليح، ولقد بدا ذلك الحذاء جميلاً في عينيها إلى حد جعلها تحلم في ليلة اليوم نفسه، بأن زوج أمها يقبلها، ويمسح على رأسها، ويدخل قدميها فيه. فـي اليـوم التالي لذلك، وبعد معاناة حقيقية، إذ أن صورة الحذاء الأحمر ظلت قائمة في عينيها لم ترسل، تفتق ذهن صفية عن شـر خفيف يراد به خيرا لها، إذ أنها قامت بفصل نعل فردة حذاء صاحب المسمط عن وجهه بسكين حادة، بعد أن خلعه وأخذ يصلي صلاة العصر، وما أن انتهى من ركعتي السنة بعدها، طالبا من ربه الصلاح والتوفيق، وبادر بوضـع قدمـه فـي الحذاء، حتى اكتشف أن أصابعه المتدثرة بالجورب النبيـذي الداكن، قد صارت على الأرض، فثار وزام لاعنًا صـناعة الأحذية، وأصحابها الغشاشين، مقسما أنه لن يشتري طيلـة حياته حذاء آخر من المحل الذي ابتاع منه هذا الحذاء، لكـن صفية أخذت تهدئ من ثائرته، وطارت بالحذاء إلـى محـل

الجزماتي، واعدة إياه بأنها لن تعود إلا ومعها فردة الحـذاء سليمة كما كانت من قبل، ولا داعي لأن يحرق دمه ويتلـف أعصابه.

عندما عادت بعد ذلك بساعة، كان معها ثلاث فردات من الأحذية، بينهما الزوج الأحمر الذي اشتهته إلى حد الحلم، بعد أن ظلت تقنع الجزماتي بضرورة تصليح حـذاء سـيدها بسرعة، بعد أن أوهمته أنها تعمل خادمة لدى موظف كبيـر وزوجته التي تقسو عليها كثيرا، وأنه سوف يضربها إن هي لم تعد به بسرعة، وقد أشفق الرجل عليهـا بسـبب عينهـا الضائعة، وأسلوبها المسترحم الضعيف فـي الكـلام معـه، والحكاية التي حكتها له عما فعله بها زوج أمها، ثم إنه طلب منها شراء طعام ليتغدى به، فذهبت واشترت لـه باذنجانًـا مقليا، وبطاطس محمرة، وبعد أن انتهى من الأكـل جاءتـه بكوب شاي من المقهى القريب، فشربه وهو يقوم بإصـلاح الحذاء، وما إن انتهى من إعادة فردة حذاء صاحب المسـمط إلى ما كانت عليه حتى واتـت صـفية الفرصـة الذهبيـة للحصول على الحذاء الأحمر، إذ صعد الرجل إلـى محـل الأدب الكائن في السقيفة بأعلى المحـل، ليقضـي حاجتـه،

فسارعت بأخذ فردة الحذاء التي انتهى من إصلاحها، بالإضافة إلى الحذاء الأحمر، وطارت من الدكان إلى المسمط بخفة عصفور صغير.

كان الحذاء الأحمر الذي اكتشفت أن كعبه مازال مكسورا، لم يصلح بعد بمثابة فاتحة مبينة في حياتها العملية، إذ جعلها تتأمل حالتها،وتفكر لأول مرة في كونها محرومة من نعم، ومتع عديدة في الحياة، وأنها لا تملك الحصول على أي شيء تريده بسبب فقرها، وقلة الفلوس في يدها، وقد قادها هذا الخيط من التفكير، إلى حقيقة هامة تكشفت لها لأول مرة كذلك، وهي أن صاحب المسمط الذي اعتبرته حتى هذه اللحظة مندوب العناية الإلهية التي انتشلتها من البؤس، وذل السؤال، يستغلها أسوأ استغلال، فهي تعمل من السادسة، صباح كل يوم، وحتى ما بعد الليل في تواصل، دون انقطاع إلا لساعات قليلة بعد الغداء، ولا تتلقى مقابل ذلك إلا ما يلزم لإسكات جوعها يوميا، قطعة صغيرة من الكوارع، أو لحم الرأس، مع طبق من الأرز المضاف إليه قليل من الحساء، مما يضطرها في بعض الأحيان، إلى أكل ما يتبقى في أطباق الزبائن الذين قلما يتركون طعاما يتخلف

عنهم في أطباقهم ثم إنها تتناول إضافة إلى ذلـك، كوبـا أو كوبين من الشاي يوميا، وما يجود به عليهـا بـين الحـين والحين من أصناف أخرى من الطعام، كبعض ثمار الفاكهة، عندما يشيعها بها إلى زوجته في البيت، وكانت رغبتها فـي تزيين شعرها، ولمه بطوق من الخرز الملون، ووضع أحمر شفاه، بما يتناسب مع الحذاء، كما تفعل النساء اللواتي تراهن في شوارع المدينة، سببا في إثارة مزيد من الحنق والغـيظ بداخلها تجاه صاحب المسمط الذي لا تنال منه ما ترغب فيه، واكتشفت استغلاله لها، مثلما اكتشفت ما هو أهم بالنسبة لهـا حينئذ، وهو أن السرقة في هذه المدينة ممكنة وسهلة إلى حد كبير، بل هي ضرورية أيضا، إذا ما رغب الإنسان أن يعيش حياة كالتي يعيشها كثير من أولئـك الـذين يسـيرون فـي شوارعها.

منذ ذلك الحادث فصاعدا، تضاءل حجم المسمط في العين غير الزجاجية لصفية، وأصبح بقاءها فيه مسألة وقت، حيث فتحت المدينة ذات المباهج الألف ذراعيها لها بالكامل، شريطة أن تشحذ ذكاءها وخفة يدها، وتصبح واحـدة مـن

شطارها الذين يحيون ما يقومون به من نهب وسرقة كلمـا استطاعوا ذلك.

بسبب وجودها في المسمط، ظلت عاجزة عن سرقة الأشياء الكبيرة، واضطرت لسرقة الأشياء الصغيرة، سـهلة الإخفاء، ولم يمض وقت طويل على حادثة الحذاء الأحمـر المحدودة الأهمية، إلا وكان قد تجمع لديها عدد لا بأس بـه من الأقـراط الرخيصـة، وأمشـاط الشـعر، والـدبابيس، والجوارب الرجالية والنسائية، لأنها تخصصت آنـذاك فـي سرقة باعة الأرصفة الذين يعرضون بضـاعتهم ذات رأس المال المحدود على فرش بالرصيف، ثم اكتشفت بعد فتـرة إمكانية سرقة عشاق السينما، خصوصا أولئك الخارجين من حفلة الساعة التاسعة الذين مازالوا واقعين تحت تأثير غـرام الأفلام، وقبلاتهم المسروقة بحماس في الظلام، إذ يتخيل كل منهم أنه بديل للبطل، أو البطلة الجميلة في الفيلم، فمن أولئك يمكن سرقة إيشارب من الشيفون الرقيق، يتدلى باسـتعراض من طرف حقيبة يد لسيدة أو فتاة أنيقة، أو سلسلة مفاتيح تطل من جيب بنطال شاب غندور، وقد سـاعد الحجـم الضـئيل

لصفية على نجاحها، والتوفيق في مهماتها دون أن يشعر بها أحد.

وفي يوم أسود لن تنساه أبدا، وقعـت فـي قبضـة البوليس دون أن تدري، مما جعلها وحتى هذه اللحظـة مـن حياتها، لا تندم على شيء قدر ندمها على غفلتهـا، وعـدم تنبهها للخطأ الذي ارتكبته، فبعد أن بلغـت بحـوالي ثلاثـة شهور، كانت تسير ذات يوم في شوارع المدينـة، بجسـدها المتعب، وعظامها التي تشعر أنها على وشك التفتت بسـبب حالة الطمث التي هي فيها، لاحظت سيدة لها مؤخرة ضخمة كمعظم النساء المصريات، وإلى جوارها طفلـة، ربمـا لـم تتجاوز السادسة من عمرها، تضع حول رقبتها سلسلة ذهبية، يتدلى منها على صدرها، مصحف صغير بفص أزرق عنـد منتصفه، تدوران للفرجة على الواجهات الزجاجية لمحـلات ملابس الأطفال، وإذ هما واقفتان أمام أحد هـذه المحـلات والأم مشغولة بتفحص المعروضات، لتنتقي شـيئًا لطفلتهـا، امتدت يد صفية إلى مشبك السلسلة المسـتقرة علـى رقبـة الطفلة من الخلف، وحاولت فتحها، لكن الصـغيرة، تنبهـت

فورا وصرخت مما جعل الأم تلتفت وتمسك بيد صفية بعنف طالبة النجدة من عابري الطريق.

لسوء الحظ، كانت السيدة ابنة لضابط مرموق في الشرطة، مما استلزم أن تذوق صفية علقة متميزة، موصى عليها، تولى أمرها متخصصون في الإيذاء والإيلام دون ترك آثار يعتد بها الطب الشرعي، وعندما انتهوا من مهمتهم التي استغرقت ما يقارب ساعة من الوقت، كانت صفية تشعر بأن عينها اليمنى لا بد وأن تكون قد أصابها ما أصاب عينها اليسرى منذ زمن بعيد. في اليوم التالي لذلك، جرى تقديم صفية للنيابة التي حولتها بدورها للقضاء، لتحصل على حكم بالسجن لمدة سنة لأول مرة في حياتها، ولتصبح تلك السنة، فاتحة لعلاقة طويلة ممتدة بين صفية والسجن الذي سوف يقسم معها الشطر الأكبر من عمرها.

ويبدو أن الزمن كان يقف لصفية بالمرصاد، مؤكدا أنه طرف في مصائر البشر، مهما كانت قوة إرادتهم ورغبتهم في العيش، على نحو هادئ لا يكدره شيء، يقلق سعادتهم، أو أن هناك بعض الناس يرسم تاريخهم لحظة ميلادهم لأن صفية لم تستقم حياتها وتمضي بسلام، حتى

النهاية، مع والديها والزوج الحائط الذي كان يفضـل تربيـة الأولاد والأعمال المنزلية على أية أعمـال أخـرى خـارج البيت، مما جعله يرعى الولدين بكفاءة وشغف، أتاحا لصفية التفرغ لمهمتها الأساسية في توفير النقود، وإعالة الأسرة التي استطاعت الوفاء بكل متطلباتها، إلى الحد الذي جعـل حلـم دخول الولدين الجامعة، ضرورة غير قابلة للنقـاش، وهـو الحلم الذي راود ملايين الفقراء والمغمورين، بعد إعلان عبد الناصر مجانية التعلم، لقد كان ذلك بالنسبة لصفية وزوجهـا هو الإمكانية الوحيدة، والأمل الحلم في أن يتحولا إلى أنـاس لهم وجودهم المحترم في المجتمع، لذلك عملت على تـوفير كل ما يمكن أن يوفره الناس المحترمون، برأيها، لأولادهـم، فكانت حريصة على أن تكون ملابسهم لائقة، وبيتها نظيفًـا، لا يخلو قدر الإمكان، من سلع حديثة تعبـر عـن الترقـي والتمدن، حتى لا يشعر ولداها بكونهما أقل مـن الآخـرين عصرية وحداثة، فكانت تشتري كل الأشياء مهما كان سعرها أو ضرورتها العملية، مثل ولاعة الغاز، والمبيدات الحشرية، وعلب سوائل يعطر رشاشها الجو، وأنـواع متباينـة مـن غسولات الشعر، ومجففه الكهربائي، إضافة إلـى الأجهـزة

الكهربائية الكبرى كالغسالة والثلاجة والبوتاجاز والتليفزيون والفيديو، وببساطة مأساوية تطلبتها الاحتياجـات العصـرية المفترضة، والمتجددة دوما، لتلك الأسرة السـعيدة، دخلـت صفية في عالم تفيدة أكبر تاجرة مخدرات في منطقة الـدرب الأحمر.

كانت صفية تعتبر كادرا نادرا، بالنسبة لتفيـدة فـي شبكة تجارتها الواسعة المنظمة تنظيما دقيقًا يجعلها في مأمن دائم من هجمات البوليس الذي كان ملما بنشاطها إلـى حـد كبير، لكنه لا يستطيع اتخاذ أية إجراءات ضدها، بسبب عدم ثبوت الأدلة، نظرا لمهارتها في تنظيم عملها، ولأن كثيرا من عيونه عليها، هم عيون لها أيضا، وقد استفادت تفيـدة مـن علاقات صفية الواسعة، ومعارفها العديدين، بسبب ترددهـا على البيوت، وعدم الاشتباه فيها في هذا المجال، فكانت تقوم بمهمات التوزيع الصعبة، مقابل حصولها على مبلـغ يفـوق رأس مالها في تجارة الأقمشة والبضائع الصغيرة الأخـرى التي كانت تتاجر بها، فانتعشت أحوالها المالية انتعاشًا بلغ حد شرائها دكانًا لزوجها ووالديها، ليصبح أحد مراكز نشر زبالة السينما الأمريكية الممثلة في أفلام العنف والرعب والكاراتيه،

إضافة إلى أفلام السينما المصرية التي لا رجاء فيها غير أن مفتاح الصدفة، فتح عيـون البـوليس، علـى ذات العـين الزجاجية، بينما كانت تقوم بتوزيع حصة بودرة هيروين على تاجر مخدرات تابع لتفيدة في صاحية من ضواحي المدينـة فقد هاجم البوليس في هذه الأثناء العمارة التي يقطـن بهـا التاجر، للقبض على أحد أفراد الجماعات الإسلامية، وأخـذ في تمشيط الشقق بحثًا عن قنابل ومتفجرات وأسلحة ناريـة من تلك الأنواع التي تستخدمها هذه الجماعات في مواجهـة السلطة، وجرى البحث بحماس، ودقة، فلم يترك موضع، إلا وفتش في العمارة التي تعد نموذجا أمثل لانحطاط فن البنـاء في مصر، والدليل المبين على انعدام ضمير بعض العـاملين في البلدية، ورؤساء الأحياء، وهيمنة تجار الأسمنت والحديد المسلح وحثالة المعماريين على قطاع التشـييد والبنـاء، إذ كانت أشبه بصندوق أحذية قائم، له فتحات ومنافذ، وقد طلى بألوان تفتقد إلى كل حس وذوق جمالي، مما جعـل واجهـة البناية، أشبه بقطعة من الحلوى الرديئة ولسوء حظ صـفية، ارتاب بعض رجال البوليس في الحقيبة الشامواه الأنيقة التي تتأبطها على نحو لا يتفق وامرأة ذات عين زجاجية، وجسـد

لا تقل الحقيبة عن حجمه كثيرا، فأمروها بفتحهـا، ليجـدوا بانتظارهم أكياسا مليئة بالمسحوق المخدر ترقـد متراصـة، أسفل قطع القماش الملونة، والجوارب الرجاليـة، وربطـات العنق الحريرية المجلوبة من المنطقة الحرة ببورسعيد.

وهكذا، عادت صفية إلى السجن، دون أن يداخلها أي شعور مأساوي من جراء ذلك، كما حدث لها من قبـل، بـل كانت راضية عن نفسها تماما، لأنها أدت رسالتها في الحياة على أكمل وجه فالولدان التحقا فعلاً بالجامعة، والأول متفوق في دراسة الزراعة إلى حد كبير، رغم أنه لـن يعمـل فـي مجالها بعد التخرج، لأن الزمن لم يعد زمن زراعة بل زمن سياحة وسمسرة ووساطة، وما يسـمى برجـال الأعمـال، وصفية من ناحيتها أمنت للولدين دخلاً معقولاً، إلـى الحـد الذي جعل الولد الآخر، يخطب زميلة جامعية له كان يحبهـا وأصر على الارتباط بها.

ولم تكن صفية مهتمة بدخولها السجن، هـذه المـرة أيضا، لأنها حولت معظم مكاسبها من تجارة المخدرات، إلى مشغولات ذهبية أخفتها في التربة التي اشترتها قبل القـبض عليها بفترة، وبنت فيها مدفنين، وسورتها بسور عـال، ذي

باب حديدي ضخم مشغول، لم تترك مفتاحه للتربـي أبـدا، وذلك تحسبا لحدوث ما حدث لها، فتقوم الحكومة بمصـادرة ممتلكاتها الثابتة والمنقولة، وتأتي على كل أخضـر ويـابس صنعته بعرق جبينها المسفوح بكل وسيلة غيـر قانونيـة أو مشروعة.

تلقت صفية حكما بالسجن المؤبد حمـدت ا عليـه كثيرا بعد ذلك لأنه لم يمر إلا وقت قصير على سجنها وتنفيذ الحكم، إلا وكان الإعدام نصيب المتاجر فـي المخـدرات أو الذي يقوم بجلبها من خارج البلاد لكن حياة السجن القاسـية ومرور الأيام جعلاها تبتئس وتسرع الخطى للانضمام إلـى نادي الشيخوخة إذ باتت أوقات السجن تمر عليها وكأنها دهر من الزمان، بل وتعذبها إلى الحد الذي أصبح معه هاجسـها الحقيقي في الحياة هو الخوف من أن تموت وحيدة مبعدة عن والديها ولا تتاح لها الفرصة، للعيش معهما مـرة أخـرى، وكانت تمضي لياليها تتذكرهم، ودموع كثيرة تنداح من عينها حتى عندما يغلبها النوم وتنام، تظل في أحلامها التـي هـي أجمل لحظات حياتها في السجن، تتحدث إليهما، كما لو كانت ما تزال تعيش بينهما بالفعل، فتشير على الثاني ألا يسـرف

كثيرا في تدليل خطيبته حتـى لا تتمـرع وتركبـه وتـدلي رجليها، وتساعد الأول المصاب بعمى الألوان فـي اختيـار ملابسه، خصوصا أنه لا يفرق ما بين الأزرق والأخضـر، أما الزوج، فهي تذكره بالخير، لأنه كان الرجل الوحيد الذي حضنها وآواها دون سائر رجال الدنيا، بعـد أن ألقـت بـه الصدفة في وجهها، إذ أنها شيعت خطابا لأمها ذات مرة في بلدتها البعيدة، زمن أن راجت الفلوس في يدها، عندما عملت بالتجارة، بعد خروجها من السجن، فردت عليها أمها تعلمهـا بوفاة زوجها، ودلتها على عنوان قريب لها بالقاهرة، فذهبت إليه لتقيم عنده، فلما وجدها معطاءة، لا تكلفه شيئًا، بـل ولا تبخل عليه، بعطاء مما يعطيها ا ، اقترح على نفسه، اقتراحا عمليا لن يضيره أبدا، وجد معه أنه من الأفيد له التزوج بها، فلن تجود أيامه الصعبة عليه بزوجة أفضل منها.

كلما امتد الزمن بصـفية فـي السـجن، كلمـا زاد سخطها، وغضبها على الحكومة التي هي سـبب مشـكلتها وتعاستها والفرقة بينها وبين عيليها، فهي لا تفهم، ولن تفهـم أبدا، لماذا كل هذه القسوة من قبلها على واحدة مثلها؟ فهـي تفهم أن تتدخل الحكومة في مسائل النشل، والسرقة، والقتل،

لكن المخدرات.. لماذا؟! فالناس يشترون المخدرات عن طيب خاطر، وعندما يتعاطونها، يروق مزاجهم، وتصفو نفوسهم، وكانت صفية ترى أن كلام كل الذين يظهرون في التليفزيون عن المخدرات ما هو إلا مبالغات سخيفة، لأن الأكل نفسه لو لم يعتدل فيه الإنسان، لضره ضررا شديدا، بل وكانت متأكدة أن كل ما يكتب في الصحف أيضا ما هو إلا كذب، لأن أولئك الذين يتحدثون عن المخدرات، هم أنفسهم الذين يتحدثون عن كل شيء في البلد بالكذب، ولا يقولون الحقيقة أبدا، وربما لا يستطيع أحد لومها على ذلك، إذ اختلط الحابل بالنابل، وبات الدفاع عن الشر، وتجميله، من الأمور الشائعة في حياتها، ولذلك كان شعور صفية بالظلم الواقع عليها من ناحية الحكومة – كما تعتقد – يتجلى في مهاجمة كلية الحقوق، وشتمها قدر الإمكان، والدعاء عليها بعد سماع كل أذان، وخصوصا الفجر والعشاء، اعتقادا من صفية أن الدعاء بعدهما مستجاب أكثر ، وكانت المقولة الدعائية المفضلة لديها هي "إلهي يهد كلية الحقوق"، لأنها الكلية التي تخرج منها القاضي الظالم، برأيها الذي حكم عليها الحكم الجائر الشنيع والذي قرر فيه إبعادها عن والديها لمدة خمسة

وعشرين سنة، ولذلك فهي ما فتئت ترسل الشـكاوى لكـل الجهات المعنية، بما في ذلك رئاسة الجمهوريـة، ومجلـس الوزراء، على أساس أن الحكم الصادر بحقهـا لا يليـق ولا يجب، وقد كانت تلك الشكاوى من الخيوط التي ربطت صفية بمحروسة أيضا، لأن محروسة كانت تتصل بعائلة صـفية، وتشرف على كتابة الشـكاوى، ومتابعتهـا، أمـا الخيـوط الأخرى، فكان على رأسها ذلك التقارب في عمريهما، وهـم العيال الذي تحمله كلتاهما، بداخلها، لكن كرم صفية الـدافق، كان من العوامل الأساسية المرجحة، لتـدعيم العلاقـة بـين المرأتين، فصفية لا تبخل على محروسة بأي شيء يأتيها من والديها عند زيارتهما لها في السجن، ابتـداء مـن الطعـام، والملابس، والأحذية، وحتى الـدواء الـذي تعطيـه صـفية لمحروسة، خصوصا أدوية الروماتيزم، ونزلات البرد التـي تختفي من الصيدليات أثناء الحاجة لها في فصـل الشـتاء، لأسباب يمكن معرفتها لدى الإدارة العليا في شركات القطاع العام، والأكثر من ذلك أن محروسة كانت تعتبر صفية بنـك التسليف الخاص بها، فهي طالما استدانت منها نقودا، كانـت لا تأخذها منها في السجن، لأن العملة الوحيدة المتداولة فيه،

هي السجائر التي يمكن مبادلة أي شيء بها، حيث أن نسبة المدخنات تصل إلى تسع وتسعين بالمائة، على الأقل، من مجموع السجينات اللواتي يتوقف عدد العلب التي يدخنها حسب الوضع المالي لكل واحدة منهن، ودرجة إدمانها للتدخين، وبالطبع يرتفع كم السجائر المدخنة لدى أولئك اللواتي كن يتعاطين المخدرات، وبنات الدعارة، أكثر من غيرهن من السجينات، لكن محروسة كانت تأخذ قروضها الحسنة التي بلا فوائد أبدا، من ابني صفية عندما ما يزوران أمهما في السجن أو حين تذهب هي إليهما في البيت، وقد وصلت العلاقة بين أختي الصفاء، إلى الحد الذي جعل زوج صفية يوظف في محل الفيديو الذي يخصه، ابنة محروسة مقابل مبلغ شهري معقول، بعد حصولها على دبلوم التجارة، بل ويتدخل في فض الخلافات التي تحدث بين البنت وأمها، بسبب رغبة الابنة في الزواج بعريس تقدم لها، يعمل كهربائيا للسيارات، لكن الأم رفضته بشدة، لأنها حلفت وأقسمت ألا تتزوج أية واحدة من بناتها وهي على وجه الدنيا، لأن الرجال كائنات شريرة خلقت من ضلع الشيطان، ورغم أن بقية بناتها، كن مقتنعات تقريبا بهذه الحقيقة، ربما

بسبب أنهن جئن الخالق الناطق، نسخًا مكررة من أمهن، إلا أن الصغرى، كان لها شعر ناعم فاتح اللون، خفف من وطأة الأمر، أنها أطالته حتى بلغ منتصف ظهرها، مما فتح بـاب الرجال المغلق في وجهها، وأغـرى كهربـائي السـيارات الأصلع منذ كان عمره أربع وعشرون سنة، وقـد سـاهمت مساحيق تجميل الوجه بكل ألوانهـا الحمـراء، والزرقـاء، والخضراء التي تضعها هذه الابنة في حسم أمر رغبته بها، فتقدم طالبا القرب منها.

ولأجل خاطر زوج العزيزة صفية، وافقت محروسة بعد لأي على إتمام الزواج، بعد كتابة مؤخر صداق كبيـر، وعلى أمل أن يفشل الزواج سريعا فتعود ابنتها الضالة إلـى حظيرة المؤمنات بنظرية الضلع الشيطاني، وتنضم إلى كتيبة بناتها المعادية للرجال، مرة أخرى.

لسنوات طويلة كانت عزيزة ترقب عن كثب، مـدى العلاقة التي تنمو بين محروسة وصفية، وتتابع بدقـة حبـل الوداد الممتد بينهما، وقد أنفقت ليالي طويلة تحتسي خمرهـا النيلي، ملتهمة أنفاس سجائرها التي لا ينقطع دخانها المختلط بدخان صدرها المشتعل بالرغبة في تحقق العدالة، والرحمـة

على الأرض، إذ تفكر في حالتهما، فمـن خـلال معرفتهـا العميقة بسجن النساء، قلما عثرت علـى علاقـة صـادقة، حميمة، محملة بالود والإخلاص، كتلك العلاقة التي نشـأت ونمت بين محروسة وصفية، وقد كانت تلك العلاقة وحـدها، هي السبب الأساسي الذي دفعها للتفكير في ضمهما لراكبات العربة الذهبية الصاعدة إلى السماء، رغـم أنهـا لا تحـب شخصية صفية أبدا، ولم تحترمها في أي يوم من الأيام، لأنها برأيها أفاقة، ومجرمة بالطبيعـة، ولا يمكـن أن ترعـوي، ويصلح حالها، مهما امتد بها العمر، وعاشت من الأيام، لكنها ستحملها إلى السماء لأجل خاطر محروسة الملائكية الـروح الشيطانية الوجه الطاهرة النفس والجسد التي عمدت بـدموع آلامها وعذاباتها الكثيرة، كقديسة حقة لا يمكن تبجيلها حقًا إلا في السماء، وعزيزة لا تريد حرمانها وإبعادها عن الصـدر الحنون الوحيد المحب لها في هذه الدنيا، وهو صدر صـفية التي لا تمانع عزيزة في إعطائها فرصة أخيرة، فربما – لو صعدت إلى السماء – تطهرت من شرورها، ومحت الحيـاة الملائكية التي سوف تحياها هناك مع جماعة نسـاء العربـة الذهبية، ما لطخته أيامها الدنيوية في نفسها، فهي على أيـة

حال، وكما أثبتت تجربتها مع محروسة، لا تخلو من خيـر، وقلبها ليس بكامله بلون السواد، فهناك مناطق طيبة، مضيئة فيه قد تمتد، وتغمره كله بنورها لو سنحت لهـا الفرصـة، وتبسمت الظروف غير أن الأيام، ضنت على عزيزة، بأمنية صغيرة كهذه الأمنية، فبعد مرور حوالي أسبوعين على يـوم قناع العسل الأبيض، وجدت صفية في فراشها عند الصـباح راقدة رقدة الموت الأخيرة، بينمـا كانـت تحملـق بعينهـا الزجاجية حملقة شعرت معها كل اللـواتي لاحظنهـا، مـن السجينات الملتفات حول الجسد الساجي، وكأنها صادرة عن عين حقيقية، تتطلع بحزن وأسى، للقطعة السماوية الزرقـاء التي تسمح برؤيتها فتحة شباك السجن المسـيج الموضـوع بالقرب منه سريرها، أما يداها الماهرتان اللتان طالما سرقتا بخفة ومهارة، فقد كانتا تقبضان بشدة على صـورة ولـديها الموضوعة على صدرها، وهما يبتسمان بسعادة من لا يخاف المستقبل.

كانت ذات مرة زنوبيا

تحظى الدكتورة بهيجة عبد الحق بـاحترام نـادر – مفتقد عادة – من جميع الأطراف في سجن النساء، بما فـيهم إدارة السجن ذاتها التي تقابل بحذر وخوف، وإذعان من قبل السجينات اللواتي يتجنبن قدر الإمكان الاحتكاك بهـا، فـلا يتعاملن معها إلا في أضيق الحدود، محافظات بـذلك علـى تقليد مصري قديم، هـو أن يكـون الحكـام فـي جانـب، والمحكومون في جانب آخر، تمثلاً لدرس تـاريخي مـدفوع الثمن، دماء وأرواحا، مرات ومرات، ابتـداء بعصـر بنـاة الأهرام، وما تلاه من عصور الفوضى التي سـادت زمـن الأسرة السادسة، والأسرات الأخرى المضمحلة بفعل نتـائج الاستبداد الفرعوني، والقهر القائم على الاصطفاء والتمييـز بين البشر، مرورا بفترات الفرس، والبطالمـة، والرومـان، والعرب، والمماليك، والترك، والفرنسيين والإنجليز، وانتهاء بانتفاضة الجوعى في شتاء ١٩٧٧، هذا الدرس الذي يفيد أن كل تذمر، أو احتجاج، مقدر له الـبطش، ومصـيره الفشـل الأكيد، إذا لم يكن من القوة والجبروت بما يكفـي لمواجهـة

الحاكمين إلى حد القضاء على سلطتهم، والحلول محلها، وهو الدرس الذي أثبت صحته فشل كـل الـذين لـم يسـتوعبوه فظهروا بمظهر البطـل المثـالي المأسـاوي، كـالفرعون الفيلسوف إخناتون، وهمام السوهاجي الذي انتهت أحلامه في الاستقلال بتجريدة مملوكية انقضت عليه من مركز الحكم في القاهرة، وطالته في عقر داره بالصعيد.

لا يعود احترام بهيجة عبد الحق، إلى أنها شابة طيبة مهذبة، تنتمي إلى عالم البراءة، وقلة الحيلة، أكثر مما تنتمـي إلى عالم الخبث، وطاحونة الصراع العمال بكـل الوسـائل الممكنة في دنيا البشر، لكنه يعود أساسا، إلى كونها طبيبـة، تحترم مثلما يحترم أي شخص بمجرد التحاقه بكلية الطب في بلاد ارتبط فيه الطب بالحكمة، تاريخيا، غالبية سـكانه مـن فقراء الفلاحين الذين يرتفعون بالأطباء إلى مصاف الأنبيـاء المخلصين، ليس لأرواحهم من عذاباتهم التي قلمـا يلتفـت إليها، ولكن لأجسادهم من آلامها وأمراضها المزمنـة التـي تبدو وكأنها واقع مقدر لهم سلفًا، لم تكن تهمة بهيجة – مـن زاوية نظر السجينات – مخلة بالشرف أو الأخلاق، فتستحق الحبس بسببها، حتى لو كانت تسببت، فعلاً في وفـاة طفـل

صغير، لم يتجاوز التاسعة من عمره، إذ أخطأت في تخديره لإجراء جراحة اللوزتين له بأحد المستشفيات الخاصة، فوفاة الأطفال أمر شائع كثيرا، لا يختلف عن نفـوق الكتاكيـت، وصغار الفراخ، بل إنه يحدث يوميا في الريف، والمدينـة، لهذا فإن المسألة في رأيهن يجب أن توضـع فـي حجمهـا الطبيعي، دون تهويل كتهويل الحكومة لما حصل مع بهيجـة عبد الحق، فكل امرأة لم يحرمها ا مـن نعمـة الخصـب والإنجاب، تستطيع بسرعة تعويض كل طفل مفقود، سـواء أكان ذلك بسبب خطأ في عملية جراحية، أو بسبب الجفاف، أو النزلات المعوية، أو الحميات الفولكلورية المنتشرة كنتيجة لعدم توفير المياه الصالحة للشرب، وسوء الصرف الصحي، وللدور الرمزي لوزارة الصحة في الأرياف ، ولعـل هـذا يفسر كيف أننا كشعب عشنا – والحمـد – سـبعة آلاف سنة، ولم نزل، دون أن نفنى، رغم البطش والعسف، وكـل الاحتلالات، والطواعين، وجفاف النيل والأطفال، والمجاعات التي بلغت أوجها في الشدة المستنصرية.

لم تكن سنوات الحكم القليلة التي لم تتجاوز الثلاثـة، والتي حكمت بها المحكمة على بهيجة عبد الحق، أو الاحترام

الكبير الذي تتمتع به في السجن، أو التسهيلات الكثيرة التي تحصل عليها من السجينات الحريصات على راحتها وخدمتها، بسبب رعايتها الصحية، ونصائحها الطبية لهن، لتخفف من وطأة شعورها بالمرارة، والحقد على الناس، والحياة، والدنيا كلها، فهي تعيش كل لحظة من لحظات أيامها في السجن، تتجرع الكراهية التي تحملها، للحياة، وتجعلها تفكر في الانتحار دوما، دون أن تساعدها شجاعتها على تنفيذه فعلاً، لذلك فهي تكتفي بقضم أظافرها، طوال الوقت، إلى حد تجور به على الجلد المحيط بها، فيبدو في حالة تآكل واهتراء غير مفهومين لمن يراه، ولا تكف عن العبث بخصلات شعرها في حركات عصبية، قلقة، تواكب نظرات عينيها الحزينة الساهمة المحبطة، بينما معدتها تجاري على نحو ممتاز، شعورها المستفز، بحركة لا إرادية، دءوبة على إفراز حامض الإيدروكلوريك، مما بشر بحدوث مبادئ التهاب بها، وقرحة سوف تحتل موقعها على جدران غشائها المبطن، بعد سنوات قليلة.

كانت بهيجة من النمط الذي يتمنى أن تمنحه الحياة الكثير مما تجود به على غيرها من الناس، لأنها – وفقًا

لرأيها، وللحقيقة أيضا – تمتلك قدرات، وإمكانيات تسـتحق عليها جانبا من حب الدنيا التي لا تبخل على كثير من غيرها به، وذلك أبسط قواعد العدل الذي لم تتوقف بهيجـة، رغـم ذكائها الشديد، مرة لتفكر في أنه لفظـة مطاطـة، تشـكلت بأشكال عديدة، منذ بلورها حمورابي في تشريع تمت سرقته بعد ذلك ليصبح غير أرضي، وربما فسر ذلك جانبـا مـن جوانب شخصية بهيجة، ذات الطابع المأساوي فـي سـاحة الحياة، فقد كانت ومنذ أن وعت ذاتها في الدنيا حريصة على أن تكون النموذج الأدق للمثل الأفضل في رأسـها، للكـائن الحي، حتى يشملها العدل برعايته، وتبقى دائما فـي خانـة التفضيل، وقد استدعى ذلك منها أن تبذل، وعلى نحو دائـم، جهدا كبيرا لتكون مختلفة، متجـاوزة كـل المحـيط الـذي يحاصرها، ويملي عليها شروطه المسبقة، فاسـتطاعت فـي البداية أن تقتنص فرصة دخول المدرسة، وهي الفرصة التي لم تتح لشقيقتين لها، كانتا قد سـبقتاها إلـى الحيـاة، فقـنن مصيرهما، أن تكونا، وإلى الأبـد فـي العـالم الاجتمـاعي السفلي، وقد تبدت براعتها بالاقتناص في قـدرتها المدهشـة على استيعاب، وتحصيل دروسها، رغم مريلة مصنوعة من

تيل نادية الخفيف، كانت ترتديها في عز الشتاء، فوق جلابية من الكستور العادي، متخلفة عن إحدى أختيها الكبيرتين، بعد أن يأبى جسدها النامي الدخول فيها، ورغم الجوع المـزمن الذي لم يقمع أبدا، بسبب حصول معدتها على حصة يسـيرة من طعام لم يكن يتوفر بنوعيات أو كميات كافية، بسبب دخل الأب المحدود، ولم تقف الرطوبة القارسة التي تطرد الدم من أطرافها عندما تنحني على أرضية الحجرة التي لا يغطيها إلا الحصير، لتكتب واجباتها المدرسية بكسرة قلم رصاص، ولا الالتهاب الخفيف بفروة رأسـها بسـبب الكيروسـين الـذي تستعمله أمها لتدليكه به تجنبا للحشرات، عائقًا يحـول بـين بهيجة وبين الأولية الدائمة في الدراسة، منذ أن ولجت عـالم المدرسة السحري الذي فتحت أبوابه العجيبة بيـديها علـى مصاريعها، فكانت الأولى فـي السـنة الأولـى، والثانيـة، والثالثة، حتى بلغت نهاية المرحلة الثانوية.

كانت بهيجة محظوظة، لأنها تعلمت في ذلك الـزمن المخطوف من تاريخنا البائس الذي احتفظ دائما، منذ زمـن الكهانة الأولى، بامتياز التعليم لقلة اجتماعية عليا، كانت تعيد إنتاج سيادتها بوسائل مختلفة منها العلم فـي ذلـك الـزمن

المخطوف، شاركت بهيجة بنت الخفير ابنة أي وزير المقعد المدرسي نفسه، لتحصل كل منهما على الجرعات التعليميـة نفسها، صحيح أن العدالة الظاهرية في مجانية التعليم كانـت تنطوي على كثير من التضليل والكذب، لأن ابنة الخفير مـا كانت يوما من الأيام، كبنت الوزير، فهي لم تأكل أبدا طعاما من النوع نفسه، ولا باتت مثلها على فراش ناعم وثير، بـأي حال من الأحوال، بل ولم تحظ بامتياز الحصول على دروس خصوصية مدفوعة الأجر، من مدرسي المدرسة التي تتعلمان فيها، لكن الباب المفتوح للتنـافس العلمـي، وبـذل جهـود مضاعفة، وشحذ قدرات عقلية كبيرة، ثم الـدأب المتحـدي للحصول على أفضل مكانة دراسية، أتاحا لبنت عبد الحـق الخفير، أن تفرض نفسها، وتبقى في موقع الأوليـة بالنسـبة لجميع طالبات مدرستها الثانوية، بما فيهن بنت الوزير أيضا، وهكذا التحقت بهيجة بكلية الطب، وهذا ما عنى انتقالة نوعية جديدة في حياتها، ودخولها مرحلـة صـعبة مـن مراحـل الصراع الذي يؤججه باعث داخلي خفي لدى بهيجة، إضافة إلى عوامله الظاهرية، وهو الباعث المرتبط بالرغبـة فـي تحقيق حلم الأب الذي كان يعمل خفيـرا بإحـدى شـركات

الأدوية، ويعتبر الأطباء، بحكم الظروف، مثله الأعلـى فـي الحياة، إذ كان يسد العجز المزمن في ميزانيته الأسرية، عن طريق ممارسة هواية مفيدة تتمثل في إعطاء حقن بالعضـل والوريد مقابل مبالغ نقدية صغيرة، لمرضى حيـه الـذين لا يقوون على الانتقال إلى الصـيدليات، أو الحصـول علـى ممرضين ليليين للقيام بذلك، وكان عبد الحق يسد بذلك بعض أوجه الإنفاق العائلي المتزايد الذي كان التضخم المالي بسبب السياسات الاقتصادية الفاشلة للدولة، يجعله في تزايد مستمر.

لم تواتِ ذلك الخفير الحالم الفرصة لرؤيـة حلمـه الطبي مجسدا في شخص ابنته الذكيـة، فلقـد مـات، فـور حصولها على الثانوية العامـة، بسـرطان المثانـة نتيجـة لبلهارسيا قديمة مزمنة، مما جعل بهيجة تجدد عهدها السري الذي قطعته على نفسها، للأب، عندما كانت تزوره في قبره كل سنة عند حلول ذكراه، فتقرأ له الفاتحة ثم سورة "قل هو ا أحد" مع أمها وإخوتها، أن تكون الأولى دائما، وقد كانت تفعل ذلك وهي تذرف بعضا من دموع الاشتياق والـذكرى، وتضع سعفًا أخضر، وإقحوانات صفراء على قبره، واعـدة إياه بمزيد من التفوق في العام الدراسي المقبل، رغم معاناتها

الفظيعة التي تجعلها وكأنها جندي يصبر على ما ابتلي به في ساحة حرب ضروس، فتكاليف الدراسة كانت باهظة بالنسبة لدخل أسرتها الذي تناقص بسبب وفاة الأب، ثم هناك مشكلة عريها الاجتماعي الذي بات واضحا لأنه لم يعد هنـاك زي مدرسي موحد يخفيه، فلا قبل لها بمواجهة ومجاراة بنـات، وأبناء الطبقات العليا والوسطى الذين يحولون ساحة الجامعة إلى استعراض دائم لأحدث الأزياء والموضات، لكنها رغـم الآلام النفسية الكبيرة التي عانتها، بسبب كل ذلك، استطاعت حفظ ماء الوجه بملابس بسيطة متوافقة الذوق، كانت تحيكها بنفسها، مستفيدة من الإرشادات التي يمكن الحصول عليهـا من بعض المجلات السيارة، وخصوصا مجلة حـواء التـي كانت المجلة النسائية الوحيدة التي تحـرص بهيجـة علـى شرائها بقروش مقتطعة من نقودها القليلة، وقد أرسلت مرة، للمجلة تسأل عن كيفية التخلص من الهالات المحيطة بعينيها دائما، فلم تتلق إجابة لضياع خطابها في البريد، وهكذا، سعت بهيجة لتسير مركبها في الحياة، رغم الأمواج العاتيـة التـي تصارعها لتصل في النهاية إلى تحقيق حلم الأب المقبور.

غير أن بهيجة التي كانت الأولى في الطب، كانت الأخيرة في الحب، ففي سنتها الجامعية الثالثة، تقرب منها زميل لها، أحبته إلى حد ملاقاته خارج أسوار الجامعة في حديقة الحيوانات، والأسماك، وعلى شاطئ النيل، وفي كل الأماكن الأخرى المتاحة لأوقات غرام قصيرة، لا تكلف أكثر من أجرة الانتقال وتناول مشروب استعماري، كالكوكاكولا أو البيبسي ، مع ساندوتش فول وطعمية، خلال ذلك الزمن الجميل، بذلت بهيجة جهدا صادقًا، ومحاولات جادة لتكون على أجمل صورة ممكنة عند ملاقاة الحبيب – زوج المستقبل فكانت تضع على وجهها أقنعة من عجينة النشا والملح في محاولة منها لحصار البثور، والتقليل من دهنية بشرتها، وتبيت طوال الليل في قلق، بسبب لفائف ودبابيس الشعر التي تضعها في رأسها قبل النوم، ضمانًا لأن يكون شعرها جميلاً صباح اليوم التالي، وقد ظنت وقتها، أنها بالغة منتهى تحققها في الحياة، وواصلة إلى كامل مرادها، فلن يمر عامان آخران، إلا وتكون قد تخرجت، وعينت ضمن طاقم هيئة التدريس، لأنها لا بد وأن تكون الأولى كعادتها، رغم الدروس السرية التي يقدمها الأساتذة لطلابهم الأغنياء مقابل

مبالغ خيالية، يدفعها أهلهم بكامـل الرضـا، مـن أمـوالهم المجلوبة من بلاد النفط، أو المنهوبة مـن مـال الحكومـة، والقطاع العام، أو من التجارة في كل شيء يمكن أن يجلـب أكبر ربح في أقل زمن ممكن، ومع أنها لم تكن لتراهن على تفوق الحبيب عمليا، لأنه كان ينجح بالكاد، إلا أن ذلـك لـم يمنع تخطيطها للارتباط به، فهو كزوج مقترح، يبدو ملائمـا لها من جوانب كثيرة إذ أنه ينتمي لطبقة تعلوهـا اجتماعيـا بعض الشيء، فأبوه من كبار صغار الموظفين في مصـلحة الضرائب، يكفي مرتبه بالكاد أسرته الكبيرة التي يساهم دخل الأم، من عملهـا كخياطـة فـي الحفـاظ علـى مسـيرتها الاقتصادية، مما يعني أن بهيجة ستبدأ حياتها الزوجيـة مـع حبيبها درجة درجة، ليبنيا من الصفر قفصا زوجيا، يجمعان قضبانه قضيبا قضيبا بكدهما وعرقهما المشترك، كمـا أنـه طبيب مثلها، وهذه مسألة بالغة الأهمية، لأن مـن الأفضـل التزوج برجل لا تقل شهاداته الجامعية عن شهاداتها أبدا.

بعد عامين من الآمال، والأحلام، والغرام المشبوب، اكتشفت بهيجة أنها كانت تقبض بكفيها على الريح، فمن كفها اليمنى طار الحبيب الزوج الذي طالما ظنتـه دعامـة مـن

دعامات تحققها الوشيك، وهجرها إلى زميلة أخرى، تخسـر أمامها بهيجة بالضربة القاضية في مجال الحسن النسائي، إذ كانت الأخرى تدعك بفلوس أبيها، صـاحب أحـد محـلات الأحذية الشهيرة بالمدينة، فانوس وسائل التجميـل السـحرية التي حولت شعرها الخشن باهت اللون، إلـى خيـوط مـن الحرير الذهبي المحيط بوجهها الذي يساهم مساهمات دائمـة في دوران عجلات معامل ماكس فاكتور، وهيلينا روبنشتاين، وياردلي، ولانكوم، وغيرها من قلاع صناعة التجميـل فـي العالم، بالإضافة إلى ملابسها الأنيقة المنتقاه بحرية الفلـوس، والتي كانت تتجدد على جسدها، تجدد أيام الأسبوع الدراسي، والأكثر من كل ذلك أن تلك الخاطفة لبهجـة قلـب بهيجـة، أعطته ما لم تمنحه بهيجة له أبدا، إذ آثرت الاحتفاظ بـدليل عفتها وطهارتها حتى ساعة الصفر الموعودة، ليلة زفافها أما كفها اليسرى فأصبحت خاوية أيضـا، لأنهـا اكتشـفت أن الأولية، وإن كانت مقبولة في مرحلة الدراسة الابتدائيـة، أو الإعدادية، أو الثانوية، أو حتـى طـوال سـنوات الدراسـة الجامعية، فإنها لا تمنح إلا بحسابات دقيقة لمن بـاتوا علـى عتبة الحياة العملية، فطغاة الطب الـذين ظلـوا يطرحـون

شعارهم القديم، ذا العين المثلثة، خلال الـزمن الناصـري، والمقصود به عزبة في الريف، وعربة، وعيادة، وهو الشعار الذي كان يعتبر منتهى أمل كل طبيب ناجح، طوروا الشعار على نحو مذهل بعد ذلك، زمن الانفتاح الاقتصادي، ليصـل إلى حد المستشفيات السياحية الضخمة التـي يمـوت علـى أبوابها كل مريض لا يدفع مصاريف علاجه الخيالية مقدما، هؤلاء الطغاة، لم يكونوا ليسمحوا أبدا لأمثال بهيجـة عبـد الحق، ابنة خفير شركة الأدوية، أن تشاركهم قدس الأقداس، فتزاملهم في هيئة التدريس التي باتت معملاً لصـنع نجـوم الطب اللامعة الجاذبة لأموال النفط من السعودية والخلـيج، وللعمولات والسمسرة، وإذا كان هؤلاء الطغاة قـد طيـروا مجدي يعقوب إلى لندن، ليظل بنبوغه وتفوقه شاهدا حيا على صحة المقولة القديمة " لا كرامة لنبي في وطنه"، فإنهم هووا ببهيجة عبد الحق من عرش أحلامها المحلقة، إلى أوضـاع مجتمعنا المرة، وأعطوها تقدير جيد، لا غير، بعد أن خسفوا بها الأرض في الامتحانات الشفوية التي لـم تعـط خلالهـا الفرصة لتجيب، وهي التي كانت وقتها تتلجلج فـي الإجابـة وتتردد، بسبب حالتها النفسـية المترديـة لفقـدان الحبيـب،

وضعف ثقتها بنفسها وهي ترتدي ملابس متواضعة كيفما اتفق، وشعرها ململوم ككعكة خلف رأسها في مواجهة سادة يرتدون بذات وربطات عنق فاخرة، ولا يدخنون إلا الغليون والسجائر الأجنبية المختلطة روائح دخانها، بروائح عطورهم ذات الماركات الشهيرة المجلوبة من عواصم العالم الأول.

هكذا أصبحت بهيجة عبد الحق طبيبة تنتمي إلى آلاف الأطباء المنسيين في مستشفيات وزارة الصحة المحتاجة إلى مستشفى ضخم لعلاجها من أمراضها المزمنة، وتحويلها إلى جهاز قادر على انتشال المجتمع من أمراضه التي تأكل أعمار الناس طوال الوقت.

في السنوات التالية للتخرج، اكتشفت بهيجة حقيقة مكانتها الاجتماعية المتواضعة كطبيبة قيمت الدولة أهميتها بمبلغ مائة وعشرين جنيها، فقط لا غير، أي ما يساوي ثمن قطعة، أو قطعتين من الثياب اللازمة للذهاب للعمل، أو ثمن أربعة أزواج من الأحذية التي تنتهي قيمتها الاستعمالية بعد شهرين، أو ثلاثة من الاستخدام، قد تمتد شهرا آخر، إذا ما أجريت لها عمليات إصلاح، وترقيع للكعب والنعل، عند جزماتي مخاص من ضرورة شراء حذاء آخر، وبالأحرى،

فإن راتبها حينذاك كطبيبة، يوازي صبغ شعر رأس فارغ لسيدة تنتمي للشريحة العليا من الطبقة الوسطى المتآكلة تدريجيا في ظل المتغيرات الاجتماعية الجديدة التي لم يعد العلم وسيلة من وسائل التحقق فيها، بعد أن قصف الغرب الرقبة المشرئبة للحاق به، بعد سقوط الزمن الناصري، وضياع ذكريات عيد العلم من الذاكرة الاجتماعية المثقوبة، عندما كان متفوقو المدارس والمعاهد والجامعات يمنحون من عبد الناصر جوائز، ليس بصفته رئيسا للجمهورية فحسب، ولكن باعتباره زعيما مخلصا، تعقد عليه آمال جملة شعوب، تعيش بين خليج النفط الأسود، ومحيط تقبع على طرفه دولة يحرم الفقراء فيها حتى من حبات فطر بري، يلتقط من الغابات، يقيمون بها أودهم.

وهكذا بقيت بهيجة، اجتماعيا في مكانها محلك سر، رغم سنوات الشقاء، والكد، وحفر الصخر بالأظافر، للتحرك من ذلك المكان، مما جعلها تتساءل دوما عن حقيقة كينونتها، وعبثية وجودها الاجتماعي، وهو التساؤل الذي أدى في النهاية إلى إصابتها بدرجة من الفصام، أو الجنون الخفيف الذي لا يلحظ، لأنها باتت واقعة في تناقضات حادة، ناتجة

عن كونها تحترم ولا تقدر، وبالطبع لم يلحظ أحد فصام بهيجة الخفيف، لأنه من النوع المصاب به ملايين غيرها، فهي تتصرف أثناء العمل بوقار وجدية لازمين للتعامل مع المرضى، وطاقم الخدمات الطبية المعاون لها، بل وتتعامل بخشونة أحيانًا، فتنهر الممرضات، وتقسو على بعض المرضى ممن لا يلتزمون بتعليماتها في العلاج، لكنها كانت بمجرد أن تغادر المستشفى، وتسير في الطريق، تشعر بالدونية، والضعة الشديدة، إذ ترى السيارات الفخمة السارحة في شوارع المدينة، والتي تقودها نساء في قمة التألق، والتأنق، وكأنهن ممثلات في السينما، وكان يقوي ذلك الشعور بداخلها، إذا ما توقفت أمام المحلات، متطلعة في أسعار السلع والأشياء التي تحتاج الكثير منها، وعندما تصل إلى البيت، تتحول إلى كائن آخر غير الذي كانته أثناء العمل، إذ تبدو متوافقة جدا مع الأثاث المنزلي المتواضع القديم، وطعام الغذاء الفقير الذي تقدمه لها أمها، دون تنويع عادة، مع كل تفاصيل حياتها التي لم تتغير كثيرا منذ كانت طفلة.

لقد كان مبعث فصام بهيجة غير الملحوظ في حقيقة الأمر، هو بحثها الدائب عن موقعها في الهرم السري

الصغير الذي تحمله بداخلها ككل الآخرين، والذي هو للفرد
بمثابة بوصلة، تحدد كيفية رؤيته وتعامله مع من حوله،
فيتطلع بتقدير واحترام لكل من هو أعلى منه في الهرم،
ويحتقر كل من هو دونه، فيه ولعل هذا يفسر كون مصر
البلد الأكثر ابتكارا لألفاظ التبجيل والاحترام، والمجاملات
اللفظية المعبرة عن حقيقة الأهرامات السرية الصغيرة
الكامنة في داخل أبنائها، وذلك باعتبارها البلد الذي عشق
الأهرام منذ سنوات موغلة في الزمان، وقد حارت بهيجة، إذ
وجدت تناقضا في موقعها الهرمي يختلف في ساعات عملها
عنه في بقية أوقات يومها، بالإضافة إلى ضآلة راتبها الذي
لم يسعفها كثيرا في تلبية حاجاتها اليومية البسيطة، لتعيش
على نحو أفضل مما كانت عليه أيام كفاحها الدراسي، وذلك
بسبب النشاط الدءوب للأسعار وقفزاتها العالية، وقد أيقنت
بمرور الأيام أن مسألة زواجها باتت مشكلة حقيقية لم تتنبه
إليها من قبل، فرغم أنها مقبولة الشكل، من النوع الذي يقبل
عليه الرجال دون حماس، لكنهم لا ينصرفون عنه تماما، إلا
أن عملها في وزارة الصحة، قلص فرصة احتمال التقائها
بشخص مناسب للزواج، فهي محاطة في مستشفى الوزارة

الذي أصبح كل محيطها الاجتماعي تقريبا، بعدد من الرجال، إما أن يكونوا قد تزوجوا فعلاً لأنهم كبار في السن، بقوا في الوزارة لتواضع طموحاتهم، فالأذكياء من الأطباء لا يطيلون عملهم في وزارة الصحة، فهم يهجرونها إلى أمـاكن عمـل بديلة في القطاع الخاص تتيح لهم دخـلاً معقـولاً، أو إلـى القطاع العام ليحصلوا على خبرة عملية تؤهلهم للانطلاق إلى مجال مهني أرحب، أو أن يكونوا شبانًا مـن أولئـك الـذين يحصلون على رواتب محدودة، لا تجعلهم يحاولون الاقتراب من عالم الزواج، مكتفين بمغامرات عاطفيـة عـابرة، مـع ممرضات المستشفى على الأغلب، أو مع أنماط من النسـاء مستوعبات لشروط مثل هذا النوع من الألعاب، وهي الأنماط التي لم تكن بهيجة عبد الحق ولن تكون منها أبدا.

الجانب الآخر من المشكلة، تمثـل فـي الوضـعية الأسرية لبهيجة، فإخوتها الأربعة الذين يكبرونها، لم يـدخل بعضهم إلى المدارس أصلاً، كـالبنتين الكبيـرتين، فكانـت النتيجة الطبيعية لذلك أن تزوجت إحداهما من عامـل فـي مصلحة المجاري، أما الأخرى فقد تزوجت بصعوبة شـديدة لأنها عرجاء بسبب شلل الأطفال الذي أصابها قبل أن تكون

الحملات الحكومية للوقاية منه قد شاعت، وكان الرجل الذي تزوجها، لأنه أرمل عائل لثلاثة أطفال، يعمل على نحو غير منتظم، ككاتب عمومي أمام محاكم الدولة، أمـا الأخ الـذي يكبرها مباشرة فقد حصـل علـى شـهادة إتمـام الدراسـة الإعدادية، بعد رسوب متكرر فيها، لأنه كان يفضـل لعـب الكرة الشراب في الشارع، على حفظ أسباب الحملة الفرنسية على مصر، ولما حاز على تلك الدرجة العلمية الرفيعة، من وجهة نظره، تطوع في الجيش، ضامنًا بذلك الإفـلات مـن بطالة محققة، إذا ما نوى إتمام تعليمه، بالإضافة إلى تمتعـه بامتياز الانخراط في مؤسسة من مؤسسـات السـلطة. الأخ الآخر، ولد من النوع المنغولي، وقد عاش حتى بلغ التاسـعة عشرة من عمره ثم توفاه ا ، وهو لا يحسب إلا من الناحية الكمية بالنسبة لمشكلة بهيجة الزواجية التي وضـح تعقـدها بمرور الأيام، لأن الأطباء ومن هم على شاكلتهم الاجتماعية، والذين هم على استعداد للزواج، لا يجدون فيها ما يغـريهم كطرف زيجة، بل بالعكس فإن الأوضاع الاجتماعيـة غيـر المرموقة الخاصة بأسرتها، كانت ترجح كفة عدم الإقدام على الارتباط بها، فما المغري في تأسيس شركة زوجية مع واحدة

لا مال ولا جمال، ولا أسرة مرموقة لها، إذا كـان الحـديث النبوي الشريف يقول: "تخطب المرأة لأربع: لمالها، وجمالها وحسبها ودينها، ففز بذات الدين تربت يداك"، وهذا الـزمن ليس زمن أولئك الذين يرغبون الفوز بذات الدين اللهم إلا إذا كانوا من الجماعات الإسلامية، وبهيجة لا يمكـن أن تلفـت نظر أحد ممن ينتمون إلى جماعة من هذه الجماعات، فهي لا تتحجب، وليست من اللواتي يغالين في الاهتمـام بـالأمور الدينية، رغم أنها كانت تصلي دائما، بل وكانت تعتبر الصلاة معينها الكبير، لتحقيق النجـاح المنشـود، طـوال سـنوات دراستها.

حاول بعض أقرباء بهيجة وجيرانها المتعاطفين مـع قضيتها أن يمدوها بخطاب، لكن محـيطهم الاجتمـاعي لـم يسمح إلا برجال أقل من أملها، وطموحها في هذا الجانـب، فبعضهم لم يحصل إلا على شهادات متوسـطة، ووظـائف حكومية متواضعة، والبعض الآخر كان مسـتواه التعليمـي، محدودا جدا، رغم دخله المالي المرتفع، مثل تـاجر الأدوات المنزلية الذي تقدم لها وكان تعليمه متوقفًـا فـي المرحلـة الابتدائية، بل إنه لم يكن يجيد القراءة والكتابة، رغم بقائه في

المدرسة أربع سنوات، مما اضطره لعمل خاتم نحاس ليوقع به على ما يلزمه من معاملات رسمية، وخصوصا معاملات مصلحة الضرائب.

مرة واحدة، كادت أن تتزوج، عندما تقدم لها صاحب صيدلية في الحي الذي تقطنه، توفيت زوجته حديثًا تاركة له أربع أبناء، لكنها استبعدت الفكرة تماما عندما اكتشفت أن أكبرهم يقاربها في العمر.

وهكذا قطعت بهيجة أملها في الزواج، وعاشت على أمل آخر أن تتاح لها في يوم من الأيام فرصة السفر إلى بلد من بلاد البترول، فتعمل مثل أولئك الذين يسافرون للعمل به، عندئذ سوف تحقق بضربة قصيرة محدودة، أملها الدائم في الصعود إلى أعلى، والانتقال إلى مستوى حياتي آخر يختلف عن ذلك الذي عاشت فيه وما تزال عندها ربما أقبل عليها الرجال، وربما واتتها فرصة اختيار زيجة ملائمة، لا تقف الفلوس عقبة في سبيلها، من أحد زملائها الأطباء، محدودي الدخل مثلها الذين يمكن أن تصادفهم خلال عملها في المستشفى.

لكن بدلاً من الانتقال إلى بلاد تركب الفولفو والمرسيدس، ويتجول أهلها بالطائرات في جميع أنحاء العالم وكأنهم يتجولون بالأتوبيسات، انتقلت بهيجة إلى مكان، ربما لم تفكر يوما أنه موجود على خريطة الوطن أصلاً، هو سجن النساء الذي باتت واحدة من نزيلاته.

كانت بهيجة قبل ذلك، قد عملت في إحدى العيادات الطبية الصغيرة التي انتشرت انتشارا واسعا، خصوصا في حزام المدن العشوائية الجديدة الذي يطوق مدينة القاهرة وضواحيها القديمة، والذي نما نموا سرطانيا ليستوعب الهجرة اليومية الدائبة من الريف إلى المدينة، بحثًا عن شروط أفضل للحياة، وقد بدأت ذلك بعد أن تخصصت كطبيبة تخدير، وهو التخصص الذي فرضته عليها ظروف عملها في وزارة الصحة، وكان ذلك العمل الإضافي، إلى جانب عملها الثابت الصباحي في الوزارة، يدر عليها دخلاً بسيطًا بين الحين والآخر، عندما يتوجب وجودها لإجراء بعض العمليات الجراحية الصغيرة في هذه العيادة، مما أتاح لها فرصة مواجهة متطلبات الحياة كل أيام الشهر، بينما كانت تضطر قبل ذلك لاستدانة بعض المبالغ النقدية اليسيرة

من أختيها وزوجيهما، وتقوم بردها بمجرد حصـولها علـى راتب الشهر الجديد.

غير أنها ولسوء حظها، أعطت جرعة مخدر زائـدة لطفل صغير، أدت إلى وفاته أثناء إجراء الجراحة، مما حرك اتهاما قضائيا ضدها، وضد الطبيب صاحب العيادة من قبـل أهل الطفل المتوفى، انتهى إلى الحكم عليها بالسـجن ثـلاث سنوات، وتغريم الطبيب بضعة آلاف من الجنيهـات، علـى أساس إهمالهما الجسيم في العمل الذي أودى بحياة الطفل.

بعد شهور طويلة من الوحدة والعذاب وحالة الاكتئاب التي عاشتها بهيجة في السجن، بسبب عدم قدرتها المسـتمرة على التكيف في ذلك العالم الوحشي الغريب عنها، والذي ما كانت تتصور وجوده أبدا، تعرفت بهيجة على مدام زينـب، عندما نقلوها إلى عنبر آخر جديد، ومدام زينب هـو الاسـم الذي تصر جميع السجينات على استخدامه عند تعاملهن مـع زينب منصور، بل وتستخدمه بعض السجانات أيضـا، لأن زينب منصور، كانت تجبر الجميع على تقديرها واحترامها، ومعاملتها معاملة رقيقة من نوع خاص، فهـي أولاً امـرأة جميلة إلى حد كبير، ذات صوت نـاعم خفـيض وعينـين

ناعستين لا يمل النظر فيهما لاتساعهما، وصفاء لونهما اللوزي الفاتح الذي يتناسب مع لون بشرتها البيضاء وشعرها الأسود الذي تقصه قصيرا عند حد القفا من الخلف وبذؤابات متناثرة ناعمة على الجبهة والأذنين، وهي ذات يد طولى في السجن، بسبب عائلتها الأرستقراطية العريقة التي ينتشر أفرادها في مواقع مرموقة وهامة بأجهزة الدولة، مما يجعلها تحظى بمعاملة جيدة من إدارة السجن، ولا تتعرض لمضايقات وسخافات، كتلك التي تنالها الأخريات اللاواتي لا حماية لهن، كما أنها، إضافة إلى ذلك، امرأة غنية، تشمل أفضالها عددا لا بأس به من السجينات، خصوصا أولئك التي يقمن على خدمتها، فيكنسن ويمسحن وينظفن مكانها في العنبر، بل ويغسلن ملابسها، ويعددن الطعام لها، الأهم من ذلك، والذي حبب الجميع فيها، هو تواضعها وتسامحها الدائم في تعاملها مع كل المحيطين بها، مما جعلها في النهاية الحكم الذي يؤخذ برأيه في فض المنازعات التي تنشب بين السجينات، وصاحبة المشورة لمن لديها مشكلة، والملجأ لقضاء الحاجات داخل السجن، وخارجه استنادا إلى نفوذ أقربائها.

جاءت زينب منصور إلى السجن، لأنها قتلـت عـم أولادها القصر، وقد فعلت ذلك ببساطة شديدة لا يقوى عليها إلا قاتل متمرس محترف، ولا يتصور أحد أبدا أن تقوم بـه تلك المرأة القصيرة الجميلة الرقيقة رقة البللور الذي يخشـى عليه من الكسر، لكن زينب منصور، كانت الوحيدة المدركة أنها فعلت ذلك ببساطة وهدوء، بل وأنها يمكن أن تفعله مرة ثانية وثالثة ورابعة، لو اضـطرت إلـى ذلـك، ووضـعتها الظروف في نفس الموقف مرة أخرى.

عاشت زينب قبل ذلك، حياة عريضة مترعة بالإثارة والأفراح، تصلح لأن تكون موضوعا لأحد أفلام السينما، ما عدا السينما المصرية بالطبع، كيلا يجري ابتذاله وتشـويهه، فزينب هي الابنة الوحيدة لإقطاعي سـابق كبيـر، تنحـدر أصوله من أسرة مملوكية امتزجت بدم مصري، عبر زيجـة مرموقة لأحد رجالها من بنت واحد من مشايخ الأزهر، أيام كان الأزهر سلطة دينية ودنيوية أيضا، وقد تقلصـت ثـروة الأب بعد ثورة ١٩٥٢ وصدور قانون الإصلاح الزراعي من حيث الأملاك الزراعية، لكنها تمددت فـي مجـال تجـارة

الخردة، تمددا كبيرا، وصل إلى حد أصبح معه واحـدا مـن أكبر ملوك الخردة في مصر.

خلال ذلك كانت زينب شابة، يشار لها بالبنـان فـي المجتمعات والمنتديات القاهرية الصاخبة، ونجمة الحضـور في عروض الأزياء بملابسها الغرائبية المجلوبة من أشـهر بيوتات الأزياء الباريسية، والتـي تفـوق غرابـة ملابـس العارضات أنفسهن، وقد ظلت صانعة لأشهر قصص الغرام المتداولة في سهرات النميمة، وهي القصص التي كان يتخلف عنها، عادة، عشاق ضائعون بلا أمل في وصل ما انقطع مع تلك المرأة الفاتنة التي كانت تنتقل من قصة لأخرى ببراعـة شهرزاد نفسها في قص حكايات ألف ليلة وليلة، وبما أنـه لا يفل الحديد إلا الحديد، فإن زينب وقعت في الغرام ذات مرة، أثناء رحلة من رحلاتها المتكررة إلى العالم الغربي، ولم يكن المغرم غير قائد الطائرة التي أقلتها نفسه، وهو فـاتن نسـاء خبير لم تتسع دائرة ضحايا غرامه منذ اللحظة الأولى كثيرا، لأنه اكتفى بوظيفته السماوية فقط، مؤثرا عدم التمثيـل فـي السينما كعمر الشريف أو عبد الحليم حافظ.

لم يكن الطيار الوسيم أقل شأنًا من زينب في مجـال الغنى والجاه، فقد كان ينتمي إلى عائلة من أصـول إيرانيـة استقرت بالقاهرة منذ حوالي مائتي سنة، واشتهرت بصناعة السجاد، لكنه اضطر لتعلم الطيـران، لأن مجانيـة التعلـيم، دفعت بعشرات المنافسين له في الثانوية العامة إلـى أبـواب الجامعة التي أوصدت في وجهه، بسبب مجموعة المحـدود، وهكذا التحق بمعهد خاص للطيران، اكتسـبت مـن خلالـه وظيفة مرموقة في النهاية كقائد طائرة. لم تمر سنوات علـى اللقاء الهوائي بينه وبين زينب، إلا وكان أبا لولدين أنجبـت كلاً منهما بعد عملية قيصرية وكانا آية في الحسن، بسـبب قوانين الهندسة الوراثية التي فعلت مفعولها فـي الانتخـاب الطبيعي، فاختارت العينين الرائعتين للأم، والجسد السمهري للأب، وتلك التقاطيع التي لا يختلف علـى جمالهـا اثنـان، والمنتقاة في توليف رائع من وجهي كليهما، لكن القدير العليم يشاء أن يطوي صفحة سعادة الزوجين العاشـقين، بمـوت الحبيب في حادث طيران مأساوي، لتبدأ صفحة جديدة فـي حياة زينب منصور. فالحادث المباغـت الـذي لـم يمهـل الزوجين لتنفيذ خطتهما التي كانا قد رسماها سويا لحياتهمـا

المشتركة في السنوات الأخرى المقبلة، والتي تـتلخص فـي استقالة الزوج من عمله ليبقى إلى جانب أسـرته، ويؤسـس مشروعا تجاريا بديلاً، لم يقلب حياة تلك الأسرة رأسا علـى عقب، ولم يطفئ جذوة الحياة الصاخبة داخل زينب أيضـا، لكنه أحدث تغييرا جذريا غريبا في شخصيتها، جعل كل من يعرف زينب قبل ذلك، يؤكد أنها باتت امرأة أخـرى، غيـر التي كانتها تماما، فقد أصبحت امرأة بلا تأنق، بلا مسـاحيق وجه، لا تخرج إلا نادرا، وترتدي أبسـط الملابـس وأقلهـا إبرازا لجمالها، كما أنها أصبحت تتعامل مع الناس في أضيق الحدود، ولا تقبل على المجتمعات التي ظلت تقبل عليها حتى بعد زواجها من المرحوم الطائر، وفي الحقيقة، غدت نموذجا مثاليا للمرأة المصرية التي يموت زوجها، فتنقطـع انقطـاع ناسك في معبد، لتربية أولادها وإحاطتهم بعطفها ورعايتهـا على أساس أنهم يتامى، إلا في حالات استثنائية تشـذ عـن القاعدة.

كان من الممكن أن تمضي حياة زينب الجديدة الهادئة على خير، دون منغصـات أو مضـايقات تـذكر، إذ أنهـا ارتضت واقعها الجديد الذي باتت الأحزان الصـامتة التـي

طالما تغذت بذكريات الماضي الجميل رفيقتها فيه، لكن عـم الولدين الذي كان هو الشقيق الوحيد للأخ المتوفى، لم يكـن ليترك زينب تعيش حياتها الجديدة المكرسة لتربيـة الولـدين على أفضل وجه وعلى قدر المستطاع ، فراح يدس أنفه في كثير من أمور حياتها، لا بسبب حرصـه علـى صـيرورة مستقبل أبني أخيه المتوفى، بل لرغبته في الاستحواذ على ما تركه الأب لهما من ثروة لا بأس بها، تجمعت مـن جلـب بضائع من جميع أنحاء العالم الذي كان يجوبه في رحـلات عمله، كانت في الحقيقة بضائع ممنوعـة، بسـبب الحمايـة الجمركية، والتشدد الاقتصادي، تجاه بضائع الغـرب خـلال الفترة الناصرية، وهي البضائع التي راكم تهريبهـا بعـض الثروات لدى أصحاب المحلات الصـغيرة المنتشـرة فـي الضواحي الراقية للمدينة، فكانت خميرة لنمو كبير في الزمن التالي لذلك بعد الانفتاح على الغرب.

في كل مرة كان العم يحاول فيها فرض وصايته غير القانونية على الأسرة الصغيرة، كانت الأم تقف له بالمرصاد ساعية لإحباط خططه، فقد رفضت كل عروضـه الخاصـة باستثمار أموال الولدين لقاء أرباح مجزية، كما رفضت كـل

مشاريعه المقترحة لشراء عقارات، وشقق تؤجر مفروشـة، لأنها لم تكن لتثق في نواياه أبدا، ولشعورها الدائم بأنه يرغب في توريطها، فلما فشل في ذلك، أخذ يتقرب منهـا، لكنهـا رفضت باندهاش حقيقي بالغ، فهي لم تكن تتصور أنه يجرؤ على ذلك وهو يدرك المكانة الكبيرة التي يحتلها زوجها فـي قلبها، والحقيقة أنها لم تتصور أبدا أنه لا يدرك هذه المكانة، لكونه من النوع البشري الذي لا يثمن غاليا مشاعر الحـب والعاطفة ولما لم يجد أمامه حلاً على طريقـة دمنـة بيـدبا الفيلسوف، للوصول إلى الوصاية على الولدين، أخـذ يـدبر لحيثيات تتيح له الحصول على ذلك عبر القضـاء، بعـد أن أضيف إلى رغبته في الظفر بالوصاية شعور بالكراهية تجاه زوجة الأخ المتوفى التي أهانت كرامته برفضها الزواج منه قائلة له إن ألف رجل لا يمكن أن يعوضوها عـن زوجهـا الحبيب، فأخذ يلاحقها في البداية بالشائعات التي تنـال مـن سمعتها وشرفها، لكنها لم تهتم لأن الزمن كفيل بإخماد أيـة نار لا يغذيها وقود حقيقي، ولأنها أدخلت بعضا من أقاربها، كأطراف في المسألة، فهددوه بقطع لسانه إن هو عـاد إلـى التكلم فيما يمسها، فالتجأ إلى فكرة جهنمية نبتت فـي رأسـه

بينما كان يشاهد فيلما مصريا ليحيي شاهين، سرقت فكرتـه من رواية مرتفعات ويزرنج لشارلوت برونتـي، وهـي أن يقوم بتجميع أدلة تتيح له الحجر على زوجة أخيه الأرملـة، فيصبح بذلك الوصي القانوني على ولديها، على أسـاس أن أمهما بلا أب أو أم يمنع وجود أحدهما على قيد الحياة إمكانية حصوله على هذه الوصاية القانونية.

منذ أيام طفولتها الأولى، كانت زينب منصور مولعة بالقطط، ربما لأن أمها كانت مولعة بهم أيضا، فلقـد نشـأت زينب في منزل أبيها الكبير بحي المنيرة الذي كان من أجمل وأرقى أحياء القاهرة في ذلك الزمن الماضي، وفيه دائما قط أو اثنان على الأقل يحظيان باهتمام ورعاية مـن أمهـا، لا يقلان عن الاهتمام والرعاية التي يمكن أن يحصل عليها أي طفل صغير، وكان من المناظر المألوفة لديها أن تجد أمهـا نائمة على السرير تقرأ في مجلة أو جريدة، بينما يجثم قـط ضخم على صدرها، يهر بسعادة ورضا، وأنفاسـه تقـارب وجهها، ولعل زينب اكتسبت من هنا حب تلـك الحيوانـات الجميلة الأنانية التي تتسيد على من يقتنيها وتسخره لخدمـة رغباتها، على كل حال، وأيا كانت الدوافع والأسباب، بـات

لدى زينب، عندما أصبحت شابة تعيش في منزل أبيها قبـل زواجها، كم لا بأس به من القطط، أوقف الأب الثري خادمة صغيرة من خدمه الكثيرين على رعايته، دون أن تقوم بـأي عمل آخر.

بعد الزواج، تضاءلت هذه الهواية إلى حد كبير، لأن الزوجة المحبة، اكتفت بإغداق حنانها على زوجها، وعلى قط واحد أسود من النوع الفارسي ذي الفراء الطويـل، لكنهـا نسيت حكاية القطط تماما عندما أنجبت ابنها الأول.

لما توفي الزوج، وتجاوز الولدان مرحلـة الطفولـة الأولى، بقيت الزوجة وحيدة مع ولديها تشعر بالملـل فـي منزل واسع يتكون من طابقين في مصر الجديـدة، عندئـذ انتعشت لديها مرة أخرى هواية تربية القطط، والجديد هنـا، أن الولدين أغرما بها أيضا، فأصبح المنزل يضـم خمسـة عشر كائنًا، منهم دستة مـن القطـط المتنوعـة الأشـكال والألوان، لكل واحدة منها اسمها الخاص، وأماكن مخصصة لنومها، وتتمتع جميعا بالرعاية الصحية الملائمة، بالإضـافة إلى الشرائط الحريرية، والمخمليـة، والأجـراس، والقطـع القماشية الجميلة التي كانت تشترى وتحاك خصيصا، علـى

نحو يسمح بإدخال أجسادها اللينة فيها، دون مساس بحريـة أيديها وأقدامها في الحركة، وذلك توقيا لبرد الأيام والليـالي الشتوية، وقد استلزم كل ذلك إضافة إلى الغـذاء والألعـاب الظريفة التي تجعل القطط في حالة مرح دائم إنفاقًا، وإن ظل محدودا بالنسبة لدخل الأسرة الميسورة، إلا أنه كـان يعنـي نوعا من الخبل والعته من وجهة نظر العم المراقب عن كثب لتفاصيل حياة أسرة أخيه الراحل.

من ناحية أخرى، بدت الأرملة، غير طبيعية بالنسبة للعم ذي النزعة العملية جدا، والذي كان يتعامل مع كل مـا هو وجداني في أضيق الحدود الممكنة، إذ أقبلت بحماس على المشاركة في حفلات الزار، وهي الحفلات الطقسية الصاخبة التي انتقلت عدواها من نساء الطبقات الشعبية، إلـى نسـاء الطبقات العليا، بعد انحسـار موجـة حفـلات الجلاليـب، والقباقيب، والفرجة الجماعية على أفلام الجـنس الفاضـحة، بعد هزيمة ١٩٦٧، غير أن المسألة لـم تقـف عنـد حـد المشاركة في حفلات الزار هذه، بل امتدت لتصـبح عـادة تتكرر بين الحين والحين في الدار الواسعة لأم الولدين التـي كانت تستمتع كثيرا بالرقص المجنون، وبتحريـك أعضـاء

جسدها العاطلة عن أي عمل، ورغم أن هـذا النـوع مـن الحفلات يكون عادة مقصورا على النساء فقط، ما عدا رجل أو رجلين من ضاربي الآلات الإيقاعية الشعبية ذات الأصل الأفريقي، هما عادة فوق مسـتوى الشـبهات مـن زاويـة الاحتشام أو العفة الجسدية، إلا أن العم لم ينظر بعين الرضا أبدا إلى تلك الحفلات المسائية الممتدة حتى وقت متأخر مـن الليل، وينفق على الحفلة الواحدة منها مبالغ كبيـرة، تفـوق كثيرا ما ينفق على دستة القطط، بسبب الطلبات والشـروط الصعبة التي تكاد أن تكون مستحيلة أحيانًا، والتـي يطلبهـا أولئك الخبراء المنظمين لتلك الحفلات، والمشـرفين علـى طقوسها، كطلبهم مثلاً زوجا من الماعز كامل البياض ما عدا غرة سوداء في الوجه، أو نقطة بنية في الـذيل، أو طلـبهم تجهيز طيور وحيوانات من الصعب الإتيان بها في بلد يقـع على مدار السرطان، وليس على خط الاستواء، ففي إحـدى المرات طالبوا الأرملة بببغاء هندي ذي ريشـات حمـراء، وصفراء، يوضع في قفص على شباك بالحجرة التي يقام بها الزار، ليظل مشاركًا بتعليقاته طوال الليل، ومرددا مقاطع من الأغنيات السحرية العنيفة التي ينشدونها، وقد استدعى ذلـك

أن تشتري زينب الببغاء المطلوب من حديقة حيوانات الجيزة بمبلغ باهظ، بعد توسط واحد من أقربائها، كان أحـد كبـار المديرين لهذه الحديقة، على مدى سنوات.

رغم أن المحكمة في جلستها التي عقـدتها لمناقشـة طلب العم رفع الوصاية من الأم على الولدين ومنحها له، لم تعتد بوجهات نظر العم، وحججه، عبر محاميه الحاذق الذي حاول بكل الوسائل إثبات عته الأم، وعدم أهليتها للوصـاية على ولديها وإدارة أموالهما، وكان على اسـتعداد لعـرض شريط فيديو لها وهي ترقص مترنحة كالسكارى في إحـدى حفلات الزار الأمر الذي رفضه القاضي الذي كان يريـد أن ينتهي بسرعة، ليذهب إلى مأدبة غداء كان أحد كبار الأطباء قد دعاه إليها، وكان الجوع قد قرصـه فعـلاً، أمـا هيئـة المحكمة، فارتأت أن حجج العم ضعيفة في هذا الجانـب ولا يعتد بها، لأن كلاً من موضوعي القطط والـزار لـم يكـن بالأمر المستغرب المعبر عن سلوك شاذ في مجتمع ترتع فيه الخرافات، ويتمسك عبر عاداته وتقاليده، بأفكار، لا تعود إلى أفريقيا البدائية، ولا إلى القرون الوسطى فقط، ولكن ترجـع أيضا لعدة آلاف من السنين قبل الميلاد، وقد ساعد محـامي

الأرملة الذي لم يكن أقل حذقًا من محامي خصـمها، هيئـة المحكمة كثيرا في التوصل إلى حكمها بعدم العتة، بعد أن أكد أن الاهتمام بالحيوانات الأليفة، يعد مظهرا من مظاهر التمدن والترقي، واستشهد بأمثلة عدة كانت عبارة عن أخبار اقتطعها من صحف محلية نشرتها نقلاً عن وكالات الأنباء، وأخـرى منشورة بصحف أجنبية، عن أناس أولعوا بحيواناتهم الأليفة، إلى حد جعلهم يوصون بثرواتهم كلها للأثير منها، سواء أكان قطًا أم كلبا، وذكر أنه شاهد بأم عينه – وكان كاذبا هنا – في عاصمة الثقافة والنور باريس، جامعي قمامة غاية في النظافة والاحترام، تخصصوا فقط في جميع فضلات الكـلاب مـن الشوارع ، بينما أطفالنا يتبرزون في الحارات الشعبية قـرب الحوائط، وتحت الشبابيك، دون أن نبالي، ثم عرج إلى مسألة الزار، فأشاد به كوسيلة من وسائل العـلاج النفسـي، تعـد أصدق دليل على عبقرية الشعب الذي اكتشف دوره الخطير في تفريغ شحنات الكبت وتحرير الروح والجسـد، قبـل أن يكتشف ويثبت بالوسائل البحثيـة الأكاديميـة المتخصصـة، وراح يؤكد على ضرورة الاهتمام بكافة فروع الطب الشعبي الذي يجب احترامه والتعامل معه بجدية، لمواجهة الهجمـة

الإمبريالية الشرسة التي وصلت ذروتها في هزيمـة ١٩٦٧، والمستهدفة ليس حرية البلاد ومقدراتها فقط، بـل وثقافتهـا وتراثها أيضا، ورغم استماع المحكمة إلى خطبتـه البليغـة المطولة التي زاد وعاد فيها، خالطًا عباسا بـدرباس، كمـا ارتأت زينب، فإن القاضي ألقى بمفاجأة لم يجعلهـا تسـتمتع وتستريح بما يكفي بعد سماعها الشق الأول من حكمه الـذي يدفع عنها العته، إذ أعلن قراره بانتقال الوصاية إلى العـم، وانتزاعها من الأم، لأنها وإن كانت قواها العقلية سليمة كمـا أكدت التقارير الطبية المرفقة بملف القضية، إلا أنها مبـددة، متلافة، لا تؤتمن على مال والديها من ثابت أو منقول، وبمـا أن العم من رجال الأعمال، فإنه أكثر أهلية، وأنفع في هـذه الوصاية، وكان العم قد أثبت للقاضي أنه فعلاً مـن رجـال الأعمال، إذ سلمه، عبر أطراف وسيطة، عقد بيع شقة، مؤقتًا في عمارته الفاخرة بمدينة نصر.

بعد ذلك بقليل، وبمنتهى الثقة والهدوء، وقفت زينب منصور على باب المحكمة تنتظر الوصي الجديد، ومـا إن لاح على الباب، قادما من داخل قاعة الحكم، حتى أخرجـت مسدس زوجها المرخص الذي حشته في الليلة الفائتة بـثلاث

رصاصات، وسددته إلى صدر العم الذي كان قد رسم على شفتيه ابتسامة ساخرة متشفية، استبدلها الألم المنبعث من داخله بعضة قوية على نواجذه، ردت لزينب روحها التي كانت قد ضاعت منذ علمت بمقاضاته لها على وصاية الولدين، بعد كل الانهيار النفسي الذي عاشته منذ ذلك الحين، وحتى وقت صدور الحكم، والذي دفع بها لأن تختار أن تكون غالبة بيدها، وليست مغلوبة بيد أحد، وهي التي ما تحملت الغلب يوما، ولا عاشت الذل، كمرهفة مدللة، لم تتعود من الدنيا عنادا، بل وكانت دائما إذا ما وضعت في تحد، منتصرة مهما كلفها الأمر، باعتبارها أميرة الاختيار، مثلما كانت زنوبيا تدمر في الزمن القديم.

بالمساعي القضائية الحميدة، وباستخدام النفوذ، حصلت زينب على حكم مخفف بالسجن لم يتعد سبع سنوات، وقد كانت ممتنة جدا لأن المسألة لم تزد عن ذلك.

أوكلت زينب كل ما يخصها من أملاك وميراث لابنة خالة لها، كانت بمثابة شقيقة لها، وأم أخرى لولديها اللذين ورثا العم المقتول أيضا، لأنه لم يكن قد تزوج أبدا، وليس له من وريث آخر.

في السجن استلطفت زينب الطبيبة الشابة، وشـعرت باحترام كبير لها، منذ الأيام الأولى لإلحاقها بالعنبر، وبعـد مرور وقت قليل، اكتشفت زينب أن بهيجـة هـي ضـالتها المنشودة في عالم الصداقة والرفقة، ليس في السـجن فقـط، ولكن في الحياة أيضا، لأن زينب، وطوال السـنوات التـي عاشتها، لم تكتشف أبدا بهجة الصداقة الحقيقية التي يمكن أن تنشأ بين امرأة وامرأة، فطوال حياتها، كان الرجـال يقفـون حائلاً بينها وبين ذلك، فهي ما اهتمت يوما، كامرأة جميلـة، إلا باهتمامهم بها، وبأن تكون دوما محط أنظارهم، ومستأثرة بإعجابهم، لقد كانت تعرف نساء كثيرات لكنها لـم تعـرف امرأة بعمق أبدا، مثلما عرفت بهيجة عبد الحق في السـجن، فمنذ أن تصادقتا، وهما تتشاركان في معظم تفاصيل حياتهما اليومية، وباتت بهيجة بديلاً للأسرة المفتقـدة عنـد زينـب، وباتت زينب العزاء الوحيد لبهيجة في حياتها الموحشة، فهي لم تكن يوما حميمية مع إنسان، قدر حميميتها مع زينب، وما وجدت أبدا امرأة قريبة منها، تبثها همومها وآلامها النفسـية، إلاها، وقد كانت بهيجة تبهر زينب، بقدرتها على صنع ألعاب ورقية جميلة، وعصافير وأباريق وعرائس طريفة من بقايـا

الأوراق التي يتصادف وجودها في السجن، إضافة إلى ألعاب أخرى مسلية، كانت تعدها من أعواد الكبريت وحبات المكرونة المقصوصة، وتشرك زينب فيها وهي ألعاب أقرب إلى المسائل الرياضية والألغاز الصعبة. أخذت زينب تسدى لبهيجة خدمة جليلة جدا، وهي تعليمها اللغة الفرنسية التي تجهلها بهيجة، لأنها من الجيل الذي نشأ في ظل احتقار اللغات الأجنبية، كرد فعل طبيعي لسنوات طويلة من الاستعمار الإنجليزي، والهيمنة الأوربية على البلاد، وتأثرا بالنزعة القومية التي تعتبر لغتنا سيدة اللغات، وهو الجيل نفسه الذي أثبت أن ذاكرة الشعوب يمكن أن تضعف في بعض حقب التاريخ، لأنه سرعان ما ألقى بأبنائه في أحضان التعليم الأجنبي، على أمل الالتحاق بقطار المدنية الذي فاته كثيرا، وأهمل سيدة اللغات، ناسيا أن الهنود يتقنون الإنجليزية أكثر من إتقان اليابانيين لها.

كانت بهيجة هي التي عرفت عزيزة بزينب، وحكت لها حكايتها، بعد أن نشأت علاقة طيبة بينهما، بسبب نصائح بهيجة الممتازة لعزيزة بخصوص ألم البواسير الحاد الذي بات مزمنًا عندها، لكونها تجلس كثيرا دون حركة كافية

تساعد أمعاءها على الإخراج، وبسبب عدم أكلها أكلات مناسبة تحتوي على السيليلوز النباتي، وكانت عزيزة عبر جنونها الخفيف تقدر بهيجة تقديرا جما، بسبب علمها، وتهذيبها، وطريقتها البسيطة السهلة في تناول الأمور، ولأنها كانت خلافًا لبقية النساء اللاتي عرفتهن، لا تلجأ إلى المخاتلة وأساليب الخداع في التعامل مع الآخرين، كما أنها تسلك بجدية واستقامة دون ميوعة أو تدلل سخيف، لذلك قررت ذات ليلة قمرية، صافية السماء، وهي ترمي ببصرها بعيدا، حيث ذؤابات الأشجار العالية التي يمكن أن تلمحها من شباكها أن تضم بهيجة، وصديقتها زينب إلى ركب العربة الذهبية، ذات الأفراس المجنحة الصاعدة إلى السماء، وكان من مرجحات قرارها الخطير، أنها لا بد ستحتاج إلى طبيبة بارعة مثل بهيجة، لمواجهة أية أزمات قد تطرأ على واحدة من راكبات العربة المختارات، وإلى امرأة رقيقة راقية كزينب لتعلم أولئك البائسات قواعد السلوك وآداب التعامل، لأنها طالما نفرت من السلوك الخشن، وأسلوب الحديث البذيء الذي تتداوله معظم السجينات، لذلك، وبينما هي

جالسة تحتسي خمرها المائي، وتتلذذ بآخر نفس من أنفـاس سيجارتها، حدقت، إلى ذؤابات الشجر أكثر وقالت:

- عندي خبر حلو الك يا بهيجة، بكرة لمـا تطلعـي معنا، عندي الك عيادة من مجاميعه.

ثم أضافت:

- وأنت يا مدام زينب، همتك والنبي فـي توضـيب الهدوم، قبل ما نطلع.

حزب العصافير

تلك النحيلة البيضاء بياض قلب اللفت التي تبدو لفرط نحولها وكأنها نصف إنسان اختفى نصفه الآخر، أو ضاع منه، هي الشابة الذاهلة التي أطلق عليها جميع من في سجن النساء اسم شفيقة المتوولة، لأنه ما من أحد يعرف على وجه التحديد من أين جاءت وما هي حكايتها التي دفعت بها إلى سجن النساء، بل وما هو اسمها الأصلي الذي أطلقه عليها أهلها المجهولون بالنسبة للجميع.

جاءت ذات يوم إلى ذلك السجن، متهمة بالشحاذة والتسول، وهي تهمة ستجعلها تتردد عليه عدة مرات بعد ذلك، كنزيلة لبعض الوقت من نزيلاته الكثيرات، على الرغم من أن أي إنسان يستطيع أن يلحظ، وبقليل من الذكاء والفطنة، حالة الذهول والضياع الذهني التي تعيش فيها شفيقة ما عدا الأطباء الذين أصروا على أنها عادية وليست بمجنونة، وبالتالي لا يحق لها الحصول على شرف دخول مستشفى الأمراض العقلية التابع للحكومة، والذي هو أحد معالم البلاد، منذ زمن بعيد، ومحط هؤلاء الذين لا يحتملون تناقضات وعبثية الحياة فيها، فيأتون إليها إتيان المستجير من

الرمضاء بالنار، ولعل أطباء الأمراض العقلية معذورون في ذلك، فشفيقة كائن بالغ الهدوء، لا تشاكس، ولا تتشاجر، ولا تعتدي على أي مخلوق حتى لو كان نملة صغيرة، تستطيع سحقها بقدمها أثناء عبورها الطريق، وفوق ذلك، هي دائمة الابتسام، صحيح أنها لا تتكلم أبدا، ولا ترد على أي سؤال يوجه إليها، لكن أليس الصمت في عالم صاخب بالكلام الفارغ هو منتهى العقل، وليس الجنون؟

عموما في سجن النساء متسع للجميع، خصوصا إذا كان من نوع شفيقة التي تحدث أقل ما يمكن من مشكلات، سببها الأساسي عذاب الآخرين بسبب حالتها، وحيرتهم الدائمة، وشفقتهم عليها، لشعورهم بالعجز، وعدم القدرة على معاونتها لتصبح كائنًا عاديا في مأكلها، وملبسها، قادرة على تجاوز الحالة التي هي فيها، فهي لا تستحم تقريبا، ولا تخلع جلبابها الذي ترتديه دوما على اللحم دون أية ملابس داخلية، أو خارجية، تحته أو فوقه، ثم إنها لا تسأل أو تصارع أبدا على طعام، سواء أكان خبزا، أو نوعا نادر الظهور في السجن كاللحم مثلاً، وإذا لم تجد عليها واحدة من السجينات بشيء يؤكل أو يشرب، فإنها تظل مددا طويلة، تصل أحيانًا

إلى أيام متصلة دون تناول أي شيء يذكر، بل كثيرا ما كانت ترى وهي تلقي بمقررها اليومي الذي هو ثلاثة أرغفة مـن الخبز الأسمر الرديء إلى القطط الضالة في فناء السجن، أو تقطع رغيفًا، إلى فتيتات صغيرة، تتركها على إفريز شـباك زنزانتها، لعصافير الأشجار القريبة من السجن، والتي تـأتي وتحط، بين الحين والحين على شبابيك الزنازين.

في بعض الأحيان كانت شفيقة المتوولة تشاهد وهي تنحني ساجدة على الأرض لفترات طويلة، وكأنهـا تلعـب اليوجا في أوقات أخرى ترى رافعـة يـدها النحيلـة، ذات الأصابع الدودية الرفيعة، لتضعها في مواجهة أشعة الشمس، بينما تتأمل خطوط كفها المتقاطعة المتداخلة، لـزمن ممتـد، دون أن ينفد صبرها، أو يبدو عليها الضيق، ممـا يجعلهـا وكأنها تمثال قد من صخر، وهكذا، اكتسبت صفة المتوولـة، وعاشت بين الجميع دون كراهية، أو خصومات، أو أحقـاد تتبادلها مع واحدة من السجينات.

كل هذا لم يعن، أبدا، أن شفيقة لا تعرف حكايتهـا، ولا تشعر بكل ذلك الألم الرهيب الذي أخرس لسانها وجعلها تفضل العزلة الاختيارية عن الدنيا، والانقطاع الكامـل عـن

الناس، رغم كل المحاولات التي جربت معها لإجبارها على الكلام، بعد أن أكـد أطبـاء الطـب النفسـي والعصـبي، ومتخصصو الأنـف والأذن والحنجـرة، وخبـراء الكـلام والنطق، سلامة جهازها الصوتي، وأدوات السمع، والنطـق، لديها، وقدرتها المفترضة على الكلام، فلما يئسوا، رجحوا أن يكون امتناعها عن النطق ناتجا عن صدمة عصبية تعرضت لها، ومشكلة حادة ألمت بها. بذلك ظلت حكايتها سرا مجهولاً للجميع ما عداها، وهي التي عاشت تفاصيلها لحظة بلحظـة، وتحملت خلالها ما لم يتحمله بشر من ألم وعذاب، ربما كان السبب وراء ابتسامتها غير المفهوم الذي أخذت تنفرج شفتيها الرقيقتين المضمومتين دائما عنه، عندما جاءوها بمتخصص في التعامل مع الصم والبكم، ليحاول التفـاهم معهـا أثنـاء التحقيق في النيابة، حتى يتمكنوا من تسـجيل أقوالهـا فـي محضر رسمي، يكون بمثابة مستند لإدانتها، وكانت ابتسامتها تتسع كلما أخذ ذلك الخبير يشير بأصابعه ويديـه، محـاولاً التفاهم معها، فقد كانت على الأغلب تسخر ليس مـن تلـك المحاولة الفاشلة لاستعادتها إلى دنيا الناس مرة أخرى، بـل من كل ما يحيط بها، والذي اكتشفت عبر آلامهـا كـم هـو

زائف، وشرير مما جعلها تقرر أن لا تفاهم، ولا اتصال مع الآخرين، مهما بذلوا من محاولات، ومهما بلغ الأمر بها،

الغريب، أن شفيقة لم تكن شحاذة، ذات يوم أبدا، فهي لم تستجد من أي كائن كان، ولم تسر في الطرقات مادة يدها، تطلب حسنة من الناس، سواء كانت نقودا أم شيئًا يؤكـل أو يشرب، فقد كانت فقط تجلس إلى جانب جدران الجوامع، أو تنام تحت شجرة في حديقة من الحـدائق العامـة، أو تسـير بجوار شاطئ النهر حتى تتعب قدماها الحافيتان، فتجلس على الرصيف، واضعة يديها في حجرها، بلا حول ولا قوة.

عندئذ، كان منظرها البائس يثير العابرين الذين ترق قلوب بعضهم لها فيميلون عليها، ويرمون إليها ببعض النقود، أو بكسر من سميذ، كالذي يأكله العشاق أثناء سـيرهم عنـد الغروب بجوار ضفة النهر، ومع أنها لم تكن لتفعـل شـيئًا بالنقود، أكثر من دسها في قرطاس ورقى، تصنعه عادة مـن ورقة ملقاة في الطريق، إلا أن الشرطي الذي قادها إلى قسم البوليس اعتبر قرطاس الفلوس هو دليل إدانتهـا كمتسـولة، محترفة، تبتز مشاعر الناس، وتسـتغل عـواطفهم الطيبـة، ليجودوا عليها ببعض مما لديهم، كما ورد في تقرير النيابة.

ظل حزن شفيقة، وأساها العميقان اللذان لا ينقطعان هما كل ما تملكه من مشاعر تجاه الحياة، وهذا ما يبدو واضحا لكل ذي عين، بمجرد التطلع إلى وجهها، والنظر في عينيها الواسعتين، ذات النظرات النبيلة الأسيانة التي تطفر، دوما، دموعا محسوسة، غير مرئية أبدا، ربما كانت تقف وراء المعاملة الطيبة الرقيقة التي تتلقاها، بدلا من الفظاظة والعنف، ومحاولات الاعتداء التي تتعرض لها عادة من هي في وضعها من اعتداء امرأة شابة وحيدة بلا مأوى، ولعل قذارتها، واتساخها الدائم، لعبا دورا كبيرا في هذا الجانب أيضا، إضافة إلى أنها كثيرا ما قضت لياليها في أماكن مهجورة مظلمة، وخرابات لا يعبرها عابر، مما زاد في وحشتها، وشعور الناس بغرابتها.

قبل سنوات التشرد والاعتزال، عاشت شفيقة، كأية فتاة عادية تنتمي إلى الشريحة السفلى من الطبقة الوسطى في بيت هادئ، بلا أم، تديره وتشرف على تنظيم أموره شقيقة أرملة تكبرها بحوالي ثماني سنوات، لعبت باقتدار دور الأم الحنون والأخت العطوف، ليس مع شفيقة وحدها، ولكن مع أخين آخرين أحدهما يكبرها، والآخر يصغرها بأربعة أعوام،

مما جعل الأب الذي كان حريصا على وحدة أسرته، وضمان نجاحها لا يتزوج مرة أخرى بعد وفاة زوجته، رغم معاناتـه وشعوره الدائم بالوحدة، مما جعله قلقًا، متـوتر الأعصـاب، يثور لأتفه الأسباب، ويتعامل بتشـدد كبيـر مـع عيالـه، خصوصا البنات منهم، خوفًا من انفلات زمـامهن، بسـبب غياب الأم، وحرصا على سمعة أسرته التي يجدها فـوق أي اعتبار آخر في الحياة، بصفته رجلاً صعيديا يحرص علـى القيم والتقاليد التي تمتد إلى عدة آلاف من السنين.

كانت الأخت الأرملة على جانب كبير مـن الأنوثـة والجمال، إذا كانت ملامح وجهها تحمل بصـمات واضـحة تثبت أن الدولة العليا العثمانية مرت من هنا، وهي البصمات التي دفعت إليها بخطاب يرغبون في الزواج منها، مذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها، وأدت إلى تزويجهـا عنـد بلوغها السابعة عشرة من ضابط ميسور الحال، خرج مـن منزل الزوجية تاركًا إياها وثلاثة أطفال أصغرهم كان يرضع من ثدييها، صبيحة يوم الخامس من يونيو في العـام ١٩٦٧، ولم يعد بعد ذلك أبدا، وقد اعتبر شـهيدا، فاسـتحقت عنـه الأرملة الحزينة كل الامتيازات التي تمنح لأسرة شهيد.

منذ صدور الفتوى القانونية لوفاة زوجهـا، وعلـى ضوئها، باتت تلك الجميلة، رسميا، أرملـة فـي مسـتندات الدولة، ظلت، حتى آخر لحظة رأتها فيها شـفيقة المتوولـة، دون زواج، إذ كانت قد قررت منذ غياب زوجها ألا تخوض التجربة مرة أخرى، وعاشت لسنوات طويلة، بعد انقطاع كل أمل في عودة الزوج، لا تسعى لربط حياتها بحيـاة أسـرية جديدة، مع رجل آخر، كالتي عاشتها من قبل مـع زوجهـا الضابط، لكن قانون الطبيعة المعروف أدخلها التجربة مـرة أخرى مع فارق بسيط، إذ أن التجربة الجديدة ظلت تجربـة عشق، لا يمكن أن تتحول أبدا إلـى تجربـة زواج، بسـبب اختلاف دين المعشوق عن دينها، وهو السبب ذاتـه الـذي جعلها تحيط تلك العلاقة بسرية تامة، خوفًـا مـن اكتشـاف أمرها، لدى أبيها، وبقية أفراد أسـرتها خصوصـا إخوتهـا الذكور، فقد كانت الأخت الدقيقـة الحريصـة التـي تعمـل مدرسة، تتذرع دوما لخروجها في أوقات غير أوقات العمـل الرسمية، بدروس خصوصية تعطيها لتلاميذها الصغار مـن البنات والبنين، لكي تستغل الوقت لملاقاة حبيبهـا، وعنـدما تعود، كانت تسارع بإخفاء كل أثر يدل على علاقتهـا بـه،

كالهدايا الصغيرة التي يقدمها لها بين الحين والحين، والتي لم تتجاوز أساور، أو خواتم فضية، وزجاجـات مـن العطـر المحلي المسمى قسمة، لأن العطور المستوردة لم تكـن قـد شاعت وقتئذ بما يكفي، بسبب المقاطعة الاقتصادية للغـرب التي زادت حدتها بعد هزيمة الخامس من يونيـو، وانتهـت كزوبعة في فنجان بمجرد تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة، زمن السادات، وراحت تقدم هذه الهدايا البسـيطة لشـقيقتها الصغرى، مجددا كهدايا تزيد من حبها وتقديرها لها، ومـن تعلقها بها، وتقوي سطوتها عليها، وقد كانت محل تقـديرها وإعجابها، بسبب كونها بمثابـة أم لهـا، عوضـا عـن الأم الحقيقية التي أخرجتها من رحمها، ولكـن بسـبب جمالهـا وأنوثتها الفائقة التي كانت تشعر شقيقة بأنهـا شـابة باهتـة الجمال، محدودة الأنوثة، حلمها أن تصل في هذا الجانب إلى ما وصلت إليه أختها الكبرى التي تكن لهـا كـل إعجـاب وتقدير، ظلت الحبيبة الأرملة، وفية لحبها الذي كانت تزيـده الأيام اشتعالاً، بسبب قسم الحبيب على الإخلاص والوفاء لهذا الحب، وأن يستمر في العلاقة، ولا يقطعها أبدا مهمـا كـان الأمر، ومهما بلغت ضغوط أمه العجوز التي وصلت، بعـد

البكاء كل يوم، إلى حد تقبيل يده، والتوسل إليه أن يتزوج بأسرع ما يمكن، لأن أخاه الصغير، ووفقًا لتقاليد العائلة، سيظل محروما من الزواج إلى الأبد، إن لم يتزوج قبلاً منه شقيقه الأكبر، وكان الحبيبان قد تعاهدا على الوفاء تحت شجرة ضخمة بحديقة الحيوانات، ربما غرست زمن الخديوي إسماعيل، وحفرا بمبرد قصافة الأظافر الحروف الأولى من اسميهما، فقط، ضمانًا للسرية، على جذعها الضخم داخل خرطوش لم يكن فرعونيا ملكيا، لأنه جاء على شكل قلب يخترقه سهم، وحلفا أن يكون هادم اللذات ومفرق الجماعات، كما تقول شهر زاد في ألف ليلة وليلة، هو الحائل الوحيد الذي يحول بينهما، ويقطع وصال الوجد الممتدة بين قلبيهما.

تعرضت العاشقة المسكينة التي طالما سفحت مشاعرها وأعصابها خوفًا من انكشاف أمرها، لضغوط نفسية بسبب جمالها وفتنتها الجاذبة للرجال الذين رفضت عددا منهم، تقدموا للزواج بها، مع استعدادهم لاحتضان أطفالها، متذرعة بحجج متينة لا تحيد عنها، أبدا من نوع تفرغها لتربية أولادها، وانقطاعها لخدمة أبيها وإخوتها، وقد حاولت إخفاء جانب من فتنتها، حتى لا تلفت الأنظار وتثير الانتباه،

فتحجبت، لتخفي شعرها الأسود الفاحم الجميل المكلل لرأسها، ذي الوجه الأبيض المتناسق القسمات، ولتبـدو فـي عيـون الناس كما يجب أن تكون أرملة شابة عفيفة تنتمـي لأسـرة صعيدية محافظة حريصة على سمعة زوجها الشهيد، وفيـة لأبنائه، ورغم كل ذلك انفضح أمرها ذات يوم، إذ التقط أول خيط للعلاقة، قريب لها، كان مدلهما بحبها منذ فترة طويلـة تعود إلى ما قبل زواجها، لكنه حينئذ لم يتجرأ علـى طلـب يدها لأنه كان صاحب دكان صغير لبيع السجائر، والملـبس والأرواح النادلر المقررة على عدة أجيال من الأطفال قبـل ظهور الشيكابوم، والشيكلتس، ومنتجـات مصـنع حلاويـات سيما، لكن رواج السياحة أنعش أحواله كثيرا، وخاصة بعـد أن حول إلى مطعم سياحي للأكلات السريعة دكانه الذي لـم تعد أهم معالمه لمبة كيروسين نمـرة خمسـة التـي كانـت موضوعة على طاولة البيع الزجاجية، لإشعال السجائر التي يشتريها الزبائن، وقد أمده برأس مال ذلك المطعم المسـمى سفرة العز، شريك، كان قد جاب عدة آلاف من الـدولارات بعد سنوات قضاها في السعودية كعامل في محطـة بنـزين، غير أن انتعاش الأحوال المالية للعاشـق القـديم، أنعشـت

مشاعره الكامنة في قلبه المحب وأيقظتها مرة أخرى، رغـم مرور سنوات طويلة على خمولها، بسـبب زواج الحبيبـة، والتركة المتخلفة عنه، والممثلة في الأطفال الثلاثة، لذلك تقدم لها عارضا عليها الزواج بشروط مغريـة جـدا، بالقيـاس لشروط سوق الزيجات الراكد آنذاك، لكـن قلـب الأرملـة المطلسم بالقسم على الوفاء للحبيب، صد العرض المغـري، وتذرعت صاحبته بالحجج التقليدية التي كانت تزيدها احتراما لدى أبيها وإخوتها ، باعتبارها رمز الوفاء للزوج المرحوم، والتفاني لأولادها الذين حرصت كل الحرص على سـعادتهم وراحتهم.

ومع ذلك، فإن صاحب الدكان الذي بات يسمى رجل أعمال، منذ الوقت الذي تحول فيـه دكانـه إلـى مطعـم، ومشاركته في أنشطة استثمارية أخرى، بسبب العائد الكبيـر من الأكلات الشعبية المتميزة بالطعم الشرقي بالنسبة للسياح، والأجانب المقدمة في مطعمه، لم ييأس، ولم يقطع الرجاء في المرأة التي طالما اشتهاها، بل وبات يشـتهيها أكثـر، بعـد دخولها ديوان النساء، واكتمالها كثمرة شهية تنتظر القطاف، إضافة إلى ذلك، فإن إصرار الرجل على التزوج بها، كـان

محاولة لمصالحة النفس، واستعادة ثقة مفتقدة بها في الماضي، جعلته يحجم عن التقدم لها زمن الأرواح والملبس، غير أن السبب الأقوى الذي جعله مصرا على الظفر بها أكثر من أي وقت مضى، كان شعوره المتفاقم، بعد أن دخل غابة الأعمال، بأن كل شيء في الدنيا يمكن الحصول عليه بالمال، باعتباره المصدر الوحيد الذي أصبح يستمد منه كينونته، ومعنى وجوده في الحياة، لذلك حاول رجل الأعمال التقرب من الأرملة العاشقة، بكل الوسائل الممكنة، ابتداء من محاولته الناجحة لاستمالة أبناءها وأسرتها بالهدايا، لأنه لم يكن من الممكن تقديم الهدايا لها مباشرة، خبط لزق، إذ أنها سوف ترفضها على الفور وانتهاء بتقديم خدمات يصعب على من في مثل وضع أسرتها الحصول عليها، مثل توظيف أخيها الكبير كمحاسب في مكتب سياحة، وتقديم سماعة طبية مستوردة من سويسرا لأبيها الذي كانت تستلزم حالة أذنه اليمنى وضع سماعة طبية حساسة، وإلا بات يسمع الأصوات، وكأنها صادرة من أسفل جب عميق، لكن رغم كل محاولات التقرب هذه، فإن الزوجة المنشودة، كانت ترده، ليس على أعقابه خاسرا، كما اعتيد القول في مثل هذه

المناسبات، فقط، ولكنها تصده أيضا بالريق الناشف في الكلام معه، والنظرات المستخفة، فهيهات أن يكون موضـعه فـي القلب، بصلعته التي لا يبخل الزمن عليها بمزيد من التوسعة، وكرشه النامي بنمو ثروته وفلوسه، كموضع الحبيب الـذي يصلح وجهه لأن يكون أيقونة كأيقونات مدرسة الفيوم في فن التصوير، ثم إنها لا تظن – وقد كانت محقة في ظنهـا – أن رجل الأعمال هذا، سوف يعامـل أبناءهـا معاملـة حسـنة ويعطف عليهم إذا ما تزوجته، لأنه ما عاملهم يوما برقة، ولا بود، إلا ساعة عرضه الزواج عليها.

بخبرة رجل سوق، وتاجر خبر الحياة، وتعامل مـع أنواع مختلفة من البشر، سواء أكانوا رجالاً أم نساء، خمـن عارض الزواج اللحوح، أن في الأمر سرا أو بالأحرى لا بد وأن يكون هناك رجل آخر غيره، فمن غيـر المعقـول ألا تشعر امرأة، كهذه الأرملة الجميلة، بالرغبة فـي الارتبـاط بعلاقة مع أحد من جنس الرجال، ثم إنها رغم كل محاولاتها لإخفاء رغبتها هذه، فإن تفاصيل صغيرة، لاحظها، كثيرا ما فضحتها، فهي تتفرج بشغف شديد على المسلسلات، والأفلام العاطفية التي يعرضها التلفزيون، ويصادف وجـوده، أثنـاء

عرضها في بيت أهلها، أحيانًا، حتى أنها تتباطأ فـي إعـداد الشاي أو القهوة له، حتى لا يفوتها بعضا من مشـاهد هـذه المسلسلات، ثم إنها رغم تحجبها تتأنق وتضع عطورا فـي أوقات خروجها لإعطاء الدروس الخصوصية، إضافة إلـى حرصها على الالتزام بمواعيدها، كما لو كانت عسكريا فـي الجيش ذاهبا للالتحاق بوحدته العسكرية، وقد حاول إغراءها بالامتناع عن إعطاء كل هذه الدروس مجتمعة، مقابـل درس واحد، لأحد أبناء ثري عربي، سيدفع لها ضعف ما تحصـل عليه من دخل هذه الدروس، إضافة إلى ذهابهـا وعودتهـا بإحدى سيارات ذلك الثري الخاصة التي يقودها سائق، لكنها رفضت بشدة متذرعة بأنها تخشى على نفسها مـن دخـول بيوت العرب القادمين من الخليج، حتى لو كان بها زوجـات وأولاد، حرصا على سمعتها.

لم يبق أمامه بعد ذلك، إلا أن يبحث بنفسه عن سبب رفضها له، رغم حالته المالية الميسورة التي تتمناها، لـيس أرملة لها ثلاثة أبناء، أو عانس تحلم بالزواج، بل وكل بنـت بكر كفلقة القمر في عز شبابها ونضارتها، ثـم إنهـا – أي الحبيبة العاقة – تدرك جيدا أنه لو أشار بإصبعه لمـن هـي

أجمل وأشب منها ، لجاءه بدلاً من المائة ألف. وفي الحقيقـة أن الرجل كان محقًا برأيه هذا بسبب عجـز الشـباب عـن الزواج، وتحمل أعباء تأثيث منازل زوجية، والإنفاق عليها، إذ التهم زمن الوساطة والسمسرة كل الأحلام الممكنة التحقق، والطموحات بحياة أفضل مختارة وفقًا لخيارات العمل التـي باتت نادرة، بعد سقوط شعار التصنيع من الإبرة للصـاروخ سقوطًا عموديا لم يسم عليه أحد. إضافة إلى ذلك فهو لو أراد لتزوج بسنيورة من بنات الخواجات اللواتي تقذف بهن رياح السياحة إلى مطعمه، دون أن يدفع مقابل الزواج بها أسود أو أبيض، لذلك فقد أخذ في مراقبتها، ورصـد حركتهـا أثنـاء الخروج خصوصا بعد الظهر عندما تتجه لإعطاء الـدروس الخصوصية، إذ كان يأتي لزيارتهم في بيت أبيها قبل موعـد دروسها بقليل، ثم يتذرع بأعمال لديـه، ويقـوم بتوصـيلها بسيارته الخاصة إلى مكان الدرس المفترض، ليتابعهـا بعـد ذلك، ولم يمر، بالطبع، وقت طويل، حتى اكتشـف حبيبهـا المجهول، بعد أن تابعها حتى التقت به في أحـد المحـلات المغلقة، غير المطروقة كثيرا من قبل الجمهـور، إلا لـذلك النوع من الأحبة الذين يفضلون تبادل غرامهم فـي أمـاكن

هادئة، ذات إضاءة شاعرية خافتة، ونوادل يهمسون همسـا أثناء خدمتهم للزبائن الهامسين.

لسوء حظ أخت شفيقة، لم تر العزول الـذي رآهـا، فربما كانت سوت الأمر معه، حتى لو وصل إلى حد قبولهـا الزواج منه، لأنها تدرك جيدا أن انكشاف أمرها – إذا ما تم – أمام والدها لن يكون نتيجته إلا العدم، لكنها، ولأنهـا لـم تره، مضت إلى مصيرها البائس، مسيرة وليست مخيـرة، إذ قام رجل الأعمال بحركة انتقامية وقحـة، بعـد أن حسـب عمليات المكسب والخسارة في الزواج منها، على أساس أنها رفضته، وستظل ترفضه، بسبب وجود ذلك الرجـل الآخـر الذي يعتبر في رأيه الخنجر الذي سددته إلى موضع جـرح كرامته المنكوء منذ زمن بعيد، فقام بإبلاغ والدها بأنه رآهـا تجلس مع رجل غريب في كافيتيريا أبو منجل سيئة السمعة، والمعروفة بكونها وكرا للعشاق والمحبـين، أساسـا، حيـث كانت تضع ساقًا على ساق، ويدها تحت يد ذلك الرجل الذي كان آنذاك يحوطها بذراعه، ويهمس في أذنها بكلمات وهـو في غاية الوجد والغرام.

بهدوء، وفي ليلة شتوية باردة، عقب ذلك اليوم الذي عرف فيه الأب بسلوك ابنته الذي اعتبره مشينًا إلى حـد لا يصدق، ومنحرفًا بشكل لم يكن يتصور أن يصدر عن واحدة مثلها، ربيت كأفضل ما تكون التربية فـي أسـرة صـعيدية محافظة، خصوصا وأن الرجل الذي شوهدت معـه، أثبتـت التحريات التي قام بها أخوها، أنه لا ينتمي إلى دينها، اتخـذ الوالد، ذلك العجوز المتزمت قراره الخطير، بعد مشاورة مع ابنه الذي لم يكن أقل غضبا ولا تزمتًا من أبيه تجاه سـلوك أخته الأرملة التي اعتبر أنها قد مرغت شرف أسرتهم فـي التراب، وقد ترتب على ذلك القرار، أن احتـال الأخ علـى أخته، ذات يوم بعد غروب الشمس، متـذرعا برغبتـه فـي مرافقتها لشراء قمصان ، وجوارب له، كما اعتاد أن يفعـل في مناسبات من هذا النوع، وبعد أن هدأت صغارها الثلاثـة الصارخين لرغبتهم في الخروج معها، ووعـدتهم بإحضـار علب عصير فواكه من النوع الذي يحبه كل مـنهم، قبلـتهم مودعة، طار بها في سيارته الأخ الذي طالما حملتـه علـى يدها بعد وفاة أمها، وغسلت له ملابسه، بل وألقمته صـدرها الصغير الخالي من اللبن، لتشعره بأن صدر أمه مازال رهن

حاجته، خلال الليالي العصيبة التي أعقبـت وفاتهـا، وهـي الليالي التي طالما قطع سكونها، ونياط القلـوب، بصـرخاته طلبا للرضاع، طار بها، ليس إلى محلات عمر أفندي التـي باتت تبيع أفخر القمصان، بعد تجديدها لتلائم روح العصـر، وتوقفها عن بيع الكساء الشعبي مـن الكسـتور والـدامور والبوبلين، ولكن إلى منطقة صحراوية نائية تبعد عن المدينة والعمران، عدة كيلو مترات، ليتركها هناك إلـى مصـيرها المحتوم، حيث كان في انتظارها، تحت جنح الظـلام قاتـل مأجور، اتفق معه الأب قبل ذلك، وقد ضرب أخوها عرض الحائط بقسوة، بكل تضرعها، وتوسلها إليـه، بـألا يتركهـا للموت، لأجل أطفالها الصغار الذين كانوا، آنذاك، ينتظـرون في شوق العصير المعاب المرتبط بعودتها.

بعد ذلك في البيت الرهيب، وبقلب جامد كالصـخر، وعيون باردة ميتة النظرات، ككل عيون القتلة، أعلن الابـن انتهاء المهمة ونجاحها، للأب الذي كان جالسا ينتظر بفـارغ الصبر، نتيجة خطته، والاطمئنان على غسل عاره، وبمجرد أن تلقى النبأ الذي أراح قلبه، نادى على الأخـت الصـغرى التي لم تكن إلا شفيقة المتوولة، وأعلن لها ، بينما هو ممـدد

على سريره في حجرة النوم، ما جرى للأخت الأم، ثم هددها هي الأخرى بالموت، إن هي فتحت فمها بكلمة واحـدة، لأي كائن كان، حول هذا الموضوع.

في تلك الليلة، باتت شفيقة التي كان اسمها، حتى هذه اللحظة، تغريد، على السرير كجثة متيبسة في انتظار غسلها، مفتوحة العينين عن آخرهما، عـاجزة بفعـل قـوة خارقـة مجنونة، تنبعث من داخلها عن الإتيان بأي فعل صغير حتى إغماض جفنيها، وعندما طلعت الشمس، كانـت قـد فقـدت ثمانية كيلو جرامات من وزنها دفعة واحدة، كما لـو أنهـا قطعة صغيرة من الزبد، ذابت ذات ليلة حارة، فلمـا صـحا أبناء أختها المغدورة من نومهم، ولم يجدوا أمهم إلى جانبهم في البيت، أخذوا يبكون بشدة فلم تجد الخالة ما تقوله لهم، إلا أن أمهم ذهبت لعمتها العجوز، لأنها مريضة جـدا، وأنهـا اضطرت للمبيت عندها، لكن عند حلول المساء، كانت الشابة المصدومة المفجوعة فجيعة لا حد لها، قد فقدت كـل قـدرة على مواجهة الأمر، وأصبحت كائنًا غريبا طوله مائة وسبعة وستين سنتيمترا، ووزنه خمسة وأربعين كيلو جرامـا مـن العظم واللحم البشري، وما إن حل منتصف الليـل تقريبـا،

وبعد التأكد من نوم الجميع، بما فيهم الأب والأخ، تسللت الشابة المسكينة على أطراف أصابعها، وفتحت باب الشقة خارجة بحذر وهدوء، بينما كان أبوها يغط في نومه، فلم يكتشف هروبها، إلا عندما قلب قط شريد حلة طبيخ، كانت بالمطبخ، وهو يحاول إزاحة غطائها المعدني، بعد أن دخل من الباب الذي ظل مفتوحا بعد خروجها، فحدث ضجيج ناتج عن وقوع الغطاء على الأرض صحا الأب عليه.

ظلت تغريد التي أصبح اسمها شفيقة من الآن فصاعدا، تجري وتجري، وكأن قوة جامحة كقوة فرسين فتيين تدفعها للجري، أخيرا، وبعد زمن ممتد من الهروب بسبب مطاردة تصورتها في مخيلتها، سقطت من الإعياء، إلى جوار أحد الأسوار، لم يكن إلا سورا قرميديا عاليا لمدرسة متبقية من زمن الإرساليات الاستعمارية في القرن الماضي، وقد ظلت إلى جوار السور حتى أوشك الفجر على الطلوع، فرآها أحد أولئك الذاهبين لكسب ثواب صلاة الفجر في الجامع القريب من المدرسة، فارتعب، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم عند رؤيتها، لأنه لم يكن قد رأى طوال عمره الذي جاوز الستين عاما، بشريا بهذا القدر من النحول

واتساع العينين، يجلس محملقًا في اللاشيء في هذا الهزيـع الذي ينام فيه معظم الناس، وعندما عاد مع بعض المصلين، فور انتهاء الصلاة، ليرسم ما رآه وشاهده بأم عينـه، كـان البشرى المرعب، قد فارق المكان، مما جعلهم يتندرون عليه قائلين له، إن ما رآه لم يكن أكثر من تخيلات دارت برأسه.

منذ الليلة الأخيرة التي قضتها في بيت أبيها، لم تفتح شفيقة شفتيها بكلام أبدا، وهامت على وجهها أياما وليـالي، تقتات من مقالب القمامة، وتنام بجوار أي حائط، حتـى لـو كان حائط مقبرة، وكانت جل نهاراتهـا تسـير دون توقـف يسمح للناس بالانتباه أو الالتفات إليها، لأنها ما كانت تعـود للأماكن التي تعبرها أبدا، وقد قطعـت شـوارع وحـارات المدينة من أقصاها إلى أقصـاها، ولـم تمـض شـهور إلا وأصبحت ملامح وجهها، ملامح أخرى، لا تشبه ملامحهـا الأصلية أبدا، خصوصا وأن شعر رأسها كان قد شاب دفعـة واحدة، منذ الليلة التي تلقت فيها خبر قتل أختها، فأصـبحت تبدو في عمر يزيد عن عمرها الحقيقي خمس عشـرة سـنة على الأقل.

بعد شهور من ذلك، دخلت شفيقة السجن لأول مرة، بتهمة التسول، وهي التهمة التي سوف تجعلها تتردد عليه بعد ذلك عدة مرات، وتصبح واحدة من نزيلاته الدائمات.

لم تقرر عزيزة ضم شفيقة المتوولة إلى زمرة نسـاء العربة الذهبية السماوية، إلا بسبب شفقتها عليها، وشـعورها بمدى تعاستها ومعاناتها الفظيعة التي بلغت معها ما هي عليه من حال، إضافة إلى سلوكها المستكين الزاهد في كـل مـا يتكالب عليه أهل الدنيا، وكان أكثر ما يجذب عزيزة إليهـا، حنوها على العصافير، ورقتها البالغة وهي تضع لهم فتيتات خبزها على إفريز الشباك لتطعمهم، ولو ألمت عزيزة بحكاية شفيقة المتوولة، لوضعتها فورا ودون أي تردد علـى رأس قائمة راكبات العربة، دون أدنى شك، ولأجل شفيقة عزمـت عزيزة على إلحاق الحاجة أم عبد العزيز بالعربة، ولم يـأت هذا لأن عزيزة ترى أن أم عبد العزيز مظلومة، لا تسـتحق عقوبة السجن، ولا لأنها ضحية من ضحايا الحيـاة اللـواتي قذفت بهن الأقدار في ذلك المكان الكئيب، مثلما تلقي أمـواج البحر بالجثث الغارقة على الشطآن المهجـورة، ولا بسـبب صلواتها التي لا تنقطع، ليل نهار، وقراءتها الدائمة في دلائل

الخيرات، أو تلك الأوقات الطويلة التي تجلس فيها للاستماع إلى محطة القرآن الكريم بواسطة راديو ترانزستور صغير تلصقه بأذنها – من ماركة تليمصر، بقي كشاهد على محاولة فاشلة للدخول في مجال التصنيع، والاعتماد على الذات، أيام الطنطنة الإعلامية للصاروخ القاهر وشقيقه الظافر اللذين لم يظفرا بأي نصر في حرب ١٩٦٧، ولكن عزيزة قررت إلحاقها بالعربة بسبب ذلك الحنو الدائم الذي كانت تغدقه على شفيقة المتوولة، والإشفاق عليها، ومراعاة أحوالها، والحصول على ما يصرف لها من طعام وإعطائه لها، فلولا انتباهها الدائم لحالتها، لكانت تلك البائسة قد انتهت حياتها على ظهر الدنيا، منذ زمن طويل.

كانت أم عبد العزيز، حريصة على مراقبة ومتابعة شفيقة المتوولة طوال الوقت، وخصوصا عندما تجتاحها حالة التشنج العصبي، فجأة، والتي تداهمها بين الحين والحين، فتتحول الفتاة النحيلة إلى لوح من الخشب اليابس، وسرعان ما ترتمي على الأرض، زائغة النظرات، جاحظة العينين على نحو مخيف، يحول رأسها إلى ما يشبه رأس عجل صغير، جرى ذبحه للتو، بينما يخرج من فمها زبد أبيض

برغاوٍ خفيفة كرغاوي صابون شركات القطاع العـام الـذي يوزع إجباريا مع حصص الدعم التمويني عند البقالين، وتقف جميع السجينات والسجانات اللواتي يصادف وجودهن، عنـد حدوث هذا المشهد حائرات، لا يمتلكن القـدرة علـى فعـل شيء، عندئذ، تتقدم أم عبد العزيز وهي تتمتم بالشهادتين، ثم بسورة قل أعوذ برب الناس ، فتنحني على الفتاة الملقـاة على الأرض، لتؤذن في أذنها اليمنى أذانًـا جمـيلاً، تعقبـه بتلاوة ما تيسر لها من أسماء ا الحسنى، لتطلب، بعد ذلـك الشفاعة من رسول ا ﷺ للفتاة، ولا تتركها، حتـى تعـود الحياة، والليونة البشرية، إلى جسدها مرة أخـرى، فتسـارع بمناولتها شربة ماء، وتربت عليها بحنو، بعد أن تأخذها فـي صدرها الضخم المستعد لاستيعاب كائن آخر فيه، إلى جوار شفيقة، بينما تنهمر دموعها على خدها بحرارة.

كانت شفيقة تثير في أم عبد العزيز ذكرى ابنها الذي استشهد في حرب ١٩٧٣ لأنها تشـبهه إلـى حـد كبيـر، خصوصا في الحـاجبين الكثيفـين المعقـوفين، والعينـين الواسعتين، وفلجة السعادة في أسنانهما الأمامية التي أثبتـت الأيام، كذب ارتباطها بالحظ السعيد، كما يشاع عنها دائمـا،

فالبنت المسكينة أوصلها حظها إلى السجن، وفلذة القلب واراه حظه التراب، دون أن تعرف له مكان قبر، تـذهب إليـه أو تقيم عليه شاهدا يخلد اسمه، لأنه استشهد في سيناء، وتركها تعاني مرارة فراقه، وحسرتها الدائمة عليه، وهـي الحسـرة والمرارة التي لم يقلل أو يخفف منها أبـدا، أنهـا حصـلت كنتيجة لاستشهاده على تعويض مالي لا بأس به أتاح لها بعد أن باعت زوجا من الثعابين الذهبية، تبقيا لها من مصوغات زواجها، أن تعلي دورين في بناء بيتها القديم، بعد أن دفعت المعلوم لموظفي البلدية، وحصلت على ترخيص بناء، مخالفة بذلك القانون الذي لم تأت بسبب مخالفته هذه إلـى السـجن، ولكن بسبب تقاضيها خلوات من سكان الشقق الذين أجرتهـا لهم، مما جعل ربحها من عملية البناء، والتأجير، يقفز ليصل إلى ثلاثمائة في المائـة علـى الأقـل، لكـن المسـتأجرين المقهورين الذين كانوا من موظفي الحكومة ذوي الرواتـب القليلة، والدخل المحدود، والذين دفعوا الخلـوات للحاجـة أم عبد العزيز، بصعوبة بعد أن ربطوا الأحزمة على البطـون، واقتطعوا أجزاء ضرورية من رواتبهم، للدخول في جمعيات شهرية مع زملائهم في العمل، تتيح لهم سيولة نقديـة، تفـي

بالخلو المطلوب من كل منهم، هؤلاء الموظفون، سارعوا بالإبلاغ عن ما حصلته منهم أم عبد العزيز من خلوات يجرمها القانون تجريما لا بأس به، لكنه لم يساعد في حل أزمة الإسكان التي تفاقمت، إذ تحول الملاك إلى نظام التمليك بدلاً من تقاضي الخلوات، ونتيجة لهذا حكم على أم عبد العزيز بالسجن، ووجدت هي ذلك حلالاً غبار عليه، لأن مدة الحكم لم تكن طويلة بسبب سنها وشفقة القاضي الذي أصدر الحكم، عليها، ومراعاته لكونها أم لشهيد في الحرب.

ظلت أم عبد العزيز سجينة مثالية السلوك على كل المستويات، فهي عاقلة، رزينة نظيفة الملابس، ذات لسان عفيف، ويد ممدودة بالخير للصغير قبل الكبير، وكانت تهمتها من ذلك النوع الذي يبعث على الاحترام بين السجينات والسجانات، فهي تهمة ليست مخلة بالشرف من وجهة نظرهن. ولا تقل، على الإطلاق من شأن صاحبتها التي عيبها الوحيد هو شخيرها المستمر الشبيه بصوت تنقيط الماء من صنبور تالف، بمجرد أن تضع رأسها على الوسادة لتنام، وهو الشخير الذي كانت أم رجب وأم الخير تساهمان في تحويله إلى سيمفونية كاملة للقلق والإزعاج، باعتبارهما

تنامان في العنبر نفسه مع أم عبد العزيز فيما عدا ذلك ظلت أم عبد العزيز موضع تقدير، خصوصـا بعـد أن صـارت كثيرات من المسجونات، يؤمن بها، كـامرأة تقيـة واصـلة وصول العارفين با ، لكثرة صلاتها، ولصيامها كل اثنـين وخميس، عدا شهر رمضان والأيام الست البيض التي تعقبه، وأول رجب ونصف شعبان، وغرات الأشهر الحرم، وكذلك لبركتها الواضحة، وقدرتها على إعادة شفيقة المتوولة إلـى حالتها الأولى بعد أن تؤذن في أذنها اليمنى، عندما تجتاحهـا نوبات المس الشيطاني التي لم تكن في الحقيقـة إلا نوبـات صرع عنيف لم تعالج منه أبـدا، وكنتيجـة لهـذا الإيمـان والاعتقاد في أم عبد العزيز من قبل المسجونات، والسجانات كذلك، باتت تقضي أوقاتًا كثيرة في السـجن، تقـوم بعمـل الأحجبة للمسجونات، وترقي بعضهن وتمسـح رءوسـهن، وقراءة بعض الآيات البينات، عندما تنتابهن حالات صـداع شديد لا تقوى على قمعها منتجات شـركة بـاير، وسـويس فارما، وهوكست من الأقراص المسكنة للألم، لأنها في واقع الأمر حالات ناتجة عن ضعف البصـر المتزايـد، لغيـاب فيتامين أ تقريبا من الغذاء، أو عن الإمساك المـزمن لقلـة

السليللوز النباتي في وجبات السجن، إضافة إلى ذلـك، فقـد وصل الاعتقاد في أم عبد العزيز إلى حد شجعها على القيـام بتفسير الأحلام التي كانت تقوم بتفسيرها عادة بينما تتجمـع حولها مجموعة من السجينات اللواتي كن يجدن ما تقوم بـه هذه المرأة، نوعا من النميمة اللذيذة، وقد ثبت الاعتقاد فـي قدرة أم عبد العزيز على تفسير الأحلام تفسيرا دقيقًا صائبا، عندما قالت لمحروسة السجانة، أن لها ابنة سـوف تتـزوج قريبا، خلافًا لإرادتها، لما حكت لها محروسة، ذات يوم، عند الصباح أنها رأت فيما يرى النائم، أن إحدى بناتها التي هـي أجمل واحدة فيهن، كانت تلتهم إصبعا كبيـرا مـن المـوز، فحاولت أن تمنعها من أكله، لتأكدها من أنه مسموم وسـوف يضرها، لكن الفتاة أصرت على التهامه، مما جعل محروسة تبكي وتصرخ طالبة النجدة، لكنها أفاقت على صـوت بـائع الفول الذي كان ينادي بالحارة، فهبت مذعورة من نومها إلى المطبخ، وحملت السلطانية الإستامبولي الخزفية التي قايضت عليها ببنطالين من بناطيل ابنها القديمة، واشـترت الفـول، وعندما عادت بعد الظهر إلى البيت، بعد انتهاء عملهـا فـي السجن، فاتحتها ابنتها التي هي في رأيها فتاة لعوب، تستحق

قصف الرقبة، رغبتها في الزواج من الكهربائي الذي أصرت على الزواج منه.

الطريف أن أم عبد العزيز، وبمرور الوقت، باتت تعتقد وتؤمن بقدراتها الخاصة في تفسير الأحلام، وكشف الحجاب عنها، مما جعلها تزيد في صلواتها، ولا تكف عن قراءة الأوراد، والأدعية، وكل ما تمدها به محروسة التي كانت لا تشبع من تفسير الأحلام أبدا من كتيبات دينية رخيصة، تشتريها خصيصا لها من أولئك الباعة المنتشرين إلى جوار سور جامع السيدة زينب، وسور جامع الحسين رضي ا عنهما لكنها ذات ليلة من الليالي أيقنت بانكشاف الحجاب عنها، وانفتاح الطريق الموصل إلى ا ، أمامها، إذ أنها بينما كانت جالسة على سريرها، تسبح بمسبحتها القديمة التي خرطت حباتها المستديرة من خشب العنبر، والتي كانت قد اشترتها من خان الخليلي، وإلى جوارها قطة السجن المدللة، تهر باطمئنان، فاض بها الوجد والشوق، وغلبها الحنين لرؤية وحيدها الشهيد الذي حرمت منه، إلى حد شعورها بأن دقات قلبها تسرع، ورأسها يسخن، سخونة غير عادية، وأصابعها لا تقوى على تحريك حبات المسبحة بيسر

وسهولة، عند ذاك، ورغم الصخب الذي كان يمـلأ عنبـر العجزة، وقتها، لأن أم رجب كانت تتشاجر مع لولا الكوافيرة على علبة كبريت ضاعت مـن لـولا، فاتهمـت أم رجـب بسرقتها، ورغم الأصوات المتداخلة، بسبب محاولات أطراف أخرى لفض الشجار، شاهدت أم عبد العزيز بعينيها اللتـين سوف يأكلهما الدود، ابنها الغالي العزيز، عبد العزيز، يجيء إليها بملابسه العسكرية، وهيئته الجميلة التي هي على هيئـة شفيقة المتوولة، إلى حد كبير، فيجلس قبالتهـا علـى حافـة السرير، ويربت بيده على رأس القطة التـي امتنـت لـذلك كثيرا، ورفعته قليلاً عله يهرش لها رقبتها وذقنها اللتين كانتا تضايقانها بسبب نغش البراغيث بها، بـل وتسـمع صـوته بأذنيها الحادتين، رغم شيخوختها، واللتين يمكنهما الإنصـات إلى دبيب نملة، وهو يقول لها في رقة.

- عاوزة أي شيء يا حاجة قبل ما أرجع.

ثم لم تمر ثانية على كلماته، إلا وكان قد اختفى، مما جعل الأم الثكلى، تفتح عينيها بشدة، وتغلقهما عـدة مـرات، لتتيقن من كونها صاحية لم تغف، ولتؤكـد لنفسـها أن مـا شاهدته كان حقيقة وعلما وليس بحلم مـن الأحـلام، ولمـا

تأكدت تماما من ذلك، بعد أن تحسست بيدها الموضع الذي كان يجلس عليه من السرير، فوجدته ساخنًا، كما لو أن إنسانًا غادره لتوه، صرخت صرخة عظيمة، ولطمت، ضاربة بكفها على صدرها، منادية ولدها العزيز، مما جعل الدهشة تعم جميع من بالعنبر فيتوقف شجار أم رجب ولولا التي رفست القطة رفسة قوية بقدمها، عندما قفزت الأخيرة مذعورة من صراخ أم عبد العزيز، فتعثرت برجلها.

استعادت الأم الحزينة نفسها، بعد مدة من اللطم والندب اللذين شاركت فيهما عظيمة الندابة، ووجدتها أم رجب فرصة سانحة، لبكاء ابنتها ونعيها، وبعد أن بذلت حنة جهدا خارقًا في إسكاتها وتهدئتها، بمسح وجهها بقطنة مغموسة في ماء الزهر، ولم شعرها في منديل آخر، بدلاً من الذي خلعته لتمسكه، بيدها، وتعدد به صفات ابنها الخَلقية والخُلقية التي أضاعها، وأفناها الموت الغادر وأسكنها التراب، وعندما همدت قواها تماما، ولم تعد قادرة على بذل المزيد من المشاعر الأسيانة التي بذلتها بكل خلجة من خلجات نفسها، ظلت ساكتة ساهمة، لا ترد على كل الاستفسارات التي وجهت لها، والباحثة عن سبب صراخها

وعويلها المفاجئ على وحيدها، لأنها لم تشاهد من قبل فـي مثل هذه الحالة الشنيعة من الانهيار والحـزن، فقـد كانـت تتذرع بالصبر وبقراءة القرآن دائما، وحتى عندما سألتها حنة سؤالاً مباشرا عما جرى، آثرت أم عبد العزيـز الاحتفـاظ بالسر لنفسها، وكتمان الأمر عن الجميـع، إذ اعتبـرت أن رؤيتها لأبنها بأم عينها، وهو ميـت، نـوع مـن العطـف والكرامة التي خصها ا بهـا، والتـي تسـتوجب الشـكر، والحمد، والكتمان في النفس.

قامت أم عبد العزيز، بعد أن استعاذت من الشـيطان الرجيم، فتوضأت وصلت صلاة أخلصت فيها إخلاصا كبيرا، واستغفرت ا ، عما فعلته منـذ قليـل، لأنهـا لـم تقصـد الاعتراض على مشيئته، وأمضت ليلتها ساهرة، حتى غياب النجم عن سماه، تقرأ ما تيسر لها من آيات وأدعيـة تـريح الميت في قبره، وتصبر ذويه في دنياهم.

في ذلك الوقت، وبينما كان كل ذلك يجري، كانـت عزيزة في زنزانتها الانفرادية المجاورة لعنبر العجزة حيـث دارت هذه الأحداث، تحملق في السقف، بعد أن استمعت إلى ما حدث، وخصوصا الصراخ والعديد الحار، وفكرت مـرة

أخرى في أم عبد العزيز، وأحوالها، وعذابها المرير الـذي قلما عبرت عنه منذ جاءت السجن، وبينما هي تطفئ الجمـرة الصغيرة لبقايا سيجارتها في كوز الصفيح القديم الذي كـان ذات يوم علبة مربى التين البرشومي، صنعته شـركة قهـا، شعرت بتأنيب الضمير، وبالخجل من نفسـها قلـيلاً، لأنهـا أخطأت في حيثيات قرار إلحاق تلك العجوز البائسة بالعربـة الذهبية الصاعدة إلى السماء، لذلك قامت من مكانها، وذهبت إلى الشباك، حيث أسندت رأسها بين قضيبين مـن قضـبانه الحديدية، وقالت بصوت خفيض شابه الخجل:

- حقك علي، خاطرك قبل خاطر شفيقة!

لحن الصعود السماوي

لم يعرف أحد أبدا، ما الذي كانـت تفعلـه عزيـزة الإسكندرانية، عندما تبقى وحيدة في زنزانتها الانفرادية لمدة أربع عشرة ساعة يوميا، بعد أن يغلق عليها باب الزنزانة من الخارج، حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر، حتـى تفتحـه السجانة المناوبة في السابعة من صبيحة اليوم التالي، كانـت نزيلات عنبر العجزة المجاور لزنزانتها يسمعن وقع قـدميها معظم الليل وهي تتمشى في حركة دءوبة، قلقة، قلما تنقطع، أما ما خلا ذلك فلا صوت يسمع طالعا من جهة زنزانتهـا، وهكذا ظلت أحاديثها الطويلة الممتدة، وحواراتهـا التـي لا تنقطع مـع أمهـا وزوجهـا المقتـول، ونفسـها، وأولئـك المصطفيات للصعود في العربة الذهبية المسحورة المجنحة، إلى العالم الآخر الجميل في السماء، سرا أبديا، لا تعرفه غير عناكب سقف عنبرها التي تقاسمها سهر الليالي مقتنصة مـا تيسر لها من هوام، ويراع غره الضوء المنبعث من العنبـر في الليل، وكذلك جنادب الغيطان التي كانت ترسل بتحيـات المؤانسة، لتلك الوحيدة الجالسة تتجـرع خمرهـا الـوهمي،

فتسمعها، عبر شباك الزنزانة المفتوح، صريرها المرسل من أماكنها في الحقول القريبة من شاطئ النهر الذي لا يبعد عن السجن كثيرا.

نجحت عزيزة في البقاء بسجن النساء، طوال سنوات طويلة، بدلاً من نقلها إلى مستشفى المجانين، إذ ظلت حالتها تحير الأطباء الذين لم يجدوا شواهد فعلية تستدعي ضمها لزمرة الذين فقدوا عقولهم، فخرجوا عن حدود المتفق عليه المألوف في القطيع البشري، أما التصرفات القليلة المحدودة التي بدرت منها، خلال سنوات وجودها في السجن، فقد أثبت التحقيق فيها، أن الملائكة أنفسهم، لو تعرضوا لها لأبرزوا أنياب الشياطين الجارحة، وأظافرهم الحادة في مواجهة الذين استفزوهم، وعملوا على استثارتهم، لكن عزيزة، كانت تكتفي عادة في المواقف الاستفزازية، بالعض الخفيف، كما فعلت ذات مرة مع لولا الكوافيرة لوقاحتها، أو بشد الشعر، أو ربما بالضرب بالقبضة في صدر وأنف الغريم، كما فعلت ذات مرة مع سجانة نكدة، ذات وجه كئيب مصفر، كأنها في الأصل، نباشة من نباشي القبور، ظلت تضع نقرها من نقر البنت جمالات، وتقف لها على الواحدة، مترصدة لها في

الكبيرة والصغيرة، لأن البنت رفضت في مرة من المرات أن تغسل لها هدومها، لأن يدها كانت قد احترقت بعد انسـكاب الزيت عليها، وهي تقلي البطاطس، فيما عدا حوادث بسيطة كتلك، لم تكن عزيزة لترتكب أي فعل آخر، يلفـت النظـر إليها، ويشير إلى جنونها، عدا كونها تكلم نفسها أحيانًـا فـي حضور الأخريات، وهذه مسألة يفعلها كل الناس تقريبا، مـع فارق واحد بسيط، هو أن عزيزة تفعل ذلك بصـوت عـال مسموع، فتقول ما تود قوله للآخرين، دون اعتبار لما يصح أو ما لا يصح، وما يجب وما لا يجب، فتقول للأعور: أنت أعور في عينه، وهو الشيء الذي كثيرا ما يود الناس فعلـه وقوله، لكنهم يحجمون عن ذلـك، عـادة، بسـبب خيانـات شجاعاتهم.

على أي حال، لم تكـن حالـة عزيـزة، وحـديثها المسموع مع نفسها في فناء السـجن، أو الـدهليز الطويـل المطلة عليه زنزانتها، وبعض الزنازين الأخرى، يشكلان في أي وقت قلقًا، لأي كائن كان، بما في ذلك إدارة السجن نفسها التي ارتأت وضعها في زنزانة انفراديـة، تحسـبا لعواقـب حوادث، قد ينتج عنها مشكلات لا لزوم لها.

طالما تأملت عزيزة وهي في زنزانتها فكرة السجن، باعتبارها الخيار الجماعي الذي اختاره البشر، لعقاب بعض منهم، وكانت ترى أن فكرة العقاب لجعل المرء عبرة لمن لا يعتبر، لا تنطبق عليها أبدا، وأنها لا يمكن أن تكون عبرة لأي بشر آخر، لأنها عاشت حياة فريدة من نوع خاص، لا يمكن لإنسية غيرها أن تعيشها، ولا تقوى على الاستمرار فيها إلا جنية من جنيات البحر القادرات على الغوص فيه، بعيدا، بعيدا في الأعماق، دون خوف أو وجل، لأنهن عرفن أسراره، وخبرن أمواجه العاتية، مثلما خبرت هي بحر العشق، وعرفت أهواله وآلامه، بالإضافة إلى أنها لم تقتل رغبة منها في القتل، أو الانتقام، ولا بدافع الغضب، أو الكراهية، لكنها قتلت من أجل الحفاظ على عشقها الفريد الذي ما عاشت إلا لتظل شجرته أبدا، يانعة، مزدهرة، وهي لم تقتل إلا ذلك الآخر الشبيه الذي قررت التخلص منه بعد أن تجسد لها في هيئة زوج أمها، فسرق النار الأبدية لعشقها، واقتلع شجرة الحياة في نفسها من أعمق جذورها، لتحافظ على ما حافظت عليه طوال سنوات عمرها كلها.

لم تندم عزيزة لحظة على قيامها بالقتـل، ولا علـى حرق المنزل الواسع الجميل، بعد أن غمرت بالكيروسين كل ركن فيه كان قد شهد تفصيلة من تفاصـيل عشـقها، وكـل موضع عاش لحظة من لحظات الغرام المشبوب الذي لم يلم بسره إلا هذا البيت، الساكن فـي قلـب حديقتـه الفسـيحة، والصاخب بحياة سرية لم يعرف البشر مثلها أبدا، كما أنها لم تندم في أي وقت من الأوقات، لأنها أمضت حياتهـا، كمـا صوفي ورع، تصلى في محراب غرامها المجنـون، لكنهـا ندمت أشد الندم على شيء واحد، وحيد، هو أنهـا سـمحت لذاك الحبيب المؤله أن يتعلق بأخرى، وأن يصل به الأمـر إلى اعتزام الزواج بتلك التي أحبها، وكانت عزيـزة تعـض أصابع الندم لأنها أتاحت لحادث، كالخدش الصغير، أن يعكر صفو غرامها الجميل، فلم تقض على المهزلة في مهدها، ولم تقدم على ما فعلته بعد ذلك في ذات اللحظة التي انتفض فيها قلبها وجلاً ورعبا، إذ رأت معبودها الأثير، ينظر إلى نادرة تلك النظرة التي ما اعتاد، أبدا، أن يوجههـا إلـى غيرهـا، فشعرت أن ما في قلبه من حب وغرام، لم يعد لها منذ تلـك اللحظة، وقد كان عليها ألا تؤجل، أو تسوف، أو تراهن على

أن ما حدث لم يكن إلا سحابة صيف عـابرة، تـذهب فـي سبيلها، دون أن تغمر بفيضها جزيرة العشق السرية الصغيرة التي رتعت في مباهجها، وعاشت فيها، وطالمـا تمنـت أن تعيش فيها إلى الأبد.

كثيرا ما أمضت عزيزة ساعات لياليها، تتحدث إلـى ذلك المعشوق الأبدي الذي طالما ظنت أنهـا لـم تخلـق إلا لتعشقه، وما عاشت إلا لأن نفحات من روحه كانت تسـري في دمائها، فتجعلها امرأة بألف امرأة ، تبذل مـن روحهـا، لذلك الحبيب القدس، حتى يراها نضرة متجددة دوما، كما لو كانت طائر الفينيق الجميل الذي لا يفنى، ولا يرتوي أبدا من ماء الحياة، ولطالما تحدثت معه في لياليها، ذات الخمر النيلية العذبة التي ما أسكرتها، إلا بنشوة ذكريـات حياتهـا التـي تتسرب منها، وهي مبعدة عن مدينتها البحرية الأثيرة، خلف أسوار السجن العالية، ولطالما بثـت حنينهـا، لتلـك الأم – الصديقة، شقيقة الروح، وشريكة الجسـد، ونديمـة الأيـام الخوالي التي عصف بها الزمان، ووردة البيت اليانعة التـي باركت، دوما، ما بين زوجها وابنتها من تعاطف، ومـودة، وغذت شجرة محبتها بمدد من عطفها وحبها، ومـا حاولـت

يوما، أن ترى ببصيرتها، أو تجلو بأذنيها وببقيـة حواسـها المستطيعة، ما عجزت عيناها عن تبيانه لهـا مـن صـخب صامت واش بأواصر الغرام بين زوجها العشيق، ووحيـدتها الصغيرة القلقة دوما بهواجس العشق في ذلك البيـت القـديم الذي شهد لحظات الميلاد ولحظات الموت الأليمة أيضا.

كانت عزيزة تفكر، وهي تجلس وحيدة في زنزانتها، أن من المحتمل أن تكون أمها قد اكتشفت حقيقة العلاقة بـين ابنتها وزوجها، فارتضت ذلك، وآثـرت الصـمت لأسـباب كثيرة، ربما كان على رأسها أنها كانت ترى فيهـا مكمـن سعادة حشاشة قلبها، وضياء حياتها الذي تستضيء به، وهي المحرومة من نور عينيها، فلطالما رحبت بأن يخرجا سـويا في أيام وليال كثيرة للنزهة أو للسهر خارج البيت، وهي التي ألحت على زوجها ليصحب ابنتها إلى المدينـة – العاصـمة التي هي أم الدنيا فيطوف معها فيها، وما أكثر مـا حفـزت ابنتها على أن تولي زوجها الرعايـة والاهتمـام، فجعلتهـا تشرف على تحضير ملابسه بنفسها، كلما تأهـب للخـروج، وتعد له الطعام عندما يعود إلى البيت متـأخرا فـي بعـض الأمسيات، بالأحرى، لقد أرضعتها حبـه وعشـقه، مثلمـا

أرضعتها حليب صدرها، فلعلها كانت عالمة أن ذلك العطف، والحنان، يمكن أن ينمو وينضج إلى ما هو أبعد... بل إلـى منتهى العشق والغرام.

لكن ما كان يؤلم عزيزة، ويشعرها بالضـيق، بـل وبالخجل من نفسها أيضا، هو أنها ما كانت لتسمح لأمها أن تكون ذات يوم في الوضع الذي كانت هي فيه، لو كانت في مكانها، ولما قبلت أبدا أن تعشق ابنتها زوجهـا، وأن تتدلـه بحب الرجل الذي أحبته، وعشقته، وتزوجته أيضـا، وكـان شعورها بالخجل والضيق، بسبب اتهامها، لنفسـها بالقسـوة وغلاظة الفؤاد، إضافة إلى ما هو أهم من ذلك، وهو الجحود البالغ، تجاه هذه الأم الطيبة المتسامحة، كريمة النفس التي لم تتوقف للحظة عن إحاطتها بالحب والحنان.

عند ذلك الحد من التفكير، كان غضب جامح يتملـك عزيزة.. غضب من نفسها، وغضب عليها، لأنها ما كانـت أبدا الابنة الوفية البارة التي يلهج لسانها بالشكر والامتنـان، لتلك الأم العظيمة، بل كانت ابنة ناكرة للجميل، أنانية، تحب لنفسها ما لا تحبه لأمها التي لولاها لما عرفت ذلك الرجـل المعشوق، ولا عاشت معه كل ذلك الزمن الجميل، وإذ يأخذ

عزيزة الغضب، وتثور بداخلها قوة الألم التي تهـز كيانهـا، فتعصف بروحها المعذبة التي طالما نأج فيها البوم والـريح، تهب واقفة، وتتمشى جيئة وذهابا بـين جـدرانها الأربعـة العالية، وعندما يبلغ ألمها مداه، تتجه إلى الشـباك، فتمسـك بقضبانه الحديدية الصدئة، وتهزها، بكل ما تجمع في قبضتي يديها من غضب وألم، وكأنها تود أن تحطمها وتدفع بنفسـها خارجها، بعيدا، عاليا في السماء، عندئذ كانت ساكنات عنبر العجزة يسمعن صوتًا صادرا عن غرفة عزيـزة المجـاورة فيحسبن أن القطط لا تكف عن الـنط مـن الشـباك، إلـى زنزانتها، وكانت أم عبد العزيز، تعتقد أن عزيـزة مؤاخيـة جنًا، يأتون إليها ليلاً، على هيئة قطـط لا يمكـن أن تكـون كالقطط الأخرى الشاردة التي تتسال إلى العنابر ليلاً بهـدف السرقة، فتكشف الأغطية عن الطعام في غفلة من صاحباته، وإلا كانت عزيزة نهرتها وطردتها، وقـد تحـدثت أم عبـد العزيز، ذات صباح، مع عزيزة في موضوع القطط الليليـة هذا، فنفت عزيزة نفيا تاما وجود قطط تزورها أثناء الليـل، وكانت الحاجة العجوز التي ظنت أن حجب العالم المستور قد رفعت عنها في السجن، تود أن تحصل من عزيـزة، علـى

معلومات تتعلق بهذا الموضوع ، لتوسع مـداركها الغيبيـة، وتكرسها لنشاطها الجديد الذي أثبتت التجربـة نجاحـه فـي السجن، والذي قررت الاسـتمرار فيـه، وتصـعيده، بعـد خروجها منه، إلى حياتها الطبيعية،

بعد أن تفشل عزيزة في تحطيم القضبان، وتؤلمهـا يداها إلى درجة لا تعود معها قادرة على بذل المزيـد مـن الجهد، لدفع ما يعوق فرارها من عذاباتها، وما يمنعها مـن الصعود عاليا إلى حيث تشاء، كانت تئوب عائدة إلى فراشها الأرضي، مجرجرة جسدها المنهك بالألم، لـتجلس كركـام بشري، حطمته الأيام، وتلاعب به الزمـان، فأصـبح شـيئًا متوهجا كالفضة في الرأس، وخيوطًا محفورة بدقـة حـول العينين اللتين ذبلتا، وانطفأت فيهما لمعة الحياة، فلم يبق منها إلا تلك النظرة الناعسة المترفعة، كعلامة باهتة تدل على مـا كانت عليه صاحبتها في الماضي، وما إن ترمـي بجسـدها على مرتبة الإسفنج الرقيقة، حتى تشـعل لنفسـها سـيجارة جديدة، وتتجرع كأس خمرها المائي في جرعـات سـريعة، لتطفئ بها ما لا يخبو في نفسها من آلام مشـتعلة، ولتعـاود

التفكير فيما يجب إنجازه، حتى تقلع على أكمل وجه عربتها الذهبية الصاعدة إلى السماء.

كانت عزيزة ترغب في أن تبدو راكبـات عربتهـا الذهبية في أجمل صورة يمكن أن يكون عليها بشـر، عنـد ارتفاعها عن الأرض، باتجاه السماء، وكانت ترى أن هـذا أقل ما يجب ويليق بنساء مختارات من سجن النسـاء، عنـد صعودهن إلى هناك، لذلك فقد أمضت ليالي طويلة تحـادث سونيا الأرمنية التي كانت أشهر خياطة في الزمن الماضـي بمدينة الإسكندرية، والتي طالما حاكت لعزيزة ولأمها أجمل الثياب، وأكثرها عصرية وأناقة، وقد كانت عزيزة، تنـاقش سونيا في أدق التفاصيل المتعلقة بنوع القماش وألوانه، ومدى ملاءمة كل ثوب من الأثواب التي سوف تصنعها، لصـاحبته المختارة للالتحاق بالعربة الذهبية، وكان كل هذا يتم بعـد أن تستدعي عزيزة سونيا من مهجرها الجديد في فرنسا الـذي استقرت فيه بعد أن لحقت بأبنائها الذين كانوا قـد افتتحـوا مطعما للمأكولات الشرقية فيها، وكانت تستدعي السـجينات اللواتي سيلتحقن بالعربة، واحدة تلو أخرى، لتراهن، وتأخـذ مقاييسهن، وتختار لكل واحدة منهن ما يناسبها من أثـواب،

وخلال ذلك تستشير زينب منصور الجالسة إلى جوارها، وتسترشد بذوقها الأرستقراطي الرفيع، فيما يتعلق بتفاصيل الأثواب التي كانت تريدها مصنوعة من أقمشة فاخرة، جميلة، منتقاة بعناية، وذات ألوان رقيقة بهيجة، تجعلهن يبدين وكأنهن ملائكة، لا تقل جمالاً وبهاء عن ملائكة السماء عندما يقابلنها وهن يرتدين هذه الأثواب الطويلة الواسعة المخصورة، والمصنوعة من الكريب دي شين، والشيفون الرقيق، والحرير الشانتونج، والساتان الدوشيس، والدانتيل المخرم، والتل الموشى بالقصب، وقشر السمك الذي يكب ألوانًا سماوية بهيجة، كتلك التي تكبها رقاب الحمام البلدي، ثم إنها اختارت لكل واحدة منهن تاجا ذهبيا مرصعا بالجواهر، والأحجار الكريمة التي تسلب بسحرها العقول، وحرصت أن تكون هذه التيجان على غرار التاج الذي كانت تضعه الملكة فريدة على رأسها، ليلة زفافها إلى الملك فاروق الذي كرهته عزيزة كثيرا، لأنه طلق فريدة، وتزوج ناريمان، لكن ا الذي يمهل ولا يهمل، قلعه من عشه، بعد ذلك بقليل، إذ قامت الثورة، فترك الجمل بما حمل، وخرج من البلاد غير معزز ولا مكرم، بينما ظلت صورة الملكة فريدة في

ثوب زفافها الطويل الرائع، والتاج على رأسها، معلقة علـى الحائط إلى جوار سرير عزيزة التي كانت تنظر إليها، وتمتع عينيها بها، بين الحين والحين، حتى أتى يوم شديد من أيـام النوة البحرية الصغرى طير الصورة من الشـباك المجـاور لها، بعد أن فتح الريح مصراعه الذي لم يكن محكم الإغلاق، بشدة فضاعت معالم الصورة من كثرة ما انهمر عليها مـن مطر في الحديقة.

أما بالنسبة للأحذية فلسوف تكون منسجمة تماما مـع الأثواب فقد اختارت عزيزة أن تكون من الساتان السادة، أو الجلد الرقيق الذي تتخلله أجزاء مـن الفلتريـة، أو القطيفـة الشمواه الدافئة، وجميعها بكعوب بسيطة غير مرتفعة كثيـرا عن الأرض، ما عدا كعب حذاء حنة الذي سيكون ارتفاعـه سبعة سنتيمترات، أما عظيمة الندابة، فإنها ستخصـص لهـا حذاء دون كعب على الإطلاق، لكنه سيكون موشى بخيـوط فضية جميلة، ثم إنها ستجعلها تجلس في آخر العربة، حتى لا تحجب الرؤية عن الجالسات أمامها، وستفعل ذلـك، دون أن تشعرها بشيء، أو تؤذي مشاعرها، مثلما كان الناس يفعلون معها في السابق، فقد حكت لها عظيمة يوما بأسى أنهم كانوا

يجعلونها تقوم بتنظيف السقوف في بيت أبيها لأنها طويلـة، مستغنين بذلك عن شراء رأس العبد المصنوع مـن الغـاب، والذي يستخدم في ذلك، بل وصل الأمر إلى حد جعل جـارة لهم، ترسل ابنتها الصغيرة لاستدعائها بين الحـين والحـين، لتجلب لها شيئًا من الأشياء، موضوعا فوق الدولاب العـالي القديم، لأنها لا تستطيع الوصول إليه، لإنزاله، وأن عظيمـة كانت تتضايق جدا، لأنها تكره أي شيء يذكرها بطولها غير العادي.

بخصوص الشعور، قررت عزيزة أن يتولى أمرهـا عدلي حلاق النساء الفنان الذي لم يخلق لشيء إلا لـرءوس النساء، فهو يستطيع بفضل أصـابعه المـاهرة الذهبيـة، أن يحولها إلـى رءوس شـبيهة بـرءوس حوريـات البحـر الساحرات، وهو حلاق مدينتها الذي طالما تفنن في تصفيف شعرها، بطرق حازت دائما على إعجاب حبيبها، وبهرته، إذ كانت تزيد سحنتها فتنة وجمالاً. وقد قررت عزيـزة، بعـد تفكير عميق جدا، ضم قطة السـجن المعذبـة إلـى ركـاب العربة، إضافة إلى قطة أخرى، ذات لون أسـود غطـيس، لاحظت أنها باتت تتردد على السجن كثيرا، وكانت تجلـس

أحيانًا إلى جوار قطة السجن في الممشى الذي ترى عزيـزة جانبا منه من شباك غرفتها الآخر، فتهران سـويا بمنتهـى الارتياح، ودون نشوب أية معارك بينهما، وقد لاحظت أنهما لا تتصارعان أبدا على الطعام الذي تلقي لهما بـه، أحيانًـا، أثناء الليل.

رغم كل هذه الاستعدادات التي أعدتها عزيزة لتكون الحال عند الصعود على أفضل ما يرام، ظلت هناك بضـعة عقبات صغيرة، حاولت عزيزة تذليلها، فعلى سبيل المثـال، كانت محروسة السجانة تكره أم رجب كثيرا، لأنهـا تلعـب دور الجاسوسة على السجينات لصالح إدارة السـجن، ممـا يسبب لمحروسة كثيرا من الحرج إذ تتهم بالتواطؤ مع بعض السجينات الأمر الذي لا ترى محروسة أنه يتم من قبلهـا إلا لأسباب إنسانية بحتة، فأم الخير صنعت عروسا قماشية بحجم طفل لعايدة الصعيدية، لتضعها إلى جنبها وهي نائمة، كما لو كانت ابنا لها، لكن أم رجب سرقتها، ولما واجهتها محروسة بهذه السرقة، وأحرجتها، انتقمت منها فأبلغت إدارة السـجن، أن محروسة سمحت لجمالات، ذات ليلة، بالمبيت مع هـدى في عنبر الجرب، وهو ليس عنبرها، لأن هدى كانـت قـد

أغرتها بدعوتها إلى حفل ساهر في العنبـر، سـيجري فيـه الرقص والغناء، بمناسبة خروج إحدى السجينات في اليـوم التالي بعد أن صدر قرار بالإفراج عنها لعدم ثبـوت تهمـة الجمع بين زوجين عليها، إذ اكتشفت المحكمة وفاة زوجهـا الأول الذي لم تكن قد رأته منذ غادر البلاد قبل سبع سنوات، ولم تسمع أي خبر عنه أثناءهـا، فغيـرت مكـان سـكنها، وسافرت إلى بلد في الصعيد، وتزوجت بائع عسـل أسـود جوال، أنجبت منه ثلاثة أطفال، لكن أم زوجها الأول قاضتها لتدخلها السجن .

المشكلة الأخرى التي واجهت عزيزة، هـي شـفيقة المتوولة التي كانت معظم السجينات لا يحببن وجودها بينهن كثيران رغم إشفاقهن عليها، بسبب قذارتها، وإصرارها على البقاء بأقل ثياب ممكنة على جسدها، حتى في عز الشـتاء، ورغم كل المحاولات المبذولة من بعضهن لإعطائهـا شـيئًا تستر به جسدها لكن عزيزة، كانت تراهن على أنهن سـوف يقبلن عليها، ويحتفين بها، كثيرا، بعـد أن تحمـم، ويليـف جسدها جيدا بالليف الخشن، ويفرك كعبها بالحجر البحـري الخفاف، حتى يصيرا ناعمين، نعومة حرير ثوبها الـوردي

الساتان، مكشوف الصدر قليلاً، والذي سوف تجعله سـونيا، بمهارتها، محبوكًا عند الخصر، واسعا عند الأطراف والذيل، ثم إن عدلي الحلاق، سوف يسرح لها شعرها الناعم الجميل، ويعقصه من الخلف عقصة بديعة، يمسكها دبوس كبير مـن العاج الأبيض المرصع بفصوص الماس، وعندئذ، فلسـوف تبدو وكأنها امرأة أخرى تماما، لا علاقة لها أبدا بتلك الفتـاة الكئيبة الوسخة التي كانتها، بل ربما بدت شـبيهة بالممثلـة الجميلة شادية في ذلك الفيلم الذي غنت فيه أغنية "دور عليه تلقاه"، والذي شاهدته عزيزة، ذات يوم فـي سـينما مترو بالإسكندرية، عندما ذهبت إليها بصحبة حبيبها الـذي ظـل ممسكًا براحتها، وأخذ يطبع على خدها قبلـة بـين الحـين والحين في الظلام، بعد أن ألحت عليه أمها ليخرجها، ويرفه عنها قليلاً، بعد أن ظلت راقدة في السرير عشرة أيـام إثـر إصابتها بالتهاب حاد في القولون، رفع درجة حرارتها، فظن الأطباء في البداية أنه حمى التيفوئيد.

أما ما كان يؤرق عزيزة أرقًا شديدا، ويجعلها تنتفض رعبا أحيانًا، فهو تصورها وخوفها، أن يأتي مأمور السجن، ويحاول فرض نفسه على العربة، بعد أن يبهـره منظرهـا،

ويعرف أنها صاعدة إلى ذلك المكان الجميل في السماء، حيث النعيم المقيم، والسعادة الأبدية الخالصة، والحب الصافي العميق بين البشر الذين لا تؤرقهم مشاحنات أو صراعات دنيوية دنيئة، وقد ظلت عزيزة تحسب حساب هذه المشكلة، والطريقة التي سوف تواجهها بها إذا ما حدثت فعلاً، لذلك قررت أن يكون الإقلاع ليلاً، بينما يكون المأمور غير موجود في السجن، على أن تتم العملية بسرية، وهدوء وسرعة، ولهذا فإنها سترجو الأفراس، ألا تصهل صهيلها الجميل، وألا ترفرف بأجنحتها الذهبية القوية، ذات الرنين الموسيقى السحري قبل لحظة الصفر لئلا تلفت الأنظار إلى العربة، وتجعل النائمات يفقن، ويحاولن الركوب بها، وستأمر كل من اختارتهن للصعود معها أن يتحركن بحذر وهدوء، وسرعة، لكي تتم العملية بنجاح، قبل وصول المأمور كي لا يكتشف أمر العربة ويحاول الصعود إليها مما يعقد المشكلة.

كان ذلك الهاجس، هو الذي يؤرقها، كل ليلة، عندما تنتهي من التفكير في حبيبها، وأمها، وراكبات العربة الصاعدة إلى السماء، ذلك الأرق الذي يطرد محاولات النعاس للاستقرار في عينيها، ويجعلها تسمع صياح الديكة

وأذان الفجر، حتى آخر ليلة، عاشتها في هذه الحيـاة، تلـك الليلة التي استعادت فيها، كل ما يمكن أن تستعيده ذاكراتهـا التي ظلت أنيسة لياليها الطويلة الموحشة في السجن، ورتبت كل ما أرادت ترتيبه وتدبيره، لتصعد عربتها الذهبيـة إلـى سمائها المنشودة، بعد أن نادت على راكباتهـا المختـارات واحدة واحدة، نداء سريا لا يسمعه سواها، وألبست كلاً منهن ثوبها الرائع المعد خصيصا لها، وجعلـت عـدلي الحـلاق يصفف لكل واحدة شعرها ويزين رأسها بما يجعله في أجمل صورة، وعلى خير وجه، ثم إنها تأهبـت بعـد كـل ذلـك للصعود، كما تصورته، ورسمته في مخيلتهـا، بكـل دقـة، فارتدت ثوبها الأسود المخملي الطويل، ذا الأكمام الطويلـة، والصدر المصنوع من الدانتيل الذي نثـرت عليـه ماسـات صغيرة، تتلألأ بالألوان الطيف، على شكل زهـور بديعـة التكوين والصنع ثم إنها صففت شعرها بطريقتهـا المفضـلة التي طالما أتقنها عدلي الذي تفنن في إتقانها هذه المرة، أكثر من أية مرة أخرى، فجمعه ولمه في نهايـة رأسـها، عنـد اتصاله بالرقبة، وأمسكه بشريط من الساتان الأسـود، علـى هيئة فراشة جميلة، ثبتت فيها لؤلؤة صغيرة، ثم إنها بعـد أن

استعرضت نساء العربة واحدة، واحدة، وتأكدت أن زينـتهن على ما يرام، بل إنهن في تمام الجمال وغاية الفتنة، سمحت لهن بالركوب، وحملت قطة السجن المشمشـية فـي يـدها، وكانت قد وضعت لها، حول رقبتها، شريطًا مـن القطيفـة البنية الداكنة، يتدلى منه جرس فضي صغير، أمـا رفيقتهـا السوداء، فقد حملتها للفلاحة أم الخير التي شـعرت بسـعادة غامرة، كما لو كانت قد عثرت على لقية من اللقى، بعـد أن أحاطت عزيزة رقبتها بشريط من الحرير الأحمر الـوردي، فبدت جميلة متألقة بسوادها اللامع، ولم تنس تعليـق جـرس صغير بالشريط أيضا، وبعد أن صعد الجميع إلـى العربـة، واتخذن مواقعهن فيها، أشارت عزيـزة بيـدها إلـى فرقـة الموسيقى السماوية التي جلبتهـا لتعـزف لحـن الصـعود السماوي وهو اللحن ذاته الذي انطبع في ذاكرتهـا بعـد أن سمعته يوما في زمنها الماضي، تعزفه فرقة من فرق الجيش الموسيقية، يوم عيد الجلاء في كشـك الموسـيقى بحـدائق أنطونيادس الجميلة التي ما عاد أحد يعزف فيها أو في غيرها شيئًان ربما لأن الزمان الذي كان الناس فيه يتذكرون عيـد

الجلاء، مضى، وقد عزفت الفرقة السماوية عزفًـا جمـيلاً، رائعا، اهتزت له مشاعر عزيزة.

وبعد أن انتهت من مراسم الصعود السماوي المهيبة التي كانت مسبوقة بعشاء فاخر أكثر من كل عشاءات الفنادق ذات النجوم الخمسة فما فوق وحفل راقص، تخللـه رقـص رائع، طالما رقصته عزيزة مع الحبيب الأزلي فـي قاعـات الأندية الليلية الفاخرة بالمدينة، أيام أعياد المـيلاد، وليـالي رأس السنة، وبعد أن انتهت من إلقاء نظرة مودعة عميقة، لم تخل من احتقار لكل عالم السجن الرهيب، بمبناه، وإدارتـه، وسجاناته وطعامه، ونومه، وملبسه، وعالمـه اللاإنسـاني، أعطت شارة البدء في الانطـلاق، بعـد أن أحكمـت قفـل الأبواب، فبدأت الأفراس البيضاء الجميلة القوية تفرد أجنحتها الذهبية الرائعة، وكأنها أشرعة لسفن أسطورية سوف تمخـر عباب البحر.

لكنها، وبدون أن تعرف كيف جرى ذلك على وجـه التحديد، فوجئت بمأمور السجن، والسجانات اللواتي طالمـا كرهتهن، يظهرون أمام العربة، فيعترضـونها، ويوقفونهـا، محاولين الركوب فيها.

عندئذ، ارتفع ضغط دم عزيزة، وكانت وحيدة فـي زنزانتها، ارتفاعا كبيرا حتى تجلط الدم جلطات متتالية: مرة، ومرتين، وثلاثة في مخها الذي ما كف لحظـة قبـل توقفـه الأخير، عن التفكير في العمر الذي مضى، والحيـاة التـي تسربت في دروب الأقدار وما عاشته مـن سـنوات فـرح وسنوات حزن.

فلما دخلت في غيبوبتها الأخيرة، وبدأت تنازع نزع الموت الذي ما شهدته نجمة سماوية واحدة، رأت مختاراتهـا من نساء السجن، يهبطن بسرعة من العربة الذهبيـة مـرة أخرى، ويشتبكن مع هؤلاء الذين يودون اقتحامها، والصعود فيها، حتى نجحن في ردهم خائبين، بعد أن أسقطنهم تحـت أرجل الأفراس البيضاء، ذات الأجنحة الذهبية التـي أخـذت ترفرف بأجنحتها لتنطلق إلى السماء بعد أن رفعت عزيـزة يدها بصعوبة، مكررة شارة الصعود، ولم تتوقف دقات قلبها التي كانت قد أخذت تخبو شيئًا فشيئًا، لينتهي دبيـب الحيـاة فيها، إلا بعد أن تيقنت من إحكام إغلاق نوافذها وأبوابها على كل اللواتي كن قد عدن إليها من صفوة نساء السـجن، وأن

الأفراس البيضاء رفعت أقـدامها عـن الأرض، وطـارت بأجنحتها الذهبية إلى السماء.

صدر للكاتبة

- زينات في جنازة الـرئيس (قصـص قصـيرة) – القاهرة ١٩٨٦.
- مقام عطية (رواية قصيرة وقصص) – دار الفكـر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة ١٩٨٦.
- عن الروح التي سرقت تدريجيا (قصص قصيرة) – مصرية للنشر والتوزيع القاهرة ١٩٨٩.